الأضواء

اللغة العربية

الصف 2 الثانوى

قصـــة وَا إِسْلامَــاه «للأديب: على أحمد باكثير»

الفصل الدراسى الثانى

2024 - 2025

KTABYEG.COM

الفهرس

أهم الشخصيات التى وردت فى الفصل الدراسى الثانى ٣

الفصل التاسع: (قُطُز) يُؤَدِّى وَاجبَ الجِهادِ معَ الجيشِ المِصْرىِّ ٥

الفصل العاشر: لِقَاءُ (قُطُز) بـ (جلَّنار)، والْتِقَاؤُه بالصَّلِيبيين ١٠

الفصل الحادى عشر: صِرَاعٌ عَلَى السُّلْطَةِ وَعَلى (شجرِ الدُّر) ٢٢

الفصل الثانى عشر: زَوَاجُ (قُطُز وَجلنارَ) ونهايةُ (المعِزِّ وَشَجَر الدُّرِّ) ٣٦

الفصل الثالث عشر: (قطزُ) يتولَّى المُلْكَ ويستعدُّ لِغَزْوِ (التتار) ٣٩

الفصل الرابع عشر: معركةُ (عَيْنِ جَالُوتَ) ٥١

الفصل الخامس عشر: (قطز) يُحَاكِمُ الخَونَةَ، ويُطَارِدُ التَّتارَ، وَيتوجَّهُ إلى (دِمَشْق) ٦٠

الفصل السادس عشر: نِهَايةُ (قاهر التتار) ٦٢

KTABYEG.COM

أهم الشخصيات التى وردت فى الفصل الدراسى الثانى

١ **الشيخ العزبن عبدالسلام:** يُعد من أعظم شيوخ عصره، كان له نفوذ سياسى ودينى كبير، وقد ساعد قطز فى جمع الأموال لحرب التتار، وله فتاوى جريئة ضد المماليك ونهبهم أموال الشعب.

٢ **شجرالدر:** زوجة الملك (الصالح نجم الدين أيوب)، تولت حكم مصر بعدمقتل توران شاه، ثم تنازلت عنه لأيبك الذى تزوجته، ودبرت خطة للتخلص من أقطاى، ثم أخذت تسيطر على زوجها السلطان (عزالدين)، حتى أمرت خدمها بقتله فى الحمام، فأسرع مماليكه للانتقام منها، فضربت حتى ماتت على يد خدم أم الملك المنصور.

٣ **عزالدين أيبك:** زوج (شجرالدر) بعد موت زوجها (نجم الدين)، لُقب بالملك (المعز)، ثم اختلف مع زوجته (شجرالدر)، فدبرت مع خدمها خطة لقتله بالقصر.

٤ **فارس الدين أقطاى:** من كبار المماليك، ومن أعداء (عز الدين أيبك)، والمنافسين له فى الحكم وفى حب (شجرالدر). أثار الفتن ضدهما، فقتله (قطز) بتدبير من (شجر الدر).

٥ **الملك الناصرداود:** هو حاكم (الكرك) وقد سبق الصالح إسماعيل إلى (البلقاء)؛ ليقطع عليه الطريق حتى يأتيه الجيش المصرى، ولكنه هُزِم قبل وصول الجيش المصرى.

٦ **الأميرفخرالدين:** ابن شيخ الشيوخ، حارب الصليبيين، وتسبب بانسحابه فى احتلال دمياط، ومات فى موقعة (المنصورة).

٧ **الملك المغيث:** ملك الكرك، لجأ إليه بعض أمراء المماليك ومنهم بيبرس وأغروه بغزو مصروقتال قطز، ولكنه هُزم وعاد باللوم على بيبرس.

٨ **توران شاه:** ابن الملك (الصالح أيوب)، لم يقدِّرجميل (شجرالدر) التى سلمته مقاليد الحكم، وهددها بالقتل، وانهمك فى الشراب والفساد، مما أغضب المماليك عليه؛ فقتلوه!!

٩ **المنصور:** ابن (عزالدين أيبك)، الذى تولى الحكم بعد قتل (شجرالدر) وعمره خمسة عشر عامًا، وقد قام (قطز) بعزله لكثرة مفاسده، وحتى يستطيع التفرغ لقتال التتار.

١٠ **هولاكو:** حفيد (جنكيزخان) وقائد من قواد التتار الذين ارتكبوا فظائع وحشية فى بغداد.

١١ **كَتْبغا:** من أتباع (هولاكو) استخلفه على القيادة فى (عين جالوت) عندما علم بموت أخيه. وقد قتله (أقوش) أحد أمراء المماليك فى المعركة.

KTABYEG.COM

١٢ **لويس التاسع:** ملك فرنسا، هُزم فى موقعة (المنصورة)، وسُجن فى دار (ابن لقمان)، ولم يفرج عنه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة.

١٣ **موسى شاكر العطار:** عطار فى سوق العطارين بالقاهرة، كان على علاقة بالنخاس الذى اشترى قطز من جبل الأكراد.

١٤ **الوزير معين الدين:** استغل منصبه الوزارى فبنى غرفة له على سطح مسجد مجاور لبيته؛ ليتخذها مقعدًا له ولأصدقائه فشكاه الشيخ ابن عبد السلام، فتغاضى السلطان عنه.

١٥ **الملك الناصر صلاح الدين:** حليف من حلفاء الصالح إسماعيل فى حلب، استجار به إسماعيل لمَّا هُزم من «الصالح» فأجاره.

١٦ **الطواشى جمال الدين:** استدعته شجر الدر هو والأمير (فخر الدين)، فنعت إليهما السلطان، ووصتهما بكتمان موته خوفًا من الفرنج.

١٧ **الكند دارتوا:** من قواد الصليبيين، وهو أخو لويس التاسع ملك فرنسا، وقد قام قطز بمبارزته ثم قتله إنقاذًا لبيبرس.

١٨ **مرغريت:** هى زوجة (لويس التاسع)، ومن دفعت فدية كبيرة لإنقاذه من الأسر.

١٩ **الملك الأشرف موسى بن مسعود:** اختاره المماليك ليكون سلطانًا لمصر؛ حيث إنه من بنى أيوب، رغم أنه لم يزد عمره على ست سنوات، وعزله أيبك بمباركة شجر الدر.

٢٠ **منكو خان:** هو شقيق (هولاكو)، مات قبل معركة عين جالوت مما دفع هولاكو ليعود إلى بلاده وينيب عنه كتبغا.

٢١ **يعقوب بن عبد الرفيع:** وزير (قطز)، وأحد رجاله الذين يعتمد عليهم، وقد استمع إلى خطة الهجوم على التتار.

٢٢ **الأمير جمال الدين آقوش الشمسى:** كان يقاتل إلى جانب السلطان قطز، فأبصر فرجة فاقتحمها إلى قائد التتار كتبغا، وصاح يخاطب السلطان: «يا خوند» أنا يدك، لقد قتلت عدو الله بيدك.

٢٣ **الأمير بهادر:** من رجال أيبك، ساعد (قطز) هو والأمير (سنجر الغتمى) فى قتل أقطاى، وكذلك رفض بشدة خلع المنصور بن أيبك، وهو قائد الميمنة فى جيش مصر الذى هزم التتار فى عين جالوت.

٢٤ **بدر الدين لؤلؤ:** هو صاحب الموصل، وقد خشى التتار، فأعانهم على إخوانه المسلمين المجاهدين بـ (أربل).

٢٥ **القاضى (فخر الدين إبراهيم ابن لقمان):** صاحب الدار التى سجن فيها لويس التاسع بالمنصورة.

٢٦ **شارلس وألفونس:** أخوان لملك فرنسا، أُسِرا معه فى معركة المنصورة.

٢٧ **بدر الدين بكتوت الجوكيندار:** أحد الأمراء المعزية وقد ضمه المتآمرون على السلطان إليهم؛ كى يأمنوا على أنفسهم من ثورة المماليك البحرية.

KTABYEG.COM

ملخص أحداث الفصل

- خَشِى (الملكُ الصالحُ إسماعيل) مِنْ عَاقِبة قَتْل (الشَّيخ العز بن عبد السلام) فنفاه مِنْ (دمشق) فخرج الشيخ وشيَّعه أهلها بحزن.
- وفى معركة (تل العجول) لعب قطز دورًا كبيرًا قد رسمه ابن الزعيم فى هزيمة الصالح إسماعيل والفرنج أمام الجيش المصرى.

وبعد انتهاء المعركة عاد (قطزُ) إلى (دمشقَ)؛ لِيسْتَأذنَ سَيده (ابن الزعيم) فى الرحِيل إلى (مصر).

فوافَق (ابْن الزَّعيم)، وسيَّر (الحَاج عليًّا الفراش) ليبيعَه (لِلمَلِكِ الصالح نجم الدين أيوب).

عرض الأحداث

١ نَفْىُ الشيخِ (ابن عبد السلام) مِنْ دِمَشْق إلى مِصْر:

خشِى (الصالحُ إسماعيلُ) مِن الشَّيْخِ ابنِ عَبْد السَّلَام وأَنصاره فرَأى أنْ يَطْرُدَه مِنْ بِلادِه لِيُكْفَى شرَّهُ، فَنَفَاه، وقبضَ على (ابنِ الزعيم) ففرضَ عليه غرامةً كبيرةً، وصادرَ بعضَ أملاكِه، ثم أطلقَه لقُوةِ شِيعَتِه[١]، وقبضَ على مَنْ سِواهُ ممن صحَّ لدَيْهِ انتِمَاؤُه إلى الشيخِ (ابن عبدِ السلام)، فسَجنَ بعضَهم ونفَى بعضًا، وصادرَ أموالَ بعضٍ.

٢ تكريمُ (الشيخِ ابنِ عبدِ السلام) فى (مصر):

وكانَ يومُ خروجِ الشَّيخِ بأَهْلِهِ من (دمشقَ) يومًا مشْهُودًا. شيَّعَه[٢] أهلُها فيه بالبُكاءِ والنَّحيبِ، فساريقصدُ (مِصْرَ) فعَرَّج[٣] على (الكَرَك)، فأَقامَ بها أيامًا عندَ صاحبِها (الملكِ الناصِر داودَ)، استطاعَ فى خِلالها أن يُقنعَه بِتَأْييدِه فى الخُطَّةِ التى يَسْعَى لتحقيقِها.

ولما قَدِمَ الشيخُ (ابنُ عبدِ السلام) إلى (مصرَ) أكرمَهُ الملكُ (الصَّالحُ أيوبُ)، وولَّاه خطابَةَ جامعِ عمْرٍو، وقلَّده قضاءَ مصرَ والوجه القِبلى، فوجدَ الشيخُ مجالًا كبيرًا للعَملِ، وأخذَ يَحُثُّ (الصالِح أيوبَ) عَنْ كَثَبٍ[٤] على التَّعجيلِ بقتالِ (الصالح إسماعيل) وأحْلافِه الصَّليبيينَ.

٣ نَدَمُ (الصَّالح إسْمَاعيل) عَلَى نَفْىِ (ابنِ عَبْد السّلام) وَعَدَم قَتْلِه:

وبلغَ (الصَالِحَ إسماعيلَ) اتفاقُ (الناصرِ داودَ) مع صاحب (مصر) بِسَعْى (ابنِ عبدِالسلامِ)، فندِمَ على أنْ نَفاهُ من بلادِه، وكانَ قَدْ طابتْ[٥] نفسُه واستراحَ بالُه بعدَ رحيلِ الشيخ (ابنِ عبدالسلامِ)، وَتَبدُّدِ شَمْلِ[٦] أَنْصارِه فاسْتقرَّتْ له الأحْوالُ (بدمشقَ)، وظنَّ أنَّ الثورةَ التى أشْعلَها الشيخُ (ابنُ عبد السلام) فى قُلوبِ المؤمنينَ مِنْ أهلِها قد انْطفَأتْ ولم يَبْقَ إلَّا رَمادُها، وما علمَ أنَّ جَذْوتَها[٧] باقيةٌ تحتَ الرمادِ تنتظرُ ريحًا تكشفُ عنها، فإذا هى حَمْراءُ مُلْتَهِبَةٌ، على أنَّ اطْمِئْنانَه لَمْ يَدُم طَوِيلًا إذْ سُرْعَان ما عَصَف به ما بلغَه مِن اتِّفاقِ صَاحبِ (الكركِ) معَ عدوِّه صَاحِب (مصرَ).

(١) شيعته: أنصاره – أتباعه، الجمع: شِيَع.
(٢) شيَّعه: ودَّعه.
(٣) عرَّج: مال.
(٤) كثب: قرب.
(٥) طابت: قرَّت – سعدت.
(٦) تبدد شمل: تفرق جمع.
(٧) الجذوة: الجمرة الملتهبة.
الجمع: جُذًى، وجِذاءٌ.

KTABYEG.COM

٤ العَوامِلُ التى خَفَّفَتْ حُزْنَ (ابنِ الزَّعيم) على رَحيلِ (ابنِ عَبْد السلام):

أما السيدُ (ابنُ الزعيم) فكانَ قد حزِن لرحيل صَدِيقه وَشَيْخِه (ابنِ عبدِ السلام) عن (دمشقَ)، ولولا اشتباكُ مَصَالِحِه بها وارتباطُه بِعَشِيرته العَدِيدِينَ فِيها لَلَحِقَ به فى (مصرَ)، على أنَّه تعزَّى بما أَصَابَه الشيخُ فى طريقِه إلى (مصر) مِنَ النَّجاحِ فى التَّوفيقِ بَيْنَ صَاحِبِها وبينَ (الناصرِداود)، وبما لقيَه مِنَ الحفاوةِ والتَّكْرِمةِ عند (الصَّالحِ أيوبَ)، وخفَّفَ من أَلمِهِ أيضًا أن فى بقائِه (بدمشقَ) ما يُمكِّنُه مِنَ القيام بعملٍ من الأعمالِ يَعُودُ بالخيرِ على الفكرةِ التى تَعاونَ معَ (الشيخِ) على الجِهَادِ فى سَبِيلِها.

٥ أثرُ الشيخ (ابن عبد السلام) فى (قُطز):

ولم يكُنْ (قُطزُ) بأقلَّ حُزنًا مِنْ سيِّده لفِرَاقِ الشيخِ، وكان أشدُّ أَسَفِهِ على تلك الأيام السَّعيدةِ التى تردَّدَ فيها علَى الشَّيخِ فى مُعْتقَلِه حينَ كان يقومُ بالوساطَةِ بينَه وبينَ أنصارِه مُتَنكِّرًا فى زىِّ الحلَّاقِ، فقد نَعِمَ فيها بِخَلَواتٍ جَمِيلةٍ معهُ أَفَاضَ عليهِ فيها من نَفَحاتِه[٨] وأسرَارِه، وأقْبَسَه[٩] مِنْ أنوارِه، ونَفَثَ[١٠] فيه من رُوحِه، وأفادَه من واسعِ عِلْمِه ما ملأَه حِكْمةً ويقينًا، وبَصِيرَةً فى الدِّينِ، ومعرفةً بالحيَاةِ، وغرامًا بالجهادِ فى سبيلِ الله.

ولَوْ لَمْ ينلْ فيها من الشيخ إلا الدعوتَينِ العظيمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ دعَا بِهما له: «اللهمَّ حقِّقْ رُؤْيا عبدِك قُطزَ كما حقَّقتها من قبلُ لعبدِك ورسولِك يوسُفَ الصِّدِّيقِ عليهِ وعلى آبائِه السلامُ»، والثانية الأحبُّ إلى نفسِه: «اللهمَّ إنَّ فى صَدْرِ هذا العبدِ الصالحِ مُضْغةً تهفُو إلى إلْفها[١١] فى غَيْرِ مَعْصِيَةٍ لَكَ، فأتِمَّ عليهِ نِعْمَتَكَ. واجْمَعْ شملَه بأمَتِكَ الَّتِى يُحِبُّها على سُنةِ نبيِّكَ محمدٍ ﷺ» - لكَفَتَاهُ. وكان (قُطزُ) يَحْفَظُهُما عَنْ ظهْرِ قَلْبٍ ويَعْتزُّ بهما، وكثيرًا ما كانَ يَدْعُو بهمَا فى أثْنَاءِ صَلاتِه أو بَعْدها، إلَّا أنه كانَ يَحْذِفُ من الدعوةِ الثانيةِ كلمةَ «الصالح»، وكان لا يُخالجُه[١٢] شكٌّ فى أنَّ الله استَجَابَهما مِنَ الشيخِ، وكُلَّما تذكَّرَ منظرَه حين دعَا بِهِمَا، وتوجُّهَهُ إلى ربِّه وإخلاصَهُ الدعاءَ، ازدادَ يقينًا بقبولِهما وإيمانًا، فقد شعرَ عندما انطلقتَا مِنْ فَمِ الشيخِ بأنَّهما اخترقَتَا حُجُبَ السَّماواتِ السبعِ، وتردَّدَ صَدَاهُما فى جَنَبَاتِ العرشِ.

فَلا غَرْوَ[١٣] أنْ تَبدَّلَ حالُ (قُطز) منذُ دعَا له الشيخُ، فأضْحَى شَدِيد الثِّقةِ بِنَفْسِه، مُبْتَهِجَ الخاطِرِ فى يَوْمِه، قَوِيَّ الرَّجاءِ فِيما يَدَّخِرُه الله فى غدِه من شَرفِ المُلْكِ وسعادةِ الحبِّ، وأىُّ شرفٍ فى الدنيا أعظمُ مِنْ مُلكِ (مصرَ)؟ وأىُّ سُؤْدَدٍ[١٤] أكبرُ عندَ الله وأحبُّ إلى نفسِه مِنْ هَزِيمة التتارِ؟ ثم أىُّ سعادَةٍ فى الحياةِ أحْلَى فى قَلْبِه من لِقاءِ حبيبتِه (جلَّنارَ)؟!

وقد تعلَّمَ مِنَ الشيخِ أنَّ النِّعْمَةَ لا تدومُ إلا بالشُّكر، فإذا كانَ هَذا حال النِّعْمةِ الرَّاهِنَةِ التى فى قَبْضة اليَدِ، فما ظنُّك بالنِّعمةِ المنتظَرةِ الَّتى هِىَ بعدُ فى ضَميرِ الغَدِ، فَلْيَشكُرْ نعْمَةَ الله التى يَتَقَلَّبُ فيها[١٥]، ليزيدَهُ النعمةَ التى يَنتظِرُها ويرجُوها، وأساسُ الشُّكرِ التَّقْوَى، وملاكُ[١٦] التقْوَى الجِهَادُ فى سَبيلِ الله: جِهادُ النفسِ بكَفِّها[١٧] عَنِ الآثام ورَدْعها عن الشهواتِ، وجهادُ العدوِّ بدفعِه عن بلادِ الإسلام.

٦ (قُطز) يَسْتأذِنُ سيِّدَه فى الرَّحيلِ لِيُقَاتِلَ معَ الجَيْشِ المِصْرِىِّ:

دَخل (قُطز) على سيِّدِه يُرِيدُ أنْ يأخُذَ رأيَه فيما عزَمَ عليه، فقالَ له: «يا سيِّدى يا أعزَّ الناسِ علىَّ، إنَّك فى غِنًى عن خِدْمَتِى، وما اشْتَريْتَنى ولا اسْتَبْقيْتَنى إلا لمنفَعَتِى، وقد رأيتُكَ لا يَعرضُ لك أمرانِ فى أحدِهمَا مصلحَتُك، وفى الآخرِ مصلحةُ المسلمِينَ، إلا آثرتَ ما فيهِ مصلَحةُ المسلمِينَ على ما فيه مصلحتُك، فلو أذِنْتَ لى فخرجْتُ أُقاتلُ فى سبيلِ الله معَ جيش مِصْرَ لَرَجَوْتُ أنْ أُبْلِىَ فيه بَلاءً حَسَنًا، فإنِّى أُجِيدُ الطِّعانَ والضِّرابَ، وأُحسِنُ الرُّكُوبَ والرماية، وقد نشَأنى خَالِى -رحمهُ الله- على الفُروسيَّة منذُ صِبَاىَ».

(٨) نفحاته: بركاته.	(١١) إلفها: حبيبها.	(١٢) يخالجه: يداخله.
(٩) أقبسه: أعطاه وأمدَّه.	(١٣) لا غرو: لا عجب.	(١٥) يتقلَّب فيها: ينعم بها.
(١٠) نَفَث: نفخ.	(١٤) سؤدد: رفعة.	(١٦) ملاك: أساس.
		(١٧) بكفِّها: بمنعها.

KTABYEG.COM

٧ مُوافَقَةُ (قُطز) عَلَى خُطَّة (ابن الزعيم) لِهَزِيمَةِ (الصَّالح إسْمَاعيل) وكِتْمَانُها:

فقال (ابنُ الزعيم) وقد اهْتزَّ طرَبًا لِمَا رأى مِنْ حَماسَةِ مَملوكِه للجهاد: «مَرْحَى يا (قطزُ)، مَرْحَى يا سَلِيلَ[١٨] (خوارزم شاه)! هذا والله دمُ الجهادِ يثُورُ[١٩] فى عروقِكَ، وما يكونُ لى أنْ أُخْمِدَه، ولكنِّى أرَى أنْ تَقومَ بما هو أنفعُ للمُؤْمِنينَ، وأنْكَى[٢٠] على العدوِّ من إلحاقِك (بمصرَ) لتزيدَ عددَ جيشِها رَجُلًا واحدًا، وقد علَّمَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ الحربَ خُدْعةٌ، فإذا صَحَّ[٢١] عزمُك على بَيْع نفسِك لله ابتغاءَ لمُثوبَتِه وخِدْمةً لدينِه، فأَصْغِ لِما أقولُه، واتَّبِعْ ما أُرشِدُكَ للقيامِ به: اخرج فى غِمارِ[٢٢] جيوشِ (الصَّالح إسماعيلَ) كأنَّك واحدٌ منهم، حتَّى إذَا تَصافَّ الفريقَانِ، فصِحْ[٢٣] بأعلَى صوتِك فى الفريقِ الذى أنتَ فيه بأنَّ جيشَ الملكِ (الصالحِ أيوبَ) إنَّما يُقاتلُ الصليبيِّين الكفارَ، وأنَّ جيشَ (الصالحِ إسماعيلَ) إنَّما خرجَ معَ الكُفَّارِ لِقتالِ المسلِمينَ، ثم أَهِبْ[٢٤] بالمسلمين من جيش (الصَّالح إسماعيلَ) أن يَنْحازُوا لإخوانِهم، لِيقَاتِلُوا جميعًا أعداءَهم الكفارَ، وتقدَّمْ فانْحَزْ أنتَ وجماعتُك الَّذين سأبعثُهم معَك من إخواننا الْمُخْلِصينَ، فسَيَنْحازُ[٢٥] الباقُون معَكُم، وتدورُ الدائرة على هَذا الملكِ الخائِن وأحلافِه الفرنج إنْ شَاء الله». فقال (قُطزُ)، وقد اقتَنَع بسداد رأيِ مولاهُ: «رأيك الرأىُ يا مولَاى، أنا عبدُك سأصدَعُ بأمرِكَ».

– قال له سيدُه: «إنما أنتَ ابنِى وسأفْخَرُ بِك ما حييتُ، ولكنْ حذَاريا بُنَىَّ أنْ يَتَسرَّبَ مِنْك هذا السرُّ إلى أحدٍ، فإنَّ (للصالحِ إسماعيلَ) عُيُونًا وجَواسيسَ فى كُلِّ مكانٍ».

فقال (قطزُ): «اطمئِنَّ يا سيدى فلن أُخبرَ به أحدًا». وأرادَ (ابنُ الزعيم) أن يضرب لمملوكِه مثلًا فى كَتْمِ السِّرِّ، فسأَله: ما رَأْيُك فى صَديقِك (الحاجِّ علىٍّ الفراشِ)، أَكَتُومٌ للسرِّ هو وأمينٌ عليه؟».

فأجابَه غيرَ مُدركٍ ما رمَى إليه السَّيدُ بسؤالِه: «أجَلْ يا مولَاىَ إنه لكتومٌ أمينٌ».

فَبَدرَهُ السيدُ قائلًا: «فاكتُمْ هَذا السرَّ عنه أيضًا، واعْلمْ أنَّ عدوَّك لا يُفشِى[٢٦] سرَّكَ، وإنما يُفشِيه الصَّديقُ، أَفَهِمْتَ مُرادِى يا قطزُ؟».

فقال قطزُ: «نعمْ يا سيدى فهمتُ، ولكَ علىَّ عهدُ الله أنْ يُقْطَع لسانِى ولا أَبوحَ بهذا السرِّ لأحدٍ ولا للحاجِّ علىٍّ الفراشِ».

٨ اسْتِعْدادُ جُيُوشِ (الصَّالِحِ إسماعيل) وانتصاره فى (البلقاء) على الناصر داود:

وتكاملتْ جيوشُ (الملكِ الصالحِ إسماعيل)، ووردَتْ إليه عساكِرُ (حِمْصَ) و(حَلَبَ)، وجاءتْه كُتُبُ حُلفائِه الفِرنجِ بأنهم على أُهْبةٍ للمَسيرِ لنجدَتِه، فخرجَ بعساكرِه من (دمشقَ)، وسارَ حتى نزلَ بنهر (العوجاءِ)، فبلغَهُ أنَّ (الناصرَ داودَ) قد سبقَه إلى (البلقاءِ) ليقطعَ عليه الطريقَ حتَّى يأتيَه الجيشُ المصرىُّ الَّذى كانَ فى طريقِهِ إلى الشام، فسارَ إليه (الصالحُ إسماعيلُ) وحملَ عليه بعساكِرَ، فلم يثبُتْ لهم جيشُ الناصرِ لقلة عددهم، وانهزمَ الناصرُ إلى (الكركِ)، واستولَى الصَّالحُ على أثْقالِه، وأسرَ جماعةً من أصحابه، وعادَ إلى (العوجاءِ) وقد قَوِىَ سَاعِدُه[٢٧]، واشتدتْ شَوكَتُه[٢٨]، وكان (قطزُ) وجَمَاعتُه مُنْدسِّين فى غِمار الجيشِ لا يعلمُ بأمرِهم أحدٌ ولم يصْنَعوا شيئًا، ينتظرون الجيشَ المصرىَّ وخروجَ الفرنجِ للقائِه.

٩ معركة (تل العجول) وتنفيذ (قُطز) خطة الخدْعَةِ:

وسارَ (الصالحُ إسماعيلُ) حتى وصلَ إلى (تلِّ العجولِ) حيثُ توافدتْ عليه جيوشُ حُلفائِه الفرنج من مُختلفِ بلادِ الساحلِ فانضمُّوا إليه، وأقاموا جميعًا مُتربِّصِينَ قُدومَ الجيشِ المصرىِّ لِيُناجِزُوه[٢٩] القتالَ.

وأَقْبلتْ طَلائعُ الجيشِ المصرىِّ، فندبَ[٣٠] (الصالحُ) جيوشَه للقتالِ ووضَعَ جيشَ الصليبيِّينَ على مَيْمَنَتِه،

(١٨) سليل: ابن أو ولد. الجمع: (سُلَّان).
(١٩) يثور: يفور.
(٢٠) أنكى: أشد.
(٢١) صَحَّ: ثبت، قَوِىَ. المضاد: تَراجَعَ، ضَعُفَ.
(٢٢) غمار: داخل.
(٢٣) فصِحْ: ارفع صوتك – اصرخ.
(٢٤) أهِبْ: حُثَّ وادعُ.
(٢٥) سينحاز: سينضم.
(٢٦) يُفشِى: يذيع. المضاد: يكتم.
(٢٧) الساعد: ما بين المرفق والكف. الجمع: (سَواعِد).
(٢٨) الشوكة: البأس. وقوة الساعد واشتداد الشوكة كناية عن قُوَّته.
(٢٩) لِيناجزوه: ليبدءوه بالقتال.
(٣٠) ندب: طلب.

KTABYEG.COM

وعساكرَ (حِمْصَ) و(حلبَ) على ميْسَرتِه، وجيشَ (دمشق) فى القلْب، وكانَ هُو عليه، ولما تواجَهَ الجمعانِ لَمْ يَشُكَّ (الصالحُ إسماعيلُ) وحلفاؤه الفرنجُ فى أنَّ النَّصْرَ سيكونُ لهمْ لما رَأوا مِنْ قِلةِ الجيشِ المصرىِّ، ورأى رجالُ الجيشِ المصرىِّ أنفسُهم أنهم قد أضَاعُوا الفرصةَ إذْ جاءوا بعدَ انهزامِ (الناصرِ داودَ)، فضعُفَ رجاؤُهم(٣١) فى النَّصر، واضطرُّوا إلى الثَّباتِ ليُشاغِلُوا عدوَّهم رَيثَما تَأتِيهم الإمدادات مِنْ بلادِهِمْ، والتحمَ القتالُ، وكادَ المصريُّونَ ينهزِمُونَ، وإذا بصوْتٍ يرتفعُ من صفوفِ الشَّاميِّين بينَ القلْبِ والميْسَرةِ: «يا أهلَ الشَّام حَيَّ(٣٢) على النصرِ، حَيَّ على الشَّرفِ!».

فما شَكَّ عساكرُ الشَّام أنه يُحرضُهم على قتالِ المصريِّين، فتحمَّسُوا له، وإذَا الصوتُ يرتفعُ ثانيًا: «يا أهلَ الشَّام: اتَّقُوا الله فى أنفُسِكم لا تُعرِّضُوها لِغَضَبِ الله، إنَّ أهلَ مصرَ إنما جَاءوا ليقاتِلُوا أعداءَكُم الصليبيِّين، وأنتُم تُقاتلُون إخوانَكم المسلمِينَ، فقاتِلُوا جميعًا أعداءَ الله وأعداءَ الشَّام ومصرَ، وقاتلوا الصليبيِّينَ!».

ولم يكدْ (قُطزُ) يتمُّ كلمتَه حتى مَرقَ(٣٣) من صُفوفِ الشاميين وتبِعَتْه جماعتُه إلى صُفوفِ المصريِّين، فما لبِث الشاميُّون أن تسللوا مِنْ صفوفِهم فى القلْب والميسَرةِ وانحازُوا إلى المصريِّين، حتَّى لم يبقَ مَعَ (الصالح إسماعيلَ) إلا شَراذِمُ(٣٤) قليلةٌ مِنْ حُثالَةِ(٣٥) جيشِه.

وقد ظنَّ المصريُّون أولَ الأمرِ أنها خُدعةٌ يُرادُ بها تطويقُهم فتقهقَرُوا قليلًا ريثَما يتبيَّنُون حقيقةَ الأمرِ، ولكنَّ (قطزَ) أدرك ما سَاور(٣٦) المصريِّين من الشَّكِّ فتدارَكَ الموقِفَ إذ دفعَ جوادَه إلى ميْسرتِهم تلقاءَ الصليبيِّين، وأشارَ للشاميِّين فَتَبعُوه، فأخذ يُقاتِل بهم الفرنجَ، فعندئذٍ تحقَّقَ المصريُّون أنَّ الأمرَ ليسَ بخُدعةٍ، فجمعُوا صفوفَهم وتقدَّموا إلى القتالِ جنبًا إلى جنبٍ مع إخوانِهمُ الشاميِّين، فأوقَعوا بالفرنجِ وقَتَلُوا عددًا كبيرًا، وانهزَمَ جيشُ (الصالحِ إسماعيلَ) ومن بَقِى حيًّا من رجالِه لحِقوا (بدمشقَ). وعادَ المصريُّون إلى بلادِهم مُنتصرين، وساقُوا أسرَى الفرنجِ معَهُم، وتفرقَ إخوانُهم الشاميُّون، فمنهم من سارَ معَهم إلى مصرَ، ومنهم مَنْ لحقَ (بغزَّةَ) التابعةِ لمصرَ. ومنهم مَنْ لحقَ (بالكركِ) عندَ (الناصرِ داودَ).

١٠ اختفاء (قُطز) وإبلاغه صاحبَ (الكركِ) بالنَّصْرِ:

أما (قُطزُ)، فقد التمَسَه المصريُّون عقبَ انتهاء المعركةِ ليحتَفِلوا به، ويعرفُوا له ما صَنعَ، كما فَعلُوا بغيرِه من إخوانِهم الشاميِّين، ولكنَّهم لم يجِدُوه؛ فظنُّوا أنه قُتلَ فى المعركةِ، فبحثُوا عنه فى القَتْلَى فلَمْ يقِفُوا له على أثر(٣٧)، وقد سألُوا الشاميِّين عنه، فلم يعرفْه منهم أحدٌ حَتَّى النَّفرُ الذين انحَازُوا معَه فى البدايةِ قالوا: لا نعرفُه، وقد صدقُوا فى هذا؛ لأنَّ السيد (ابنَ الزعيم) لما ندبَهم للخروج قالَ لهم: «إنكم ستسمعُون رَجلًا مِن أنصارِنا المخلصِين يَصْرخُ داعيًا للانحيازِ، فاتَّبعُوه»، ولم يُسَمِّ لهمْ ذَلكَ الرجلَ.

فاخْتَلَفَتْ آراءُ القَوْمِ فيه، وتردَّد القَولُ بينَهم بأنه رُوحٌ مِنْ أرواحِ المجاهِدِينَ الأولِينَ قد ظَهَر للنَّاسِ؛ ليوحِّدَ كلِمةَ المسلمينَ، ورجَّحَ بعضُهم أنه روحُ (صلاحِ الدين الأيوبىِّ)، ولم يجزمْ بأنه رجلٌ من الأحياءِ -وإن كَانُوا يجهلُون اسمَه- لا روحٌ من الأرواحِ إلَّا أولئك النفرُ الذين بعَثهم (ابنُ الزعيمِ) لينحازُوا معَه، ولكنَّهم كتمُوا اتفاقَهم معَ (ابنِ الزعيم) عنِ الناسِ جميعًا، لئلا يصِلَ خبرُه إلى (الصالِح إسماعيلَ) فيبطشَ بصاحبِهم. فتركُوا القومَ يهيمُون ما شاءوا فى أوْدِيَةِ الظُّنون.

ولم يعلمْ حتى هؤلاءِ النفرُ أينَ ذهبَ قائدُهم المجهولُ إذ انْسَلَّ(٣٨) مِنْ بَينهم خُفْيَةً حِينما رأى انهزامَ الصليبيِّينَ وفِرارَ الناصرِ ورجالِه، فعطف جوادَه(٣٩) ودفعَه مشرقًا فانطلقَ به كالسَّهم لا يلْوى عَلى شَىْءٍ(٤٠) إلى أن ابتعدَ عن الميدانِ، فمضَى يطوِى الأرضَ طيًّا حتَّى وصلَ إلى (الكرك)، فقصدَ قصرَ (الملكِ الناصِر داود) فبشَّره بانهزامِ (الصالحِ إسماعيلَ) وأحلافِه الفرنجِ فأكرمَه (الناصرُ) وخلعَ عليه وهو لا يعلَمُ عنه شيئًا إلا أنه أحدُ الشاميِّينَ الذين انحازُوا إلى المصريِّينَ قد بعثُوه بشيرًا بالنصرِ.

(٣١) رجاؤهم: أملهم. المضاد: يأسهم.
(٣٢) حىَّ: أقبِل وعجِّل.
(٣٣) مرق: خرج.
(٣٤) شراذم: جمع شرذمة: الجماعة القليلة.
(٣٥) الحثالة: الردىء من كل شىء، ومن الناس شرارهم.
(٣٦) ساوره الشك: داربعقله وخالطه.
(٣٧) فلم يقفوا له على أثر: المراد: لم يصلوا إليه.
(٣٨) انسل: خرج.
(٣٩) عطف جواده: حَوَّله.
(٤٠) لا يلوى على شىء: المراد: لا يهتم.

KTABYEG.COM

١١ (قُطْزُ) يعودُ إلى (دمشق) ويستأذِنُ فى الرحِيلِ إلى (مصر):

ولما انصرفَ من عندِ (الناصرِ) وخرجَ على جوادِه من بابِ المدينةِ تردَّدَ حينًا أىَّ صَوْبٍ يتوجَّه؛ فقد اشتدَّ به الشوقُ إلى (مِصْرَ)، وعَظُمَ حبُّها فِى قلبِه، وأحسَّ أنَّها وطَنُه المختارُ دونَ سائرِ بلادِ الأرضِ، وقوِىَ ميلهُ إلى التعجيلِ بالسفرِ إليْها، لولا أنَّه تذكَّر سيدَه (ابنَ الزعيم) بدمشقَ فعزَّ عليه أن يتوجَّه إلى مصرَ بغيرِ إذنِه، وشعرَ أنَّه إنْ فعل ذَلِك كانَ كالعبدِ الآبق من سيِّده، وهو وإنْ كان يعلمُ حُبَّ سيده له وإيثارَه[٤١] مصلحتَه على مصلحةِ نفسِه، إلا أنَّه لا يَرى من الصواب أن يَبُتَّ فى مِثْلِ هذا الأمرِ الخطيرِ قبل أنْ يستأذِنه، ويحصُلَ على موافقتِه، وما لبثَ أنْ لَوَى عِنانَ جوادِه[٤٢] متوجهًا تلقاءَ (دمشقَ).

فرحَ السيدُ (ابنُ الزعيمِ) برجوعِ مملوكِه سالمًا إليه، وأَثْنَى عَلَى كِفايَتِه فى تأديةِ المهمَّة التى كَلفَه القيامَ بها، فَشَكَرَه (قُطزُ) قائلًا: إن الفضلَ فى ذلك يرجعُ إلى سيدِه لِما أحسنَ من تربيتِه، وغرسَ فيه من حبِّ العملِ الصَّالِح، ثم عرضَ عليْه ميلَه إلى الرحيلِ إلى (مِصْرَ)، ليلتحِقَ فيها بخِدْمَةِ الملكِ (الصَّالِح أيوبَ)، لعله يستطيعُ أن يقومَ فِيها بعملٍ يُرضِى الله ويخدمُ به الإسلامَ تحت إرشادِ شيخِه (ابن عبدِ السلام) فقالَ له سيِّدُه إنَّه لا يسعُهُ إلا أنْ يأْذَنَ له بذَلِكَ وإن كان فِراقُه عزيزًا عليْه.

١٢ هَدَفُ (قُطز) من الرحيل إلى (مِصْرَ):

وعرضَ عليهِ أنْ يكتُبَ له بعتقِه، فرجَاه (قُطْزُ) ألَّا يفعلَ، وتوسَّل إليه أن يبعَثَ مَعَه من يَبيعُه لسُلطانِ مصرَ فينتظِمَ بذلِكَ فى سِلْكِ مماليكِه، فلم يصعُبْ على (ابنِ الزعيمِ) فَهمُ مُرادِه، إذْ كان يعلمُ ما يجولُ فى خاطرِ مملوكِه الشَّاب، وما يحلمُ بهِ من الصُّعودِ إلى المناصِبِ العاليةِ فى (مصرَ)، وهو يذكرُ رُؤياه العظيمةَ وما أوحَتْ إليه من الطُّموحِ إلَى المُلْكِ؛ ليحقِّقَ به أملَهُ فى الحُكمِ الصالحِ، ولا ينسَى دعوةَ (الشيخِ ابنِ عبد السلامِ) له بأنْ يحقِّقَ الله أملَه هذا العظيمَ، وأمنيتَه فى لقاءِ حبيبتِهِ المالكةِ عليه لُبَّه[٤٣]، ولا يستبعدُ (ابنُ الزعيم) نفسُه أن يبْلُغَ هذَا الشابُّ القويُّ الأمينُ ما يطمحُ إليه، لما عَرَفَ فيه مِنَ الخِلالِ التى تُؤَهِّله[٤٤] لما يُريدُ.

١٣ وداعُ (ابن الزعيم) (لقطز) ليلتحِقَ بخدمةِ الملكِ (الصالحِ أيوبَ) فى مِصْرَ:

وما هى إلا أيَّام حتى تجهَّز (قُطزُ) للمسيرِ فَوَدَّعَهُ سيِّدُه بدموعِه الحارةِ، وتعانَقَا عِناقًا طويلًا، بَثَّ كلاهُما فيه ما يُكنُّه[٤٥] للآخرِ، واشْتَجَرتْ فيه عواطفُ الحُبِّ والحنوِّ بعواطِفِ الولاءِ وعِرفانِ الجميل.

وسيَّر (ابنُ الزعيم) معَه خادمَه الأمينَ، (الحاجَّ عليًّا الفراشَ)، ليُرافِقَه فى الطريقِ، وليبيعَه فى مصر للمَلك (الصالحِ أيوبَ)، ولا يبيعَه لأحدٍ غيرِه، وأوْصاه أن يُقدِّمَ ثمنَه لصديقِه الشيخِ (عزِّالدين بن عبد السلامِ)، يَتصرَّفُ فيه كمَا يشَاءُ.

وقبلَ أن يُغادرَ الرَّفيقانِ دَربَ القصَّاعِينَ (بدمشقَ)، التفتَ (قُطزُ) فألقَى نظرةً على قصرِ سيدِه (ابنِ الزعيمِ)، ثم ألقَى نظرةً أخرَى على قصرٍ مُناوِحٍ[٤٦] له قد خَيَّمَ[٤٧] عليه السُّكونُ، وسادتْ فيه الوحْشَة، وكانت له فى كُلِّ شُرفةٍ من شُرفاتِه ذِكْرَى مَعَ حَبيبته (جُلَّنار)، ولما خرجا من باب المدينة وجازَا[٤٨] رياضَ (الغوطَةِ) الغَنَّاءَ، جعلَ (قُطزُ) يقولُ: «ما أقصَاكِ علينَا يا (دمشقُ)!! وما أدناكِ منا يا (مصرُ)!».

(٤١) إيثاره: تفضيله. المضاد: أثرته.
(٤٢) عِنان جواده: لجام فرسه. الجمع: أعِنَّة.
(٤٣) لُبَّه: عقله. الجمع: ألْبَابٌ.
(٤٤) تؤهِّله: ترشحه.
(٤٥) يُكنُّه: يخفيه. المضاد: يبوح – يصرح.
(٤٦) 📖 مناوح: مجاور.
(٤٧) خيم: سيطر.
(٤٨) جازا: مرَّا.

KTABYEG.COM

ذاكر

شاهد فيديو الشرح

الفصل العاشر

لِقَاءُ (قُطُز) بـ(جلَّنار)، والْتِقَاؤُه بالصَّلِيبيين

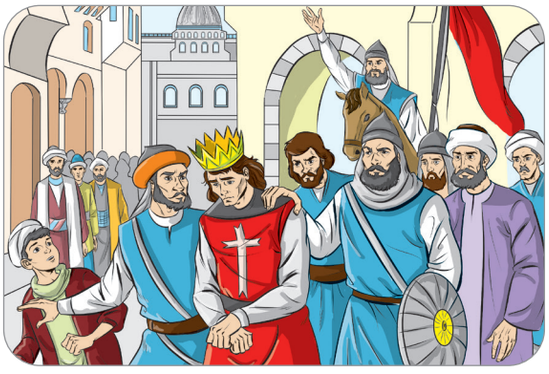

ملخص أحداث الفصل

- اشْتَرَى (المَلكُ الصَّالحُ أيوب) (قطز) ثُم وَهَبهُ لأحد أُمَراءِ مماليكِه (عِزِّ الدِّين أيْبك) الذى وَثِقَ (بقُطز) ثِقَةً مُطلَقَةً، فَجَعَله رَسُولَه الخَاصَّ إلى (المَلِكِ الصالح أيوب) فى قَلْعَةِ الْجَبَلِ، وهناك عثَرعلى حبيبتِهِ (جهاد).
- تَوالَتِ الأحْدَاثُ عَاصِفَةً بَعْدَ ذلك، فَقَدْ أرسلَ (المَلِكُ الصَّالحُ) حَمَلاتِه لِفَتْحِ الشَّامِ والقَضَاءِ على (الصالح إسماعيل).
- انْتَهزَ الصَّلِيبِيُّون فُرْصَةَ مرضِ (المَلك الصالح أيوب)، فأعَدُّوا جَيْشًا لِغَزْوِ (مِصْر) بقيادَةِ (لويس التاسع) مما جَعَل (الشيخَ العز بن عبد السلام) يَكْتُب إلى السُّلْطانِ بِسُرْعَةِ الرجوعِ من (دمشق) إلى (مِصْر)، رغمَ مرضِه الشديدِ.

ولكنَّ المَوْتَ يُفَاجِئه أَثْناءَ المعركة، وتُخْفِى (شَجَرُالدر) خَبرَمَوْتِه حتى لا تَضطربَ صُفُوفُ المُسْلِمينَ، ثم تَقُومُ بِتَدْبيرالأمورِ حتى يَأتِيَ ابنهُ (تُوران شاه) من (كيفا)، وحقَّقَ المصريونَ النَّصرَ، ووقعَ لويسُ التاسعُ فى الأسرِ.

عرض الأحـداث

١ (قُطُز) فى مِصْرَمَعَ (عِزِّالدِّين أَيبك):

كان (قُطُز) قد بِيعَ (لِلْمَلِكِ الصالحِ أيوبَ) كما أرادَ، غَيْرَأنه لم يَلْبَث (١) عندَه إلا قليلًا حتى وهَبَهُ (المَلكُ الصالحُ) (لعزِّ الدين أيبك الصالحىِّ) أحدِ أمراءِ مَماليكِه الأثْرَاءِ (٢). فاغتمَّ (قطز) أوَّلَ الأمرِ وَحَسِبَ ذلك مِنْ سُوءِ طالِعِه أن يُوهبَ لمملوكٍ مثلِه، ولكنَّه ما لبثَ أنْ لَقِىَ مِنْ ثِقةِ هَذَا الأميرِواعْتِمَادِهِ عليه واصْطفائِه له - فوقَ ما رَأَى مِنْ نُفُوذِه العَظيمِ عندَ مَولاهُ المَلِكِ - ما أعادَ الاطْمِئْنَانَ إليهِ فأحبَّه وأخلصَ له.

٢ (عِزُّالدِّين) يُكوِّن قُوَّةً مِنَ المَماليك عَلَى رَأْسِهِمْ (قُطُز):

وما اصْطَفَاهُ (عِزُّالدِّين أيبك) إلا بعدَ أنْ بَلا (٣) مِنْ شجاعتِه وأمانتِه وصدقِه مَا جَعلَه جَديرًا بثقتِه واصْطفائِه. فقد كانَ الأميرُ (أيبك) - كَغَيْرِهِ من أُمراءِ مَماليكِ الصَّالح - مَعْنِيًّا باصْطِنَاعِ الرِّجالِ الأُمناءِ، واصْطفاءِ الأتباعِ المخلصِين، وَشِرَاءِ وُدِّهِم وولائِهم؛ لِيتقوَّى عَلى مُنافِسِيه فى السُّلطةِ ومُنازعِيه الحُظْوَةَ (٤) لَدَى مولاهم، وكانوا فى ذَلِك يَحْذُون حَذْوَ أستاذِهم المَلِكِ (الصَّالِح أيوبَ)، فكما استكْثَرمِنَ المَماليك، وأرْبَى (٥) فى ذلكَ على كُلِّ ما سَلَفَ (٦) من مُلوكِ أهلِه، حَتَّى بَنَى لَهُم القُصُورَفى جزيرةِ الروضةِ، وأغدَقَ (٧) عليهم النِّعَمَ وآثَرَهم على مَنْ سِواهم بالمناصِبِ والرُّتَبِ؛ لِيَتَقوَّى بِعَصَبِيَّتِهم له عَلَى مَنْ يُنازعُه المُلْكَ مِنْ إخوانِه وأبناءِ عُمُومَتِه مِنَ الأُمراءِ الأيوبيين - كَذَلِكَ فَعلَ أُمراءُ مماليكِه نَسْجًا (٨) على مِنْوَالِه؛ فأخَذَ أحدُهم يَسْتَكْثِرُمِنَ المَماليك، وَيَصْطَنِعُ الأتباعَ والأشياعَ؛

(١) يلبث: يستمر - يمكث.
(٢) 📖 الأثراء: الخلصاء. المفرد: أثير.
(٣) بلا: اختبر.
(٤) الحُظْوة: التقرب والمكانة.
(٥) أربى: زاد.
(٦) سلف: سبق.
(٧) أغدق: أفاض عليهم.
(٨) نسجًا: سيرًا.

KTABYEG.COM

لِيَشْتَدَّ بهم سَاعِدُه، ويَكُونُوا له قُوةً علَى مَنْ سِوَاهُ مِنَ الأُمراءِ. وقد اصْطلحُوا[٩] عَلَى تَسْمِيةِ المماليكِ التَّابعينَ لمالكٍ واحدٍ - أو أُستاذٍ واحدٍ على اصْطلاحِ ذلكَ العَصْرِ - (خُشداشِيةً) كُلٌّ مِنْهُم (خُشْدَاشُ أخيه) أى زَميلُه أَوْ قرِينُه، وَتقُومُ هذِه الصلةُ بينَهم مقامَ القرابةِ ولحمَةِ[١٠] النَّسبِ؛ إذْ لاَ قَرابةَ بينهم ولا نَسَبَ، فَقَدْ جُلِبُوا مِنْ أُمَمٍ شَتَّى، وأصْقاعٍ[١١] مُخْتلفةٍ.

٣ (قطزُ) يَبْحَثُ عَنْ (جُلَّنارَ) وَيلْتَقِى بالتَّاجِرِ الَّذى اشْتَرَاهُما:

وكان (قُطُزُ) مِنْ أولِ ما وَطِئَ[١٢] أرضَ (مِصرَ) مُوكَّل[١٣] القَلْبِ بالبَحْثِ عنْ حَبيبتِه (جلَّنارَ). وقد فكَّرَ كثيرًا فى الطريقةِ التى يَتمَكَّنُ بها مِنَ الاهْتِداءِ إليْها؛ فظلَّ زمنًا يَتَصَفَّحُ وجوهَ الناسِ لعلَّه يجدُ بينَهم شخصًا من معارفِ سيدِهِ القديمِ الشيخِ (غانمٍ المقدسىِّ) مِمَّنْ قد رآهُ ورَآها عندَه، فيسألُه هلْ رأى (جلنارَ) أو سمعَ بها فى (مصرَ)؟ ولكنَّه لمْ يلقَ أحدًا منهم. ثم خَطَر ببالِه أن يغْشى[١٤] سوقَ الرقيقِ بالقاهرة؛ لعلَّه يجدُ أحدًا من النخاسينَ يعرفُ عنها خبرًا فجعلَ يتسلَّلُ من مولاه ويتردَّدُ على سوقِ الرقيقِ، ويسألُ كُلَّ قادِمٍ من تُجَّارِه عنْ جاريةٍ تُدعَى (جلَّنار) فَلا يُعرِّفُها له أحدٌ.

وبينَما هُو واقفٌ فى السُّوقِ ذاتَ يومٍ إذْ مرَّ به شيخٌ قد اشتعلَ رأسُه شيبًا، غيرَأنه لمْ يَزَلْ به فَضْلٌ مِنَ القُوَّةِ والنشَاطِ، وَمعَهُ عَددٌ مِنَ الغِلْمانِ العبيدِ يُريدُ بَيعَهم، فَراعَهُ[١٥] أنَّ الشيخَ وقفَ عَنْ مَشْيه لما رآهُ، وأخذَ يَنظُرإليه، ويتفرَّسُ[١٦] فى وجْهِه ثُمَّ اقتربَ مِنْه فَدَعاه باسْمِه، فعجبَ (قُطز) وبقِىَ حائرًا ينظرُإليه، فقالَ له الشيخُ: «أنَسيتَنِى يَا قُطزُ؟»: فَقالَ له (قُطزُ) «لا أذكرأنِّى عَرَفْتُكَ، فمنْ أنتَ؟» فَتأوَّه الشيخُ قائلًا: «أجلْ إنك مَا عُدتَ تَعْرِفُنى؛ لأن الأيامَ قد غيَّرتْ مَعالِمَ وجْهِى. أما تَذكُرجَبلَ الأكرادِ، وسُوقَ الرقيق (بحلبَ)؟ وما أتَمَّ الشيخُ كَلمتَه حَتَّى تذكَّر (قطز) النخاسَ الذى اشْتَراهُ مِنَ اللصُوصِ فى جَبلِ الأكرادِ، وباعَه فى (حلَبَ)، فتبيَّن له أنَّه هو عينُه، فَصَافَحَهُ (قطز) بحرارةٍ وشوقٍ، وَجَعَلَا يَتحدَّثانِ عَمَّا فعلت الأيامُ بهما منذُ افترقا فِى (حلبَ) وسألَه النَّخَّاسُ فيما سأَله: أينَ هُو الآن؟ وفى خِدمَةِ مَنْ مِن الأُمراءِ أو الملوكِ؟ فأجابَه (قطزُ) بأنه فى خِدمَةِ الأميرِ (عِزِّالدِّين أيبك الصالحىِّ)، فسأَله عن حالِه عندَ أستاذِه، فأخبرَه بأنَّه سعيدٌ عندَه ومُقربٌ إليه، ففرحَ النخَّاسُ وقالَ فى لهجةِ الْمُفتخرِ: «إن يَدِى مُباركةٌ عَلَى مماليكِى، فَمَا بِعْتُ منهم أحدًا إلا صارَله بعدَ ذلك شأنٌ عظيمٌ». وجَعَلَ يعدِّدُ طائفةً من الأُمراءِ والمماليكِ ويقولُ إنهم كانوا تحتَ يدِه فأصبحُوا اليومَ من أركانِ الدولةِ.

٤ (بيبرس) فى (مِصْر) مِنْ مَماليك (أَقْطَاى):

ثم قالَ له: «أتذكُرُرفيقَك القبجَاقِىّ الأَشقرَ (بيبرسَ)، ذلكَ الغلامَ الشَّقِىَّ الآبق[١٧]؟».

فَخَفَقَ قلبُ (قطزَ) لما تذكَّرذلك الغُلامَ الأزرقَ العَيْنَيْنِ الذى بِيعَ مَعهُ فِى سُوقِ النِّخاسَةِ (بحلبَ)، فقالَ لسائِله: «بيبرس.. بيبرس.. نعم أذكُره. أينَ هُوَ الآن؟».

فابتَسمَ التاجِرُوقَال: «ألمْ تَلْقَه؟ ألَم تعرِفْه؟ إنه اليومَ خُشداشٌ لأستاذِكَ تحتَ إمرَتِه خَمسون فارسًا».

فسكتَ (قُطزُ) وسَرَحَ فكرُه قليلًا، فظنَّ التَّاجرُأنه غارَمِنْ رفِيقِه فمضَى يقولُ: «إنه سَبقَك يا (قطزُ)، أليسَ كَذلِكَ؟ ولكنْ لا تَبتَئِسْ فَستَكُونُ مثلَه وخيرًا منه». فقال (قطزُ): «كلا، ليسَ بِى ما ذكرتَ، ولكنِّى لم أرَهَذا الشَّخصَ فى خُشْداشِيةِ أُستاذِى».

«لعلَّك رأَيْتَه فما عرفْتَه، لقد أَصْبحَ اليوم شابًّا كبيرًا طَويلَ القامَة، ولكنْ سَلْ أَستاذَكَ عنْه، سلْه عن (رُكنِ الدين بيبرس البندقْدارى) يدلُّك عليهِ»، ثم حيَّاه مودِّعًا معتذرًا بشغله وقالَ له: «إذا شِئْتَ أنْ ترانِى فسلْ عنِّى (موسَى شاكر العطار) فى سُوقِ العطَّارِينَ». وأرَادَ الانْصِرَافَ، فاسْتَوْقَفَه (قطز) قائلًا: «مَعْذِرَةً، إنك حَدَّثْتَنِى عَنْ رفيقِى (بيبرس)، ولم تحدّثْنِى عَنْ رَفيقتِى (جلَّنارَ). أما تعرفُ أينَ هِىَ؟».

(٩) اصطلحوا: المراد: اتفقُوا.
(١٠) لُحمة: قرابة، الجمع: (لُحَم).
(١١) أصقـــاع: نـــواحٍ - جهـات، المفرد: صُقـع.
(١٢) وطئ: نزل.
(١٣) موكل: مشغول.
(١٤) يغشى: يزور.
(١٥) راعه: أفزعه.
(١٦) يتفرس: ينظرويتأمل.
(١٧) الآبق: الهارب.

KTABYEG.COM

فقالَ له التاجرُ: «مِنْ أَيْنَ لى أنْ أعرِفها؟ إنِّى قَدْ أعرفُ الغِلْمَانَ الذين بِعْتُهم، أما الجَوارِى فَتحجُبُهن[١٨] عنِّى القصورُ! ألم تكُنْ مَعكَ عِندَ الوجيهِ[١٩] الدمشقىِّ؟».

– «بَلَى؛ ولكنَّهم باعُوهَا بعدَ وَفَاتِه لِرجُلٍ فى مصرَ».

«إن مِصْرَ كبيرةٌ يا بُنَىَّ، وليسَ من اليسيرِ عَلَيْك أن تهتدِىَ إليها». فلم يَشأْ (قُطْز) أن يَسْتوقِفَ الرجلَ أَطْوَلَ مِمَّا فعلَ، فَوَدَّعهُ، وانْصَرف.

٥ التِقَاءُ (قُطْز) بـ (بيبرس) وَتَوطُّدُ الصَّدَاقَةِ بَيْنَهُما:

ولما رَجعَ (قطز) إلى دارِ أستاذِه سألَه عن (رُكنِ الدين بيبرسَ البندقدارىِّ)، فقالَ له أستاذُه: دعْكَ مِنْه فإنَّه من جماعةِ (فارسِ الدين أقطَاى الجمْدار)، وكان (قُطزُ)، يعلَمُ ما بينَ (عزِّ الدين أيبك) و(فارسِ الدينِ أقطَاى) من عداوةٍ وتنافُس، فَلَم يشأ أن يُلقِىَ على مَوْلَاه السؤالَ عَنْ (بيبرس)، وصَرفَ الحديثَ عَنه.

ثم ظَلَّ بعدَ ذلك يَبْحثُ عَن (بيبرسَ البندقدارىِّ) حتَّى دُلَّ عليْه، فَوجَدَه جَالسًا مع جماعَةٍ من كِبارِ المَماليكِ الصَّالحيةِ المتشَيِّعِينَ (لأقْطَاى الجمدار)، فانتظَره حَتَّى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهم، فلقيَه (قطز) مُبْتسمًا مادًّا يدَه ليُصافِحَه، فَأَنْكَره (بيبرس) وقالَ له بِلَهْجةٍ خَشِنَةٍ: «مَنْ أَنتَ يا هذَا؟ أنا لَا أَعْرِفُك».

فقال له (قُطز): «أَنَا رفيقُك يا (بيبرسُ). أنا (قُطزُ)».

– «وما أعرفُ لى رفيقًا اسمُهُ (قُطز)، اِذْهَبْ يا هذَا لعلَّه شُبِّه[٢٠] عليكَ».

– «أَنسِيتَ ذلِك الغُلامَ الذى كان مَعك فى دَارِ النَّخاسِ (بحلبَ)، والذى كان يُطْعِمُكَ مِنْ حَلواه، ويُشْرِكُكَ فى إدامِه[٢١]؟».

فصاح (بيبرسُ): «(قُطز).. أنتَ (قطز)»، ومَال على رفيقِه فاعْتنَقا ثُمَّ قال (بيبرس): «وأينَ أختُك تلك الصَّغيرةُ التى كانتْ معَنَا؟».

– «جُلَّنارُ؟!».

– أجلْ (جُلَّنارُ)... أينَ هِىَ؟».

فَتَنهَّدَ (قطز) وقال: إنَّها ليستْ بأُخْتِى، ولكنَّها قريبَتِى، وقَدْ كانتْ مَعِى (بدمشْقَ) ثم بِيعَتْ لرجلٍ من (مصرَ). وَهُنَا لَمْ يَمْلكْ دُموعَه أن اسْتَعْبَرَ[٢٢].

فعَجبَ (بيبرس) من أمرِه وقالَ له: «ماذا يا (قطزُ).. أتحبُّها؟» فَأَجَابه (قطزُ): «نَعَمْ.. إنى أحبُّها.. إنى أُحبُّ (جُلَّنارَ)، أَمَا رأيتَها هُنا أو سَمِعْتَ بها قطُّ يا (بيبرس)؟».

فَرقَّ له (بيبرسُ) وقالَ له: «إنِّى لم أَسْمَعْ باسمِ (جُلَّنار) هنا، ولو رأيتُها لما عرفْتُها، فلا بدَّ أنها قد أَصبحَتْ شابةً كبيرةً»، وَسَكتَ هُنَيْهَةً[٢٣] ثم نَظرَ إلى رفيقِه ضاحكًا، وجعلَ يَضْربُ على مَنكِبِه ويقولُ له: «هَوِّنْ عَليكَ يا (قطز) فسترَى أنَّ الجواريَ الجميلاتِ هُنا كثيرات».

قال له (قطز): «إنى لاَ أحِب غيرَ (جلَّنارَ)، ولا أريدُ أن أعْرِفَ أحدًا سِوَاها».

فأجابَه (بيبرس)، وهو على حالِه ذلك مِنَ الضَّحكِ والاسْتهتارِ: «دَعْكَ مِنْ هَذا، طيِّبْ خَاطِرَكَ يا صَدِيقى، فسأُعرِّفُكَ بِعَشَراتٍ مِنَ الجَوارِى الحِسَانِ تختارُ منهنَّ مَنْ تُحِبُّ. فقلْ لى: أينَ أنتَ؟ فإنى أُحبُّ أنْ أَرَاكَ وَأَجْلِسَ معك فأقولَ لَكَ أَشياءَ كثيرةً، وأسمعَ مِنْكَ أشياءَ كثيرةً».

فقال له (قُطزُ): «إنِّى فى خِدْمةِ أستاذِى الأميرِ (عزِّ الدين أيبك)».

فنَضَبت البَشاشَةُ التى كانتْ على وَجْهِ (بيبرس)، وأَدْرَك (قُطز) سبَب ذلك، وأرادَ أن يقولَ لِصَاحبِه شيئًا، ولكنَّ (بيبرسَ) سبقَه قائلًا: «مَا يَضُرُّنا أنْ يكُونَ أستاذُك عَدُوًّا لِصَدِيقى (فارس الدين أقطَاى)، فإنَّا صَديقانِ قبلَ أن نَعرِفَهُما، وَلَولَا أنى أَطْمعُ فى رتبةٍ أنالُها مِنْ وَراءِ هذا الأحْمق المتكبِّر لَتَركتُه، واللهِ يا (قطزُ) إنِّى لَسْتُ دونَه فى شَىْءٍ، ولكنَّه سَبقَنى فى الخِدْمةِ بسنواتٍ». وَهَكذا تَوَطَّدَتِ الصداقَةُ بَيْنَ هَذين المَمْلُوكَين الشابَّين على مَا بينَهما من تَفَاوُتٍ[٢٤] فى الرُّتبة، وتَبايُنٍ فى المِزَاجِ والأخْلاقِ، فكانا يخرُجانِ للصيدِ معًا، وَيَسْمُران فى كثيرٍ من اللَّيَالى، ولا يفترِقَان إلا على موعدٍ.

(١٨) فتحجبهن: تمنعهن.
(١٩) الوجيه: ذو جاه وسلطة، الجمع: الوجهاء.
(٢٠) شُبِّه: اختلط.
(٢١) إدامه: ما يستمرأ به الخبز، الجمع: أُدم.
(٢٢) استعبر: نزلت دموعه.
(٢٣) هُنيهة: قليل من الزمان.
(٢٤) تفاوت: اختلاف.

KTABYEG.COM

٦ (قُطز) رَسُولٌ خاصٌّ من (أيبك) إلى (السُّلطان):

وأصْبح (عزُّ الدين أيبك) لِثقَتِه بِتَابعِه (قُطز) يَبْعثُه برسائِله وَوَصَاياهُ الخَاصَّة إلى السلطانِ، فصار (قُطز) يتردَّدُ على قَلْعةِ الجبلِ يَذْهبُ برسَالةٍ ويَعُودُ برسالةٍ، حَتَّى أَصْبحَ مَعْرُوفًا عِنْدَ رجالِ القصرِ السُّلطانيِّ وَحَرسِه، موثوقًا به مأمونًا جانبُه، فكَانَ يَنْطَلِقُ كما يَشاءُ فى دَهَالِيزِ القَصْر، وممراتِه دون أَنْ يصحَبه حارسٌ أو رَقيبٌ.

٧ حَيْرَة (قُطز) عِنْد تَسَاقُط الوَرْد عَليه فى طَرِيقه فى القَصْر:

وذاتَ يوم بينما كانَ عَائدًا مِنَ القَصْرِ، مارًّا بالدِّهليزِ الذى تُطلُّ عليه مقصورةُ[٢٥] الملكةِ (شجرِ الدُّر)، حَظيةِ[٢٦] السُّلطان وزَوجتِه، إذْ بوردَةٍ تسقُطُ قُدَّامَهُ فى الدِّهليزِ، فَوقفَ هُنَيْهةً ينظرُ إليها، وهَمَّ بالتقاطِها، ولكنَّه خَشِىَ مِنْ ذلِك فتركَها ومضَى فى سَبيلِه، وَعادَ يومًا آخرَ فلمَّا بلغَ ذلكَ الموضعَ عِنْدَ مُنصَرَفِه[٢٧] مِنَ القَصْرِ، سقطتْ أمامه وردةٌ ثانيةٌ كأختِها الأولى، فعجبَ مِنْ أمرِها وتحقَّق أنّه مَقْصُودٌ بها، وأنَّها لم تَقَعْ أمامَه اتفاقًا، فنازعَتْه[٢٨] نفسُه أن يرفعَ طَرْفَه[٢٩] إلى المقصورةِ ليَرى الشَّخْصَ الذى ألقاها، ولكنَّه تهيَّب ذلكَ لما سَمِعَ عن المَلِك (الصالح أيوبَ) من شِدَّة الغَيْرةِ على نِسَائه وجَواريه، وما يُدْريه ألَّا تكونَ هذه تجربةً أريدَ بها ابْتلاءُ أمانتِه واسْتقامتِه، وأنْ يَكُون الشَّخصُ الذى ألقَاها هو السُّلطانَ نفسَه واقفًا مع زوجتِه (شجرِ الدُّر)، فَسَرتْ فى مفَاصِله رِعْدةٌ شَدِيدةٌ عندَما خطرَ له هذا الخاطرُ، فطرَدَ مِنْ نَفْسِه حتَّى الهَمَّ بالتِقَاطِها، وخَشِىَ حَتَّى النظرَ إليْها، فَمضَى مُنطلِقًا فى طَرِيقِه.

وبقىَ (قُطز) أيامًا ولياليَ يُفَكِّرُ فى أمْرِ الوَرْدَةِ ويَذْهَبُ فى تَفْسِيرِها كُلَّ مذهبٍ، وودَّ أن يُخبرَ أحدَ أصدقائِه أو خُشداشيتِه بما شهدَ من هذا الأمرِ العجيب، ولكنَّه خاف أن يكونَ فى ذلك إفشاءٌ لسرٍّ من أسرارِ القصرِ، فعدَل عنه وعزم على الاحتفاظِ بهذا السرِّ حتى يتكشفَ له من تلقاءِ نفسِه، وظلَّ ينتظرُ اليومَ الذى يُبعثُ فيه إلى القصرِ بفارغِ الصبر، حتى جاءَ اليومُ المنتظرُ، فذهبَ بقلبٍ خافقٍ يتنازعُه الخوفُ والقلقُ والتطلعُ، وتلعبُ به الهواجسُ[٣٠] المختلفةُ فتضطربُ به بين الإقدامِ والإحجامِ. فلما وقعتِ الوردةُ أمامَه فى هذِه المرة الثالثةِ، اشتدَّ خُفوقُ قلبِه، واضطرب جسمه اضطرابًا عظيمًا، وعَرَاه[٣١] ذهولٌ أفقدَه التماسُكَ ولم يستطع اتقاءَه إلا بإبعادِ ذلك الشَّىء الذى سبَّبَ له ما هُو فيه، فَخَلَصَ مِنْ ذلك الدِّهليزِ مُنْدفعًا فى طريقِه غيرشاعرٍ بأنه قد التقطَ الوردةَ ورماها فى جيبِ قميصِه ليُخفيَها عن عينَيْه الزائغتَين[٣٢]، وهبطَ من دَرَجِ[٣٣] القلعةِ الكبيرِ مُلْتَاثَ[٣٤] الخُطا، يكادُ أن يقعَ على وجهِه لولا حافظٌ من الاندفاعِ السريعِ عَادلَ بين حركاتِه وسترَما بينَها مِن التفاوتِ والاختلافِ، والعَرقُ يَتَفَصَّدُ[٣٥] مِنْ جبينِه، ويسيلُ بين ثيابِه فلو رآه أحدٌ لأنكَرهُ.

(٢٥) مقصورة: المقصورة من النساء المنعمة، المصونة. الجمع: المقصورات، والمراد هنا: حجرة خاصة مفصولة عن الحجرات المجاورة. الجمع: مقاصير- مقاصر.
(٢٦) حظية: عالية الشأن.
(٢٧) منصرفه: مكان أو زمان الخروج والانصراف.
(٢٨) نازعته: المراد: حدثته.
(٢٩) طرفه: عينه. الجمع: أطراف.
(٣٠) الهواجس: الخواطر. المفرد: الهاجس.
(٣١) عراه: أصابه، ألمَّ به.
(٣٢) الزائغتين: المصروفتين.
(٣٣) درج: طريق.
(٣٤) ملتاث: مضطرب.
(٣٥) يتفصد: يسيل.

KTABYEG.COM

٨ خَواطرهُ وذكْرياتُه وَهُو يتَأَمَّلُ الوَرْدَةَ الثَّالثة:

ولما خَلا بنفسِه فى غُرفَتِه، وَأدار قَميصَه ليمسَحَ عن صدرِه العَرقَ، وجدَ الوردَة فى جيبِه، فَعَجِب كيف لَمْ يتذكَّرْ أنه التقطَها، ونظرَ فيها مَلِيًّا(٣٦) كأنه يستنطقُها سرَّها، وإذْ خطرَ له أنَّها ربما ألقتْها جاريةٌ عابثةٌ من جوارِى القصرِ، رمَاها من يدِه كأنَّها شَىءٌ يشمئزُّ(٣٧) منه، وإنه لكذَلِك إذ جالَ بخاطِره أن الفاعِلَ ربما يكون حبيبتَه (جُلَّنارَ)، قد ساقَتْها الأقدارُ فجعلتْها من جوارِى القصرِ، فهبَّ من ضجْعتِه واستوى جالسًا على جانبِ سريرِه، وجعل يُحدِّق فى الزهرةِ الملقاةِ على الأرضِ، فخُيِّلَ إليه أنها تبتسمُ له ابتسامةً حزينةً، تُشبه تلك الابْتِسَامَةَ الخَالِدَةَ فى قَلْبِه - اِبْتِسَامَةَ (جُلَّنار) يَوْمَ قَدِمَ إلَيْها مِنْ (نَابلس)، وعَجِبَ مِنْ نَفْسِه كيفَ لم يخْطُرْ ببالِهِ هذا الظنُّ من قبلُ، على طُولِ تفكيرِه فيها، وملازمةِ خيالِها له، وعلى كثرةِ ما هامَ فى شوارِعِ القاهرةِ وَدُروبِها، وجَاس(٣٨) خِلالَ قُصُورِها ودورِها، راميًا بصرَه نحو شُرفاتِها، مُنقِّلًا طَرْفَه بين شبابيكها، طمعًا فى أن يلمحَها، ويعثرَ على مقرِّها من تلك المدينةِ العظيمة، حتى كلَّتْ قدمَاه، وَتَعِبَتْ عَيْناه، وَوَجعَ عنقُه.

وقام إلى الزهرةِ فالتقطَها، وجعلَ يُقبلُها ويُدْنِيها مِنْ صدْرِه، ثم التفتَ ذهنُه إلى قلعة الجبَلِ فأخذَ يُسائِل نفسَه: أيمكنُ أن تطوِىَ تلك القلعةُ الشامخَةُ بين جُدرانها الهائلةِ أمَليْه العَظِيمَيْنِ اللَّذين يحلُمُ بهما طُولَ حياتِه: مُلكَ مِصرَ، و(جلنارَ)؟ ثم كرَّ راجعًا على نفسِه يلومُها فى أخذِها بالوهْمِ العابر، وسكُونِها إليه، كأنما حَسْبُه أنْ يتوهَّمَ الشىءَ فيكونَ، وأنْ يَفْتَرِضَ أنها حبيبتُه (جلنارُ)، فَيَستَحِيلَ فى الدّنيا أن ترمِىَ الوردَةَ له جاريةٌ عابثةٌ من جوارِى القَصْرِ. أليسَ الأجْدرُ به أَنْ يَصْبرَ عَلَى الحقيقةِ حَتَّى تُسفِرَ(٣٩) عَنْ نِقابِها(٤٠)، وعلى الوردةِ الصامتةِ حَتَّى تَشِىَ بصاحبها؟ فلْيَتَرَيَّثْ، وليختبرِ الأمرَ على مَهلٍ حتى يَتَبينَ وجهه، ولكن احْتَرِسْ يا قطز، فإنك فى مأوَى الأسدِ!

ولم يطُلْ بقطزَ الانتظارُ فى هذه المرة، إذ بُعثَ إلى قلعةِ الجبلِ مِنْ غَدِ ذلك اليوم، فذهبَ وقد نوى أن يَسْتَرِق(٤١) النظرَ إلى المقْصُورةِ إذا وقعتْ - وهو يرجُو أن تقعَ أيضًا - وردةٌ أمامَه ليرَى مَنْ يُلقِيها، وقد شجَّعَ من قلبِه، وسكَّنَ من جأشِه(٤٢) رجاؤه أن تكونَ صاحبةُ الوردةِ هى حبيبتَه (جلنارَ).

٩ فى الوَرْدَةِ الرَّابعةِ يَرَى حَبِيبَتَهُ (جُلَّنَارَ):

ووقعتِ الوردةُ الرابعةُ، فرفعَ بصَرَه، فرآها وعرفَها، وابْتَسَمَتْ له، فابْتَسمَ لها، ثم اختفتْ، فانطلقَ لِسَبيلِهِ ومضَى.

وصار (قُطزُ) بعدَ ذلك يَراها كُلَّما صَعِدَ إلى القلعةِ، فيعودُ منها فرحًا. كأنما ملكَ الدُّنيا، واستيقظتْ فى قلبِه ذكرياتُ الحبِّ القديمِ، واسْتَبدَّ به(٤٣) الحنينُ، وغلبَتْه نشوةُ الظَّفَرِ ونَوازِعُ(٤٤) الفَرحِ، واشتاقَ إلى صديقٍ يبثُّه ذاتَ صدرِه، فيشاطِرُه فرحَه، ويحملُ عنه بعضَ همِّه؛ فذهب إلى صديقِه رُكنِ الدِّين (بيبرس البندقداريِّ)، فأخبره بأنه عثَر على حبيبتِه (جلنارَ)، وأنه رآها فى قصرِ السلطانِ مِنْ مَقْصُورَةِ الملكَةِ (شجرِ الدّر)، وقصَّ عليه كيفَ تمَّ ذلك، فلم يجدْ عند (بيبرسَ) طربًا لهذا الخبرِ، كأن لسانَ حالِه يقول: «أىُّ شىءٍ فى هذا؟ وماذا يَعْنيكَ أنْ ترى جاريةً تَرْمِى لكَ بوردةٍ من شُرفةٍ عاليةٍ فى قَصْرِ السلطان لا سبيلَ إلى الوصولِ إليْها؟».

(٣٦) مليًّا: طويلًا.
(٣٧) يشمئز: يضيق - ينفر - يكره.
(٣٨) جاس: جال ودار.
(٣٩) تسفر: تكشف.
(٤٠) نقابها: المراد: نفسها.
(٤١) يسترق: يختلس.
(٤٢) سكن من جأشه: هدأ من ثورته.
(٤٣) واستبد به: سيطر عليه وغلبه.
(٤٤) نوازع: دواعى. المفرد: نازع.

KTABYEG.COM

١٠ (بيبرس) يُحذرُ (قُطُزَ) من التعرُّضِ لجوارِى القصرِ:

وأخذ (بيبرسُ) يَصْرِفُه عَنْ ذَلِك، وَيُخوِّفه مِنَ التَّعرض لجوارى القصرِ، ويذكُر له ما عُرِفَ عن السلطانِ من شدَّة الغَيْرةِ على نسائِه وجوارِيه، ويقولُ له: إنَّ فى غيرِهنَّ مَنْدُوحَةً[٤٥] عنهُن. وجعلَ يُسَفِّه[٤٦] رأيَه فى شدة التعلُّق بجاريةٍ واحدةٍ، مثلُها فى النساءِ كثيرٌ، فرأى (قطزُ) أنْ لا فائدةَ فى الكلامِ معَ مَنْ لا يعطفُ على شُعورِه، ولا يستطيعُ أن يعرِفَ أنَّ فى الدُّنيا شيئًا اسمُه الحبُّ، تختلفُ به النّساءُ الحسانُ فى عَيْنِ صَاحِبه عَنْ حَبِيبته المُصطفَاة.

١١ اِسْتِقَالَةُ الشيخ (العِز بن عبدالسلام) وعَدَاؤُه للسُّلْطَانِ:

وكان قد انقطعَ زمنًا عن زيارَةِ الشيخِ (عزِّالدين بن عبد السلام) نزولًا على أمرِ أستاذِه (عزِّالدين أيبك) منذ تغيَّر ما بينَ الشيخ وبينَ السلطانِ، فاستقالَ من منصبِه فى القضاءِ واعتزلَ الناسَ، فما يُرى إلَّا يومَ الجمعةِ يخطبُ على مِنبرجامعِ عمرو، ذلك أن الصاحبَ (مُعينَ الدينِ) وزيرَ السلطان بنى غُرفَةً له على سَطح مسجدٍ يُجاورُ بيتَه؛ ليتخذَها مقعدًا له يُقابلُ فيه أصدقاءَه، فأنكرَ ذلك عليه الشيخُ (ابنُ عبدالسلام) وأمرَ بهدْم ما بَنى، فلم يَفعلْ، فشكا أمرَه إلى السلطانِ فتغاضَى عنه، فما كان من الشَّيْخ إلا أنْ غضِبَ لدينِه وقال كلامًا شديدًا فى السلطانِ ومضَى بِنَفْسِه وأولادِه يَحْمِلُون المساحِى[٤٧] والفُئوسَ حتى هَدَم البناءَ، ونقلَ ما على السطحِ، ثم أشهدَ على نفسِه أنه قد أسقطَ شهادَةَ الوزيرِ فلا تُقبلُ له شهادةٌ، وأنَّه قد عَزلَ نفسَه عَن القَضَاءِ، وجَهرَ بأنه لا يتولَّى القضاءَ لسلطانٍ لا يَعْدِلُ فى القَضِيَّة، ولا يحكمُ بالسويَّةِ[٤٨]، وهكَذا أرسلهَا العالمُ العظيمُ كلمةً خالصةً لله قويةً مُجَلْجِلَة[٤٩]! ولم يَثْنِه عن قولِها ما كانَ بينَه وبينَ السلطانِ من سابقِ الوُدِّ، فما جهرَ بكلمةِ الحقِّ فى وجْهِ القوةِ (بدمشقَ) ليسكتَ عنها (بمصرَ)، ولو ارتضَى لنفسِه مُصانعةَ الملوكِ على حسابِ دينه لما نَفتْه (دمشقُ) ولكانَ له فِيها ما يُريدُ من الثراءِ الواسعِ، والجاهِ العريضِ.

١٢ الوُشَاةُ يَسْعَوْنَ بَيْنَ السُّلطانِ والشَّيْخِ، والسُّلْطان يَصُدُّهم:

وقد سعَى به جماعةٌ من حُسَّادِه - ومِثله لا يَخْلُو من الحسّادِ - عندَ الملك (الصالحِ أيوبَ)، وجعلُوا يُوغِرُون صَدْرَه عليه، ويقولون: إنه لا يُثْنِى عليهِ فى الخُطبةِ كما يفعلُ غيرُه من خُطباءِ الجوامِع، إنما يدعُو له دُعاءً قصيرًا. فردَّهم السلطانُ بغيظِهم وقَال لهم «دَعُوه فإنِّى إلى دُعائِه القصيرِ لأَحْوَجُ منِّى إلى الثَّناءِ الطويلِ مِنْ غَيْرِه، وما عزلتُه عن القَضاءِ وإنما عزلَ نفسَه، ولو قَبلَ أن يعودَ إليه لأعدْتُه، وما يملأ عَيْنى من العُلماءِ غيرُه، فإيَّاكم أنْ تَعُودُوا للسِّعايةِ[٥٠] عِندِى بابنِ عبدِ السلام!».

(٤٥) مندوحة: سعة وفسحة. المضاد: ضيق.
(٤٦) يسفِّه: يعيب. المضاد: يقبل ويؤيد.
(٤٧) المساحى: جمع: مسحاة: الجاروف.
(٤٨) بالسوية: بالعدل والمساواة.
(٤٩) مجلجلة: مدوية.
(٥٠) السعاية: الوِشاية.

KTABYEG.COM

١٣ وَصِيَّةُ الشَّيخ (ابن عبد السلام) (لِقُطز):

فاشتاقَ (قطزُ) أنْ يرى شيخَه ليَبُثَّه [٥١] ما في قلبِه، وَيَسْتَرْشِدَ بنصيحتِه، فزاره سرًّا، ففرحَ به الشيخُ، ولكنَّه نصحَه ألا يعودَ إليه لئلَّا يتغيرَ عليه أستاذُه إذا بلغَه أنه يُخالِفُ أمرَه، ووعَده بأنه سيدعُو الله له في سرِّه، وأوصَاهُ بالصَّبرِ على ما ابتُلِيَ به؛ حتى يجعلَ الله له مخرجًا، فيجمعَ شملَه بحبيبته على ما يحبُّه الله ويرضَاه، ورجعَ (قُطزُ) من عندِ الشيخ بِقَلْبٍ رَاضٍ ونَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، ولبثَ دهرًا يكتفِي من حبيبتِه بالنظرةِ العَجْلَى [٥٢]، وبالأسبوعِ تنقضِي أوائِلُهُ وأواخرُه لا يَراها إلَّا مرةً أو مرتين حينَ يصعدُ القلعَةَ في حاجةٍ لسيده.

١٤ المِلِكَةُ تكْتشِفُ سِرَّ الحَبِيبَيْنِ وتُفرِّقُ بَيْنَهُما:

ولكنَّ الواشِي [٥٣] دَرَى بأمرِ الحبيبَين فَمَا قَرَّتْ [٥٤] بَلابِلُه [٥٥]، فَقَدْ عَلِمَتْ وَصَائِف (شجرِ الدُّرِّ) بما كان يدورُ في السرِّ بين الوصيفةِ (جلنار) وبين مملوكِ الأميرِ (عزالدين أيبَك) فَوَشَيْنَ بها إلى سيّدَتها.

فتربَّصَت الملكةُ حتَّى رأتْ بِعَيْنِها صِدْقَ الوشايةِ، فَعَاتَبَتْ جاريتَها على ما صنعتْ وَتَوعَّدتْها بأنْ تَرْفَعَ أمرَها إلى السلطانِ إذا هِيَ عادَتْ لما نُهِيَتْ عنه. فلم تُجب المظلومةُ بغيرِ دموعِها، وسكتَتْ على مَضضِها [٥٦]، ولم تستطعْ أن تُدلِيَ بحجَّتِها [٥٧] في حبِّ ابنِ عمتِها وأليفِ صِبَاها. ومَنْ ذا كان يُصدِّقها لو فعلتْ؟

وبعثتِ الملكةُ إلى (عزِّ الدين أيبك) بما كَان مِنْ مَمْلُوكه، وأَوْصَتْه أنْ يتخذَ رسولًا غيرَهُ إلى القلعةِ حِفْظًا لحرمةِ السلطانِ الغيورِ، واتقاءً لِغَضَبِه، فصَدَع (عزُّ الدين) بأمرها، وتلطفَ بمملوكِه العزيز عليه، الأثير عنده، فعاتبه عتابًا جميلًا على ما كان منه، وأوصَاه أنْ يتّقِي ذلك الحَرَمَ.

فَبكَى المملوكُ المظلومُ ولم يَسْتطعْ أن يُدلِيَ [٥٨] بِحُجّته في حُب ابنةِ خالِه، وأليفةِ صِباه، ومن ذَا كَان يُصدقه لو فعلَ؟ وهكذا حِيلَ بين الحبيبَين، وبين ما كانا يتمتَّعانِ به من النظراتِ البريئةِ والبسماتِ الطاهرةِ، وضُربَ بينهما بالأسْدادِ [٥٩]، فبكيَا ما شاءَا أنْ يبكيَا، ولكنَّ الأملَ قد انتعشَ في قَلْبَيْهما، فعزَّاهما بعضَ العزاءِ. ولبثَا عائشينِ على هذا الأملِ ينتظران فرجًا من الله يرجُوان أن يكون قريبًا، وظلَّ (قطزُ) في خدمةِ سيدِه كما كانَ، ولم يَفْقِدْ مِنْ حَظْوتِه عِندَه وثقتِه به شيئًا، غيرَ أنه لم يعُدْ يَحْمِلُ رسائلَه إلى القصرِ.

١٥ فُتوحَاتُ (الصالحِ أيُّوبَ) في الشَّام وانتقَاله إلى (دِمَشق) لِلاسْتِشْفَاءِ:

ومرَّت السنون تِباعًا وتوالتِ الأحداثُ، وطفِقَ الملك (الصالحُ أيوبُ) يجردُ الحملةَ تلوَ الحملةِ، ويبعثُ القائدَ من أمراءِ مماليكِه، ليفتَحَ بلادَ الشامِ ويضمَّها إلى سُلطانِه. فاستولَى على (غزَّة) و(السواحِل) و(القدسِ)، ثم سلمتْ له (دمشقُ)، وهَربَ عدوُّه (الصالحُ إسماعيلُ) فلحِقَ (بحلبَ) حيثُ استجارَ بحليفِه الملك (الناصرِ صلاحِ الدين) فأجارَه.

وكان الملكُ (الصالحُ أيوبُ) شعلةً من النشاطِ، لا يَهدأ ولا يَفْتُرُ ولا يستريحُ من العملِ الدَّائبِ [٦٠] في تنظيمِ بلادِه وتَجْميلِها، فقد عمَّر فيها الأبنيةَ والقصورَ والقلاعَ والجوامعَ والمدارسَ ما لم يُعمِّر أحدٌ من سلفِه مثلَه، حتى وهَنَتْ قوتُه، وساءتْ صحتُه، فقرَّر الانتقالَ إلى (دمشقَ) ليستشفِيَ بهوائِها؛ عملًا بنصيحةِ أطبَّائِه حتى يبرأ [٦١] من عِلَّتِه.

(٥١) يبثه: يشكو له.
(٥٢) العجلى: السريعة.
الجمع: عِجال / عُجَالى.
(٥٣) الواشى: ناقل الأخبار للوقيعة.
الجمع: الوشاة.
(٥٤) قرَّت: سكنت.
(٥٥) قرَّت بلابله: هدأت نفسه. والبلابل:
مفردها: البلبال: الوسواس.
(٥٦) مضضها: ألمها. المضاد: راحتها.
(٥٧) تدلى بحجتها: تثبت رأيها وتدافع عنه.
(٥٨) يدلى: يحضر - يثبت.
(٥٩) ضُرب بينهما بالأسداد: أقيمت
بينهما الحجب والسدود.
(٦٠) الدائب: المستمر.
(٦١) يبرأ: يُشفى.

KTABYEG.COM

وانتقلتْ معه الملكةُ (شجر الدرِّ)، وانْتَقَلَتْ مع الملكةِ حاشيتُها ووصائِفُها وفيهن (جُلنارُ) الحبيبةُ. تُرى ماذا كان شعورُ (قطز) حين فصَلَ الركبُ السلطانيُّ من (مصرَ) يؤُمُّ بحبيبتِه البلدَ الذى ارْتضَعَا به أفاويقَ[٦٢] السَّعادةِ معًا فى قصْرٍ يُنَاوِحُ[٦٣] قصرَ سيدِه (ابنِ الزعيمِ)؟ تُرى هل يمرُّ الركبُ بهذا القصرِ؟ وهل تذكُره (جلنارُ) فتتطلعُ إليه من سَجْفِ[٦٤] هودَجِها بعينَيْنِ دامعَتيْن...؟ وهل تَقعُ عيناها على قصرٍ آخرَ قريبٍ منه لا تَعْلمُ أنه حنَا على حَبِيبها يومَ اضطهَده (مُوسى) فى قصرِ أبيه؟

١٦ اتفَاقُ الصَّليبيِّين على مُهَاجمةِ (مِصْرَ):

شعرَ الصليبيُّون بالخطرِ الذى يتهدَّدُ إماراتِهم بالشّامِ مِنْ جَرَّاءِ[٦٥] حَمَلاتِ الملكِ (الصالحِ نجم الدين أيوبَ) وانتصاراتِه، فأرادُوا أنْ يَنْتهزُوا فُرصة إقامتِه (بدمشقَ) بعيدًا عن عاصمةِ مُلكِه لِيُغِيرُوا على (مصرَ) بسُفنِهم من البحرِ، وكاتَبُوا (لويسَ التاسعَ مَلكَ فرنسا) فِى ذلك، واتفقُوا معه على أن يُبحرَ إلى الشَّرْقِ ويقودَ بنفسِه حملةً صليبيةً كبيرةً بأساطيلَ عظيمةٍ وجيوشٍ عديدةٍ يهجُم بها على مصرَ.

١٧ (الشيخ ابنُ عبدِ السلام) يَتَزَعَّم حَرَكَة الجِهَادِ فى سَبيل الله:

فلما سمِعَ المسلمون بِذلك خَافُوا وأَشْفَقُوا على الإسْلام أن تُقْهرَ قوتُه فى هذَا المعْقِل[٦٦] الحَصِين[٦٧] مِنْ معاقِله، وبرزَ الشيخُ (ابنُ عبد السلام) مِنْ عُزلتِه فتزعَّمَ حركةَ الدعوةِ إلى الجِهَادِ فى سبيل الله، وحضَّ الأمراءَ على الاستعدادِ لملاقَاةِ المغِيرين ودفْعِهم عن بلادِهم، ونسِىَ ما بيْنَه وبينَ السُّلطانِ من الخُصومَةِ، فكتَب إليه أنْ يُسرِعَ بالرجوعِ إلى (مِصرَ) لئلَّا يُغارَ على مصرَ وسُلطانها لاهٍ[٦٨] باسْتِشْفَائِه، وكان مما قاله فى كتابه: «إن الإسلام فى خطرٍ، وصحةُ السلطانِ فى خطر، والإسلام باقٍ، والسلطان فانٍ[٦٩] فى الفانِين. فلينظُر السلطانُ أيَّهما يُؤْثِرُ[٧٠]».

١٨ عَوْدَةُ (الملك الصالح أيوب) إلى (مصْر) مَحمولًا عَلى مِحَفَّة:

فلما قرأ السلطانُ كتابَه بكَى وعجَّل بالرحيلِ فعادَ إلى مصرَ مَحْمُولًا على مِحَفَّةٍ[٧١] لِشدةِ مرضِه، ولم يَقْصدِ (القاهرةَ)، بل نزلَ توًّا[٧٢] بأشْمُون طَنَاح (أشمون الرَّمان)[*] فى قصرِه هناك ليكونَ على قربٍ من خطِّ الدفاعِ، ولم يَسْترِحْ مِنْ عَنَاءِ السفرِ، بل أسرعَ فشحنَ دمياطَ بالأسلحةِ والأقواتِ استعدادًا للدِّفاعِ، وبعثَ إلى نائبِه (بالقاهِرة) أنْ يُجهزَ الشَّوانِى[٧٣] من صناعةِ (مصرَ)، فشرعَ فى تجهيزِها وسَيَّرها فى النيلِ شيئًا بعد شيءٍ، ثم سيَّرَ السلطانُ العساكرَ إلى (دمياطَ)، وجعلَ عليها قائده الأميرَ (فخرَ الدين ابنَ شيخ الشيوخِ).

(٦٢) أفاويق: اللبن يجمع فى الضرع بين الحلبتين، المفرد: فيقة.
(٦٣) يناوح: يقابل.
(٦٤) السجف: السِّتْر أو الشق. الجمع: أسْجَاف - سُجُوف.
(٦٥) مِن جرّاء: مِن أجْل.
(٦٦) المعقِل: الحصن، الجمع: المعاقل.
(٦٧) الحَصِين: المنيع القوى.
(٦٨) لاهٍ: مشغول.
(٦٩) فانٍ: منتهٍ - بالٍ.
(٧٠) يؤثر: يفضل.
(٧١) محفّة: سرير يحمل عليه المريض يشبه النقالة. الجمع: محافُّ.
(٧٢) توًّا: فورًا.
(*) أشمون طناح قديمًا والآن أشمون الرمان، تقع بمركز دكرنس بمحافظة الدقهلية.
(٧٣) الشوانى: السفن الحربية. المفرد: الشونة.

KTABYEG.COM

١٩ هُجُومُ الصَّليبيِّين بِقِيَادَةِ (لويس التاسع) واحتلالُهم (دِمْيَاطَ):

وأقبلَتْ أساطيلُ الفِرنْجِ تَحْمِلُ جُموعَهم العَظيمةَ بقيادةِ ملكِ فرنسا، وانضمتْ إليهم سُفُنُ فرنْجِ ساحلِ الشام كلِّه، فَأَرْسَتْ فى البحرِ بإزاءِ المسلمين، وسيَّرملكُ الفرنْجِ إلى السلطانِ كتابًا كُلُّه وعيدٌ وتهديدٌ.
فلما قُرِئَ الكِتَابُ علَى السّلطانِ اغْرَورَقَتْ (٧٤) عيناهُ بالدُّموع، لا جَزعًا مِنْ غَارةِ الفرنْجِ وتهديدِهم، بل أسَفًا وحَسْرةً أن يَحُولَ مرضُه المُدْنِفُ (٧٥) دونَ ما تَشْتَهِى نفسُه من كمالِ الاضطلاع بِدَفْعِ هَذا الخَطْب العظيم.
وما لبثَ الفرنْجُ أن أنزلوا جُيوشَهم فى البرِّ، وضُربتْ لِملكهم خَيْمةٌ حمراءُ، فجرتْ مُنَاوشَاتٌ (٧٦) بينَهم وبينَ المصريين وقعتْ على أثرِها زَلَة من قائِدهم الأميرِ (فخر الدين)؛ إذْ سحَب العساكر ليلًا من (دمياط)، فارتاعَ (٧٧) أهلُها فتركُوا ديارَهم وخرجوا كأنما يُسحبُون على وجُوهِهم طُولَ الليلِ فارِّين إلى (أشمون) بمنْ معَهم من الأطفالِ والنساء حتى لم يبقَ بالمدينة أحدٌ، فدخلَها الفرنْجُ فى الصباح، واستولَوْا على ما فِيها من الآلاتِ الحربيةِ والأسلحةِ والعُددِ والأقواتِ والذخائرِ والأموالِ والأمتعةِ غَنِيمَةً باردةً (٧٨). وبلغَ السلطانَ الخبرُ فغضبَ غضبًا شديدًا، وقال للأمير (فخرِ الدين): «ويْلَكم أمَا قَدَرتُم أنْ تَقِفُوا سَاعةً بينَ يَدى الفرنْجِ؟»، وأمرَ توًّا بالرحيلِ إلى (المنصورةِ). وحُمِلَ فى حَرَّاقةٍ (٧٩) سارتْ به إلى البحرِ الصغيرِ حتى أنزلَ بقصرِ المنصورةِ على النّيلِ، وأمرَ عَساكِرَه فشَرعُوا فى تجديدِ الأبنيةِ للسُّكْنَى بالمنصورةِ، وأُقيمَتْ بها الأسواقُ وأُصلِحَ السورُ الذى على بحرِ النيلِ وسُتِّرَ بالستائر، وأقبلتِ الشَّوانى المصريةُ بالرجالِ المقاتلةِ والعُدَدِ الكاملةِ، ولبى (٨٠) المجاهدُون والرجالُ المُتطوِّعون من عَوامِّ الناسِ دعوةَ الجهادِ فى سبيلِ الله والوطنِ، فأقبلُوا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ (٨١) يَنْسِلُون (٨٢)، وجاءتْ جموعٌ من العُربانِ، فأخَذُوا يَشنُّون الغاراتِ على الفرنْجِ ويُناوِشُونَهم.

٢٠ كِتْمانُ وَفاةِ (الملك الصالح) وتَولِّى (شَجَرِ الدُّر) تَصْريفَ أُمُورِ الدَّوْلَةِ:

ولكنَّ العلةَ قد اشتدتْ على السُّلطانِ، وأحسَّ دُنوَّ الأجلِ، فما أذهَلَهُ ذلِك عن التفكيرِ فى مصلحةِ الدِّين والوطنِ، فأوصَى زوجتَه (شجرَ الدرِّ) ومن يثقُ بهم من رجالِه أنْ يكتُمُوا موتَه إذا ماتَ لئلا تضطربَ قلوبُ المسلمِينَ وتذهَبَ ريحُهم، كما أوصَاهَا بأن تُعِدَّ مَنْ يُقلدُ توقيعَه ليُستعانَ به فى المُكَاتَباتِ على كتمانِ موْتِه، حتى يقدُمَ ابنُه ووليُّ عهده (تُورانُ شاه) من حِصْنِ (كيفا).
وأسلمَ (الملكُ الصالحُ) رُوحَه إلى الله وهو يَذكُره ويَسْألُه أنْ يَنْصرَا المصريينَ ويَحمِىَ بيْضَةَ دينِه (٨٣)، وما عنده إلا زوجتُه وطبيبُه، وَحَزِنَتْ (شَجرُ الدُّرِّ) على زَوْجِها العظِيمِ وحَبيبِها المخلصِ، ولكنَّها حَبَستْ دَمْعَها ولم تدَعِ الحُزنَ يطغَى عَلَيْها فَيُنْسِيَها وصيةَ زوجِها فى الاحتياطِ لمصلحةِ الدولةِ، وَحِفْظِ شَمْلِ المصريينَ مُجْتَمِعًا، وَهَيْبَتِهم فى صُدورِ أعدائهم وَافرةً، فتركتْ جُثَّةَ السلطان للطبيبِ يتولَّى غسْلَها وتحنيطها، وأحضرت الأميرَ (فخرَ الدّين) والطَّواشِىَّ (٨٤) (جمالَ الدِّين) فَنَعَتْ (٨٥) إليهما السلطانَ وَوَصَّتْهُما بكتمان موتِه خوفًا من الفرنْجِ، وَرسَمَتْ لهما الخُطةَ التى يَجِبُ عليهما انتِهَاجُهَا، ثم استقدمَتِ الأمراءَ الذين بالمعسْكَرِ، وقالتْ لهم: إنَّ السلطانَ قد رسمَ (٨٦) بأنْ تحلفُوا له، ولابنِه الملكِ المعظمِ (تُوران شاه) صاحبِ حصنِ (كيفا) أن يكونَ سلطانًا بعدَه وللأميرِ (فخرِالدِّين) بالتقدمَةِ على العساكرِ والقيامِ بالأتابكيةِ وتدبيرِ المملكةِ. فقالوا جميعًا: سمعًا وطاعةً، وأَقْسَمُوا يمينَ الوَلاءِ قَاطِبةً.

(٧٤) اغرورقت: امتلأت.
(٧٥) المدنف: الشديد.
(٧٦) المناوشات: الطعن والمنازلة بالرماح.
(٧٧) ارتاع: فزع وخاف.
(٧٨) غنيمة باردة: المراد: مكاسب بلا حرب.
(٧٩) حَرَّاقة: سفينة حربية.
(٨٠) لبى: استجاب.
(٨١) حدب: مكان مرتفع.
(٨٢) ينسلون: يسرعون.
(٨٣) بيضة دينه: حامية دينه. ويقصد بها (مصر).
(٨٤) الطواشى: الخصىّ. الجمع: (الطواشية) ويطلق على فرقة من المماليك.
(٨٥) نَعَتْ: أخبرت بموته.
(٨٦) رسم: أمَرَ.

KTABYEG.COM

وأَخَذَتْ (شجرُ الدرِّ) تُدَبِّرُ الأمورَ وتُصْدِرُ الأوامرَ حتَّى لم يتغيَّرْ شَيْءٌ؛ إذْ بقى الدهليزُ السلطانِيُّ على حالِه، والسِّماطُ(٨٧) فى كُلِّ يومٍ يُمَدُّ، والأمراء يحضُرون للخدْمَةِ، وهى تقولُ دائمًا: «السلطانُ مريضٌ لا يُرِيدُ أنْ يُزْعِجَه أحدٌ»، ولكنَّ مثلَ هذا الخبرِ العظيمِ لا يُمكنُ أنْ يبقَى طويلًا مكتومًا على الناسِ، فما لبِثُوا أن شَعَروا بأنَّ السلطانَ قد مات، غيرَ أنَّ أحدًا لا يَجْسُرُ(٨٨) أنْ يَتَفَوَّه به.

٢١ بَعْضُ بُطولاتِ المِصْريِّين فى مَعْركَةِ (المَنْصُورَةِ):

وما لبثَ الخبرُ أنْ تسَرَّبَ إلى الفرنجِ فقَوِيتْ نفوسُهم، فتقدَّموا مِنْ (دمياطَ) فارِسُهم وَرَاجِلُهم(٨٩)، ونزلُوا على (فارسكورَ) وسُفُنهم على بحْرِ النيلِ تُحاذِيهم. ثم تقدَّموا إلى (شرمساح، فالبرمون) فاشتدَّ الكَرْبُ، وعظُمَ الخطبُ لِدُنوِّهم مِنْ مُعسكرِ المصريين، حتى نزلُوا تجاهَ (المنصورةِ) يَفْصِلُ بينَهم وبينَ المسلمين (بحرُ أشمومَ «البحرُ الصغيرُ») فاستقرُّوا بمنزلتِهم هذه، وحفَروا خندقًا عظيمًا، وبَنَوْا حولَهم سُورًا وستَرُوه بالسَّتائِرِ، ونصَبُوا عليه المَجَانيقَ يرمُون بها على مُعسكرِ المصريينَ، ووقفتْ شوانِيهم بإزائِهم فى بحرِ النيل، ووقفت شَوانِى المصريين بإزاءِ المنصورة، وكان مُعظم عسكرِ المصريين فى (المنصورةِ) بالبرِّ الشرقيِّ، ورابطَ(٩٠) جمعٌ منهم فى البرِّ الغربيِّ (حيث طلخةُ اليومَ) وفيهم جماعةٌ من الأمراءِ الأيُّوبيينَ من أولادِ (الناصرِ داودَ) وإخوتِه، وأخذ القتالُ يدورُ بينَ الفريقَين برًّا وبحرًا، فما مِنْ يوم يمرُّ إلا ويُقتلُ من الفرنجِ ويُؤسَر، وقد دأبَ عامَّةُ المصريين على النِّكايةِ(٩١) بهم، فجعلُوا يغتالُون ويتخطفُون كثيرًا منهم، ويطرقُون مُعسكرهُم، فإذا شَعَروا بهم ألقَوْا أنفسَهم فى الماءِ وسبحُوا إلى بَرِّ المصريين، وكانتْ لهم فى خططِهم حيلٌ لطيفةٌ يَفْتَنُّون فى ابتكارِها، ويتنافَسُون فى اخْتراعِها، ومن ألطفِها أنَّ مصريًّا أخذَ بطيخةً فقوَّرها وأدخلَ فيها رأسَه وغطَس فى الماءِ إلى أنْ قرُبَ من برِّ الفرنجِ، فظنُّوه بطيخة عائمةً فما هُوَ إلا أنْ نزلَ أحدُهم فى الماء ليتناوَلها حتى اجتذبَه المصرى فعامَ به حتى قَدِمَ به أسيرًا.

واستمرَّ الحالُ كذلك قُرابةَ شهرَين حتى تعرف الأعداء على مَخايِضَ(٩٢) فى البحرِ الصغيرِ، فما راعَ الناسَ إلَّا فصائلُ مِنَ الفرنجِ قد تجمَّعوا فى برِّ المصريين، يقودُهم بطلٌ مِنْ أبطالهم هو (الكِنْد دَارْتُوا) أحدُ إخوةِ ملكِ فرنسا الثلاثةِ، الذين قدِمُوا معَه فى هذِه الحملَةِ، وكانَ بطلًا مُغامرًا(٩٣) فلم يكد يعبرُ المخاضةَ حتى اندفعَ بفرقتِه نحو المعسكرِ المصرى، لينفردَ بظَفرِ ذلك اليومِ، وكانَ الأميرُ (فخرُ الدين) القائدُ العام حينئذٍ فى الحمَّام، فأتَاه الصريخُ(٩٤) فخرَجَ مدهوشًا وركبَ فرسَه لينظرَ الخبرَ، ويأمر الناسَ بالركوبِ، وليسَ معه سِوى بعضِ مماليكِه فلقيَه (الكِنْدُ) وفِرْقته، فحَمَلُوا عليه، ففرَّ من كانَ معه من المماليكِ، وثبتَ وحْدَه يُقاتلهم ويُدافِعهم عن نفسِه، فصَرعَ جماعةً منهم حتى اجْتَمعُوا عليه واعْتَوَرته(٩٥) السيوفُ من كلِّ جانبٍ.

وما إنْ عَلِم الفرنجُ بمقتلِ الأميرِ (فخرِ الدين) حتى انتعشتْ نفوسُهم، وأسكرتْهم خَمْرةُ الظَّفَرِ، فانْتشَرتْ جنود (الكند دارتوا) فى أزقةِ المنصورةِ، حيثُ أمطرَهم السُّكانُ وابلًا مِن الحِجَارةِ والطُّوبِ والسِّهامِ، واقْتَحمَ هو بفرقتِه المعسكرَ، فتفرقَ الناسُ وانهزمُوا يمينًا وشِمالًا حتى وصلَ إلى (السُّدَّةِ)(٩٦) الخارجيةِ للقصرِ السلطانيِّ يفصلُ بينَها وبينَ القصرِ فناءٌ واسعٌ، فشرع رجالُ الحرسِ السلطانِي يُدافعون المهاجِمِينَ الذين يُريدون اقتحامَ السُّدَّةِ، ولكنَّهم أدركُوا أنَّهم لا قبلَ لهم(٩٧) بهَذا العَددِ الهائلِ من الفُرسانِ المتحمسينَ، وقد جاءوا على غِرَّةٍ(٩٨) فبَغَتُوهم، فأخذُوا يستغِيثُون بأمراءِ المماليكِ الصالحيَّة - وكانتْ منازلُ هؤلاءِ قريبًا من القصرِ وحولَه؛ ليكُونوا رِدْءًا(٩٩) للسلطانِ وذَوْدًا(١٠٠) دُونَه.

(٨٧) السماط: مائدة الطعام وما يبسط ليوضع عليه الطعام فى المآدب. الجمع: السُّمُط والأسمطة.
(٨٨) يجسر: يجرؤ. المضاد: يجبن.
(٨٩) راجلهم: مُشاتهم.
(٩٠) رابط: لازمَ.
(٩١) النكاية: الإيقاع والهزيمة، الجمع: (النكايات).
(٩٢) مخائض: المفرد: مخاضة وهى الماء الضحل الذى يمكن خوضه (مَعَابر).
(٩٣) مغامرًا: يرمى بنفسه فى الشدائد ويقاتل لا يبالى الموت.
(٩٤) الصريخ: المستغيث.
(٩٥) اعتورته: تداولته وأصابته.
(٩٦) السُّدة: باب الدار أو الساحة فى الدار. الجمع: السُّدَدُ.
(٩٧) لا قبل لهم: لا طاقة لهم ولا قدرة.
(٩٨) غرة: غفلة.
(٩٩) ردءًا: حماية وقوة. الجمع: أرداء.
(١٠٠) ذودًا: دفاعًا.

KTABYEG.COM

٢٢ (قُطز) يُبَارِزُ (الكِنْد دَارْتُوا) وَيَصْرعُه:

وكانَ هؤلاء لم يبرحُوا بيوتَهم بعدُ، ولم يخطِرْ ببالِهم قطُّ مثلُ هذه المباغَتَةِ الجريئةِ في تباشِيرِ الصَّباح، فما راعَهم إلا الصَّريخُ، فقامُوا إلى أسلحَتِهم وركبُوا خيولَهم فزعِين إلى مصْدرِ الصوتِ، فإذا هو آتٍ مِنْ جِهَة القصرِ، وإذَا نِسَاءُ القصرِ قد رفعْنَ أصواتَهن بالصِّياحِ والعويلِ، وإذا بفُرسانِ الفرنج قد دخلوا السُّدَّة، وانتشرُوا في الفِناءِ، وإذا (عزُّالدين أيبكُ) قد سبَقَهم إلى الصَّريخِ ودخلَ من البابِ الخلفِي، فجعلَ يُقاتلُهم دونَ بابِ القصرِ وحولَه جماعةٌ من مماليكِه، وبقيةٌ من الحرسِ السلطاني يقاتلُون معه وفيهم مملوكُه (قطزُ).

فحاولَ هؤلاء الأمراءُ دخولَ السُّدةِ فدفعَهم عنها جماعةٌ من الفرنْجِ وقَفُوا دونَها، فصرخَ فيهم (بيبرسُ) صرخةً أدخلتْ في قلوبِهم الرُّعبَ، وحملَ هو وجماعتُه عليهم حملةً صادقةً فرَّقَتْهم أَبَادِيدَ[١٠١] وجعلَ يُحاولُ اقتحامَ السُّدةِ، وكانَ (قُطزُ) قد جَعَلَ همَّه أن يُشاغِلَ (الكند دارتوا) ويُضارِبَه بالسيفِ، فيهيجُ (الكندُ) ويحمِل عليه؛ ليضربَه الضَّربةَ القَاضِيةَ فيَحِيصُ[١٠٢] عَنْه الشَّابُّ حتى يكادَ (الكِنْدُ) يقعُ عن فرسِه، فيعودَ (قطزُ) لمناوشَتِه مُبتعدًا به عن بابِ القصرِ شيئًا فشيئًا، فاستطاعَ بذلك أن يَشْغَلَ (الكندَ) الهائجَ عن الاتصالِ بجماعتِه، ولم يكنْ أحدٌ منهم لِيجْسُرَ على مُساعدَته ضدَّ مبارَزَةِ الشَّابِّ؛ **لئلا يُعَدَّ ذلك إهانةً (للكند) وتعييرًا له بالعجزِ** عن القضاءِ على قِرْنٍ[١٠٣] واحدٍ، فتركُوهما لشأنِهما فلمْ يزالا يتواثَبانِ وهُما يبتعدان عن بابِ القصرِ، ويقتربَان شيئًا فشيئًا من السُّدةِ، وكان (بيبرسُ) قد شتَّت جماعَة الفرنجِ الواقِفين دونَ السُّدةِ وأرادَ اقتحامَها، فلحظَ (الكندُ) ذَلِك، وخَشِيَ دخولَ فُرسانِ المصريين، وقد سَئِمَ منازلة قرنه الشَّاب المرواغ، فتخلَّى عنه، وانطلقَ جِهَة السُّدةِ فَوَجَدَ (بيبرسَ) قد لَزَّ[١٠٤] بينَ مِصْراعَيْها، بينَ الفرنجِ الدّافِعِينَ لها من داخلِ الفناءِ وبينَ المصريينَ الدافِعينَ لها من خارجِه. فأهوى (الكِنْد) عليهِ بضَرْبةٍ قَويةٍ، كادتْ تفلِقُ رأسَه، لو لم يتَّقِها (بيبرسُ) بسيفِه، فانْكَسرَ سيفُ (بيبرسَ)، ورفعَ (الكند) يمينه بالسيفِ ليضرِبَه ضربةً ثانيةً، فعاجَلَه (قُطز) بضربةٍ فهوى صريعًا فكبَّر (قطزُ)، وكبَّر (بيبرسُ)، وكبَّر المصريون إثرهمَا ودُفعتِ السُّدةُ ففُتحتِ على مصراعيها، ودخل الأمراءُ المماليك وخلفَهم الجنودُ، فتدفَّقُوا في الفِناءِ، وكانَ الفرنجُ قد ذُهِلُوا[١٠٥] لمصرعِ قائدِهم، واستوْلَى عليهم الرُّعبُ، فتفرَّقُوا عن بابِ القصرِ يمينًا وشمالًا، وَقَصَدُوا السُّدة، ليخرجُوا منها فرارًا بأنفسِهم، فأمرَ (بيبرسُ) بإغلاقِها، وقال لِمنْ لَمْ يدْخُلها بَعْدُ من المصريين: «ابقَوْا مكانَكُم نحنُ نَكْفِيكُمُوهم» فحالَ بذلك بين الفرنجِ وبين الفِرار، ووضعَ المصريون فيهم السيفَ حتى أَتَوْا على آخرِهم.

٢٣ وصولُ مَلِكِ فَرنْسا وتَمْزِيقُ المسلمين لصُفُوفِهِ:

وإذا غادرْنا ساحةَ القصرِ، وتركْنا (شجرالدرِّ) ووصائِفَها يَحْمدْنَ الله جميعًا علَى ما مَنَّ به[١٠٦] علَى المصريينَ مِنْ تَبَاشِيرِ[١٠٧] النصرِ، وَيَمَّمْنا[١٠٨] ميدانَ القتالِ في شمالِ (المنصورةِ) وبين أزقَّتِها، وجدنا مَلِكَ فرنسَا قد وصلَ إلى الميدانِ بعدَ أنْ نام أُخُوه نومتَه الأبديةَ بساعةٍ. وَبَعْدَ أن اتَّقدَ المصريون حَماسةً لِما أحرزُوه من النصرِ في ساحةِ القصرِ. فحاولَ الاستيلاءَ على (تَلِّ جديلَة) الذى نصبَ المصريون عليه مجَانِيقَهم وأبراجَهم وجمعُوا فيه قوَّاتِهم وعُدَدَهم، وأرادَ أن يستكملَ بناءَ القنطرةِ من الناحيةِ الجنوبيةِ للبحرِ الصغيرِ حَتَّى تَعْبرَ الرجالُ إليه. وقد نجحَ في ذلك كُلِّه وفازَ

(١٠١) أباديد: فرقًا متبددين. متفرقين.
(١٠٢) يحيص: يحيد ويهرب.
(١٠٣) قرن: القِرْن النظير والمماثل. الجمع: أقران.
(١٠٤) لزّ: ضيق ولزم.
(١٠٥) ذهلوا: ذهل: غاب عن رشده. المضاد: أفاق.
(١٠٦) مَنَّ به: أنْعم به.
(١٠٧) تباشير: بوادر. المفرد: (تبشير).
(١٠٨) يممنا: قصدنا واتجهنا.

KTABYEG.COM

بما أرادَ. ولكنَّ المصريينَ قد استيقظُوا مِنْ سُباتِهم، وانْتَبَهُوا مِنْ غَفْلَتِهم، ووطَّنوا أنفسَهم على بذلِ أرواحِهم فداءً لله ولمصرَ، فجمعُوا صُفوفَهم كأنها بنيانٌ مرصوصٌ، وَحَمَلُوا حَمْلةً واحدةً مزقَتْ صُفوفَ الأعداءِ وشتَّتَتْهم بَدَدًا(١٠٩)، وأذْهَبَتْ ما صَنَعُوه مِنَ التَّدبيرسُدًى؛ وانهزموا إلى (تَلِّ جَديلة) فَلاذُوا به، وما كان التلُّ لِيَعْصِمَهم مِنْ أيدِى المسلمين لو لَمْ يَحجزِ الليلُ بين الفريقَينِ.

٢٤ هَزيمَةٌ ساحِقَةٌ للصليبيين وأَسْرُ المَلِكِ (لويس):

وقدمَ (السُّلطانُ الجديدُ) بَعْدَ أن طوَى(١١٠) السُّهولَ وجابَ القِفَارَ؛ ليخلفَ أباه السلطانَ الصالحَ، ففرحَ الناسُ وقويَتْ شوكَةُ المصريين، وكانت الميرةُ(١١١) ترِدُ للفرنج من معسكرِهم بدمياط فى بحرِ النيلِ، فصَمَّمَ المصريونَ على أن يقطعُوها فيقضُوا بذلك عليهم، فصنعُوا سُفنًا جديدةً وحمَلُوها مُفصَّلةً على الجمالِ إلى بحرِ المحلة، فألقوها فيه وشَحنوها بالمقاتِلةِ فسارتْ بهم حتى وقفتْ عند مجمَعِ البحرَين فكَمنتْ هُناك، فلما جاءت مراكبُ الفرنجِ خرجتْ لها من مكمنِها(١١٢)، فنازلتها وأخذتها أخذًا وبيلًا، فغنِمَ المصريون اثنتَينِ وخمسِينَ سفينةً مشحونةً بالأرزاقِ والأقواتِ، وقتلُوا ألفًا مِنَ العَدوِّ أَوْ يزيدُون.

وما انقطعَ المددُ من (دمياطَ) عن العدوِّ حتى أذاقَهم الله لِباسَ الجوعِ والخوفِ، وصارُوا مَحْصُورين لا يُطيقُون المقامَ ويخْشَوْن الذهابَ، فضاقَتْ بهم أنفسُهم وبلغتْ قلوبُهم الحناجر(١١٣)، فأحرقُوا مراكبَهم بمثل ما يتَّقد فى نُفوسِهم من نارِ الغيظِ، ثم خَرَّبُوا بيوتَهم بأيديهم وأيدِى المؤمنينَ، وقَوَّضُوا(١١٤) مُعسكَرهم ورحلوا جميعًا يُريدون دمياطَ، وولَّى أسطولُهم فرارًا معهم فركِبَ المصريون أقفيَتَهم(١١٥)، واتَّبعَهُم الأبطالُ الذين أنجبتْهم أرضُ مِصر، حتَّى إذا بلغُوا (فارسكور) لَقِيَهم الموتُ مِنْ أمامِهم، وطلبَهم الموتُ من خلفِهم، وأحاطَ بهم المسلمُون فأعملوا فيهم سيوفَهم، وأوْسعُوهم قتلًا وأسرًا، والْتَجَأَ المَلِكُ الخاسِرُ إلى (تَلِّ المنيةِ)، (مُنيةِ عبد الله) ليعصمَ نفسَه من الموتِ، حتى تَمَّ بينَه وبينَهم الأمانُ فكان مِن المعتَقَلِينَ.

(١٠٩) شتَّتَتْهم بددًا: فرقتهم قطعًا.
(١١٠) طوى: قطع وجاز.
(١١١) الميرة: الطعام. الجمع: مِيَر.
(١١٢) مكمنها: الموضع الذى يُختبأ فيه. الجمع: مكامن.
(١١٣) بلغت قلوبهم الحناجر: اشتد خوفهم.
(١١٤) قوَّضوا: هدموا وحطموا.
(١١٥) ركب المسلمون أقفيتهم: المراد: طاردوهم.

KTABYEG.COM

ذاكر

شاهد فيديو الشرح

الفصل الحادى عشر

صِرَاعٌ عَلَى السُّلْطَةِ وَعَلَى (شجرِ الدُّر)

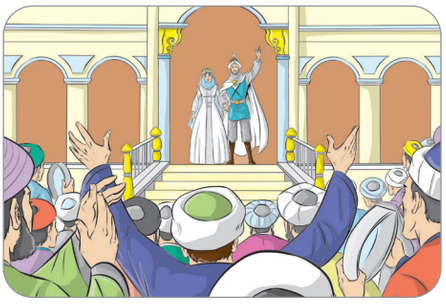

ملخص أحداث الفصل

- تَنَكَّرَ الملكُ (تُوران شَاه) لِلأَبْطالِ الَّذين حَقَّقُوا النصرَ، مِمَّا أَغْضَبَ مَمَاليكَ أبيهِ فَقَتَلُوهُ، وتَولَّت (شجرُ الدر) الحكْمَ. وأمامَ طَمعِ أمراءِ البيتِ الأيوبِي وإنْكَارِ الخليفَةِ العباسِي أنْ يَتَولَّى المُلْكَ امرأةٌ أسرعَتْ (شجرُ الدر) بالتَّنَازلِ عَنِ الحُكْمِ (لعزالدين أيبك) ولُقِّبَ (بالمعزِّ).

وحَرَّضَتْ (شجرُ الدر) (أيبك) علَى أنْ يستقلَّ بالمُلْكِ ويَعْزِلَ السُّلطانَ الصغيرَ (الملكَ الأشرفَ)، وحَقَّقَ لها (أيبك) ما أرادَتْ.

- أثارَ هذا العَملُ (أقطاى) وبَدَأَ يَنْشُرُ الفَوْضَى فى البلادِ؛ حتى يظهرَ (المعز) أمامَ الشعبِ بالملكِ العاجزِ، وحَاوَلَ (المعزُّ) أنْ يَسْترضِيَهُ!! وعِنْدَ ذلك أعلَنَتْ (شجرُ الدر) زَوَاجها مِنَ (المعز) فانْهارَ أملُ (أقطاى)، وأظهرَ تمرُّدَه على (المعز) و(شجر الدر) بإعْلانِ أنه سَيَتزَوَّج مِنْ بنَاتِ الملُوكِ فى (حَماة).

- ووافقَ (قُطز) على قتلِ أقطاى؛ تخلصًا من شُرورِه عندَما استُدعىَ إلى قلعةِ الجبلِ، بعدَها استقرَّت أمورُ الحكمِ لـ(أيبك) و(شجر الدر).

عرض الأحداث

١ تَنَكُّرُ (تُوران شاه) للأبطَالِ الَّذين حَقَّقُوا النَّصْر، و(لِشَجَرِ الدر) التى سَلَّمته الحُكْم:

وَصَلَتِ البشائرُ إلى القاهرةِ، فأقيمَتْ فيها الزيناتُ، وَدُقَّتِ الطُّبولُ، وأُعْلِنَتِ الأفراحُ، وسُرَّ المصريون بهذَا النَّصْرِ العظيم. ولكنَّ السلطانَ الجديدَ الملك المعظمَ (تُوران شاه) لَم يَشْكُرْ نعمةَ الله عليه، ولم يعرِفْ حقَّ أولئك الأبطالِ الذين حَمَوْا بَيْضَةَ الدِّين[١]، وشَفَوْا صُدورَ المؤمنين، ورفعُوا مجدَ مصرَ عاليًا على العالمين، فأخذَ فى إبعادِ رجالِ الدولةِ، واطِّراح[٢] الأمراءِ والأكابرِ من أهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ، وأعْرضَ عن مماليكِ أبيهِ الذين كانوا عندَه لمُهمَّاتِه، وقرَّب جماعتَه الذين قَدِمُوا معه، فَخَصَّهم بالمناصبِ والرُّتبِ، واحْتَجبَ عن الناسِ، وانهمَكَ فى الشَّرابِ واللَّهْوِ، وبعثَ إلى زَوْجةِ أبيهِ (شجرِ الدرِّ) - التى مهَّدتْ له الدولةَ، وضبطتِ الأمورَ فى مَغِيبِه، حتى سلَّمَتْه مقاليدَ[٣] الحكمِ - يُطالبُها بما عندَها وما ليس عِندَها من الأموالِ والجواهرِ، ويتهدَّدُها ويتوعدُها بالقتلِ، فأنِفَ لها صَنائعُ[٤] زوجِها ومماليكُ أبيه، فعزمُوا على قتلِه، وشَجَّعَهم على ذلك تَنَكُّرُ الناسِ له وبُغْضُهم لحكمِه.

٢ مَقْتَلُ (تُوران شاه) وَتَوَلِّى (شَجَرِ الدُّر) الحُكْمَ:

ما هى إلا أيامٌ حتى قُتِلَ بأيدِى موالِى أبيهِ، فى سِمَاطِه المدودِ (بفارسكورَ) بينَ سَمْعِ الناسِ وبَصَرِهم، فما أجارَه[٥] منهُم مُجِيرٌ. جلستْ (شجرُ الدر) على أريكةِ السلطنةِ بإجْماعِ أمراءِ المماليكِ الصالحيةِ واتفاقِ أعْيانِ الدولةِ وأهلِ المشورةِ، ونُقِشَ اسمُها على سكةِ[٦] النقودِ، وَرَدَّدَتْ مَنابرُ القاهرةِ ومِصرَ: «اللهمَّ، وأدِمْ سُلْطانَ السَّترِ الرَّفيعِ، والحِجَابِ المنيعِ، ملِكَةِ المسلمِينَ، عاصِمَةِ الدُّنيا والدينِ، أمِّ خليلِ المُسْتَعْصِمية، صاحبةِ الملكِ الصالحِ....».

(١) بيضة الدين: أصوله.
(٢) اطراح: إبعاد.
(٣) مقاليد: مفاتيح ومهام. المفرد: مِقلاد.
(٤) صنائع: أتباع. جمع: صنيعة.
(٥) أجاره: أغاثه وحماه.
(٦) سكة: حديدة لضرب النقود.

KTABYEG.COM

٣ تَسْلِيمُ (دِمياط) لِلمصْريين، والإفراجُ عَنْ (لويس التاسع) منَ السِّجْن:

وكانَ (لويسُ التاسعُ) قد حُمل إلى (المنصورة) مقيدًا بقيدٍ من حديدٍ، فاعتُقلَ فى دارِ (القاضِى فخرِالدين إبراهيمَ بنِ لقمانَ)، وَوُكِّل[٧] بحفظِه (الطواشِىُّ صبيحٌ المعظمىُّ) كما اعتقِلَ أخواه: (شارلس وألفونس) فأُبقيا معَ غيرِهما من كبارِ الأسْرى!

فلما استقرت الأمورُللملكةِ (شجرِالدرِّ)، جَرَتِ المفاوضاتُ بين المندوبِ المصرىِّ الحرِّ، وبين العاهل الفَرنسىِّ المعتقلِ، إلى أن تمَّ الاتفاقُ بينهم على أن تُسلَّمَ دِمياطُ إلى المصريين، ويُخلَّى عَنِ الملكِ ليذهبَ إلى بلادِه، بَعْدَما يُؤدِّى نِصْفَ ما عليه مِن الفِدْيةِ.

وخفقَ العَلمُ المصرىُّ على أسْوارِ (دِمياطَ)، وعادتْ كلمةُ التوحيدِ ترنُّ على مآذِنها، وشهادةُ الحقِّ تُجلجلُ فى فضائِها، وأفرجَ عن الملكِ الأسيرِبعدَما فَدَى نفسَه بأربعمائة ألفِ دينارٍ، فانطلقَ إلى زوجتِه الوالهةِ[٨] (بدمياطَ) ينْدُبُ لها سُوءَ الحظِّ، ونكدَ الطالع، وتلومُه (مرغريت) على إلقائِه بيدِه إلى التَّهلُكةِ، فيقولُ لها: «اسكُتى، ولا تجمَعى لى بَيْنَ عذابِ القومِ، ومرارةِ اللومِ، ودعِينا ننجُ بأنفسِنا وبمن بقى منَّا إلى بلادِنا».

وشهدتْ (دمياطُ) بين الدمعِ والابتسامِ إقلاعَ آخرِ سَفينةٍ من سُفنِ (لويس التاسع) وقومِهِ، تحملُهم عن البلادِ التى أَرْقَدُوا فى ثراها[٩] عشراتِ الألوفِ من أبطالِهم وجنودِهم، بأيدِى أبنائِها المصريين.

٤ (عِزُّالدين) يَتَوَلَّى قِيادَةَ الجيشِ:

وكان (عِزُّالدِين أيبك) قد قَوِىَ نفوذُه فى الدَّولَة، وعظُمَ قَدْرُه عندَ الملكةِ (شجرِالدرِّ) منذُ أبلَى[١٠] ذلك البلاءَ[١١] الحسنَ فى الدفاعِ عن القصرِالسلطانىِّ (بالمنصورة) يومَ هجَم الأعداءُ عليه، فردَّهم هو ومماليكُه عن بابِ القصرِ، حتى جاءَ غيرُه من الأمراءِ المماليكِ وجنودُهم فأنجدُوه، وملئوا ساحةَ القصرِ بجُثثِ المعتَدِين، فَلَمْ يكُنْ بِدْعًا[١٢] أن ترتضِيَه (شجرُالدرِّ) وينتخبَه الأمراءُ المماليكُ ليتولَّى الأتابكية[١٣] للسلطانَةِ، ويتَقَلَّدَ مَنْصبَ التَّقدمةِ على العساكرِ، وقد كانَ له أيضًا مِنْ عُلوِّ سنِّه وحُنْكَتِه وشهامتِه ما جعلَهم يَدِينُونَ له بالطَّاعَةِ ويَعْترِفُون له بالسَّبْقِ، على أنَّ هذا الإجماعَ منهم عليه لم يكُنْ تامًّا، فقد كانَ فيهِم منافِسُون يَرَوْن أنفسَهم أجْدرَ منه بالرياسَةِ، وعلى رأسِ هؤلاءِ المنافِسين الأميرُفارسُ الدين (أقطاى الجمدار) ومن شيعتِه الأميرُركْنُ الدين (بيبرس البندقدارى)، ولكنَّهم لم يجرُءوا فى أولِ الأمرِعلى إظهارِالخلافِ والانتقاضِ على ما اجتمعَ عليه الأكثَرُون، ورأَوا تأجيلَ ذلك إلى أنْ تحِينَ الفرصةُ الملائمةُ ويُساعدَهم الوقتُ.

٥ ثَوْرَةُ أُمَراءِ الشَّامِ والخليفة العَبَّاسِىِّ عَلَى تَوَلِّى (شَجَرالدر) الحُكْمَ:

قامتِ الملكةُ العظيمةُ (شجرالدرِّ) بتدبيرِ مملكَتِها أحْسَنَ قيامٍ، يعاونُها فى ذلك أتابِكُها (عزُّالدين أيبكُ) وغيرُه من مماليكِ زوجِها ووزرائِه المحنَّكِينَ وقواده العظامِ، ولكنْ إن استَتَبتْ لها الأمورُفِى الديارِ المصريةِ حيثُ تُهَيْمِنُ عليها روحُها فما استتبَّ لها كذلك فيما وراءَها من بلادِ الشَّامِ التابعةِ لمصرَ، فلم يكَدْ يصلُ خبرُقتلِ الملكِ المعظَّمِ (توران شاه)، وحلولِ (شجرِالدُّر) محلَّه إلى الشامِ، حتى طمِعَ أمراؤه وملوكُه من البيتِ الأيُّوبِىِّ فى الوثوبِ على (دمشقَ) وغيرِها من البلادِ التابعةِ لسلطانِ مصرَ، وكان أعظمَ هؤلاءِ شأنًا (الملكُ الناصرُ) صاحبُ (حلبَ)، الذى جاء إلى (دمشقَ) فملَكَها، ولم يكتفِ بذلكَ بل أعلنَ أنه سينتقمُ من (شجرِالدرِّ) ويثأرُلنسيبِه الملكِ المعظمِ (توران شاه) مِنْ قَتَلَتِه مِنَ الأمراءِ المماليكِ.

ووردتْ أنباءُ ذلك إلى (القاهرةِ)، فسادَ الاضطرابُ فيها وتشيَّعَ بعضُ الأمراءِ من غيرِالمماليكِ الصالحيةِ للناصرِ، واعتبرُوه الوارثَ الشرعىَّ لدولةِ (آل أيوبَ)، وحَرِجَ مركزُ (شجرِالدرِّ)، وزادَه حرجًا أنَّ الخليفةَ العباسىَّ (ببغدادَ) لما بلغَهُ خبرُتولية (شجرِالدرِّ)، بعث كتابًا إلى (مصرَ) يُنكرُفيه على الأمراءِ ويقولُ لهم: «إنْ كانت الرجالُ قد عَدِمتْ عندَكم فأعلمُونا حَتَّى نُسيِّرإليكم رَجُلًا».

(٧) وُكِّل: كُلِّف.
(٨) الوالهة: الحزينة.
(٩) أرقدوا فى ثراها: دفنوا فى ترابها.
(١٠) أبلى: اجتهد.
(١١) البلاء: البَسالة.
(١٢) بدعًا: غريبًا.
(١٣) الأتابكية: رئاسة الجيش.

KTABYEG.COM

٦ تَنَازُلُ (شجر الدر) عَنِ الحكْمِ (لعز الدين أيبك):

فما وَسعَ الملكَة إلا أنْ تَخْلعَ نفسَها وتنزلَ عنْ عرشِها لأتابكها وَمقدمِ عسكرِها الأميرِ (عزِّ الدين أيبك)، فوافَقَها الأمراءُ المماليكُ على اختيارِه، وحَلفُوا له ولقَّبُوه (بالملكِ المعزِّ)، وأركبُوه إلى قلعةِ الجبَلِ حتى أجلَسُوه على دَسْتِ[١٤] المُلكِ، وجلسُوا معه على السِّمَاطِ.

كان هذَا الاستتْبابُ السريعُ (لعزِّ الدين أيبكَ)، واتفاقُ الأمراءِ المماليكِ على توليتِه الحكمَ دونَ تباطُؤٍ أو مُعارضَةٍ، راجعًا إلى نُفوذِ (شجر الدُّرِّ)، ثُمَّ إلى خشيةِ الأمراءِ المماليكِ أن تضيعَ السُّلطةُ من أيْدِيهم إذا قَوِى دُعَاةُ (الملكِ الناصرِ) وأَشْيَاعُه بمصرَ، ونجحُوا فى ضمِّها تحتَ سُلطانِه، فحينئذٍ ينتقمُ (الناصرُ) منهم ولا يُبقِى عليهم بحالٍ، فوحَّدَ الخطرُ كلمتَهم، وضمَّ صفُوفَهم، وأعرضُوا عمَّا بين بعضِهم وبعضٍ من المناقشاتِ والمشاحنَاتِ، وأسرعوا بموافقةِ الملكةِ على اختيارِ (عزِّ الدين).

٧ تَمرُّدُ (أقطاى) وبَعْض أمراء المماليك عَلى (عز الدين):

ولكنَّهم لم يكادُوا يتخلَّصُون من دعاةِ الناصرِ وأشياعِه فى مصرَ بتشتيتِ شملهم والقضاءِ عليهم، ويشعرُون بزوالِ الخطرِ عنهم، ورجوعِ أمرِهم كما كانَ، حتى دبَّتْ عقاربُ البغضاء[١٥] بينَهم، وعادَ التنافُسُ القديمُ بينَهم مِنْ جديدٍ، وتولَّى كبيرُهم (فارسُ الدين أقطاى) الحملةَ على (عزِّ الدين أيبكَ)، وإذْ كان لا يَجْرُؤُ على طَلَبِ الأمرِ لنفسِه، رأى أن يكتفِىَ بإفسادِ الأمرِ على قَرينِه، فدعَا الناسَ إلى توليةِ أميرٍ من البيتِ الأيوبىِّ ليجتمعَ الكلُّ عليهِ، ويطيعَه الملوكُ من أهلِه، وَتَبْطُلَ حجةُ الناصرِ (صلاحِ الدين) فى أحقِّيتِه بملْكِ مصرَ ووراثةِ دولةِ أيوبَ، فما سمعَ الناسُ والأمراءُ المماليكُ بهذا الرأيِ حتَّى مالُوا إليه لسَدادِه وقوَّة برهانِه، فأيَّدُوه وَجَهَرُوا باستحسانِه، وأخذَ العامَّةُ فى الشوارع يقولُون: «ما نبغى مملوكًا يتولَّى علينا، بل نُريدُ سلطانًا من آل أيوبَ».

٨ تَولِيةُ الطفْلِ (الأشرف) شريكًا (لعز الدين) فى السلطة:

ثم عقد الأمراءُ المماليكُ مجلسًا قَرَّرُوا فيه أن يُقيمُوا صبيًّا مِن بنى أيوبَ يكون له اسمُ المَلِكِ ويكُونون هم الذين يُديرُون المُلْكَ ويأكلُون الدُّنيا باسمِه، فاخْتاروا الملك الأشرفَ (مُوسَى بنَ الملكِ مسْعودٍ)، وله من العمرِ ستُّ سنين، فأقاموه سُلطانًا شريكًا للملِك (عزِّ الدين أيبك)، على أنْ يقومَ (عِزُّ الدين أيبكُ) بتدبيرِ الدولَةِ، وقرَّرُوا أن يبرزَ اسمُهما على التوقيعاتِ والمراسيمِ، ويُنْقَشَ على النقودِ، وأن يُخطَبَ لهما على المنابرِ.

وركبَ المِلكانِ الأشرفُ والمعزُّ تتقدمُهما الأعلامُ السُّلْطانيةُ، وَشَقَّا القاهرةَ بينَ الجماهيرِ المحتشدةِ لرؤيتِهما، والمعزُّ يحجبُ الأشرفَ، راكبًا أمامَه، بعصًا فى يدِه، والأمراءُ تتناوبُ فى حمْلِ الغاشيةِ واحدًا بعدَ واحد.

(١٤) دست: مكان.

(١٥) دبَّت عقارب البغضاء: المراد: تحركت عوامل العداوة.

KTABYEG.COM

٩ السُّلطةُ لا تزالُ فى يد (عِزِّالدِّين):

أما (فارسُ الدين أقطاى) فقد رَأى أنه لم يصنَعْ شيئًا، إذْ بَقِى (عزُّالدين أيبكُ) فى سُلطانِه وقوتِه، ولم يَفْقِدْ مِنْ نُفوذِهِ شيئًا، وكانتِ الأمورُ كلُّها فى يدِه، وليس (للملكِ الأشرفِ) إلا الاسمُ، على أنَّ نفسَه قد طابتْ قليلًا، لأنَّ (عزَّ الدينِ) لم يعُدْ له الحقُّ فى الاستبدادِ والاسْتِئْثَار[١٦] دُونَ سائرِ الأمراءِ المماليكِ، كما لو كانَ هو السُّلطانَ، فبقِىَ بذلك (لأقطاىَ) ولغيرِه من الأمراء حقُّ الاعتراضِ على سياستِه، والتدخُّل فى شُئونِ مُلكِه، على أنْ يؤجلَ ما وراءَ ذَلِكَ مِنْ مَطَامِعه فى التغلُّبِ عليه إلى حِينٍ آخَر.

١٠ (عِزُّالدين) يُبْعِدُ (أقطاى) عَنْ تَدْبِيرِالمؤامَراتِ بإرْسَالِه لِقِتَالِ (الملكِ النَّاصِر):

ولم يَخْفَ على (عزِّالدين أيبكَ) ما يُضْمِرُه (أقْطَاى) له، وما يَنْويهِ مِنَ التَّغلُّبِ عليه، فأرادَ أن يَشْغلَه عَنْ ذلك، ويَصْرفَه عَن التدبيرِ له؛ فجعلَ إليه قيادَةَ المماليكِ البحريةِ، وسيَّره لقتالِ (الملكِ الناصرِ صلاحِ الدين) صاحبِ دمشقَ، الذى كانَ قد جمعَ الجموعَ لغزوِ مصرَ، فسارَ (أقطاى) إلى (غزةَ) بألفَى فارسٍ، وقاتلَ جنودَ الناصرِ وهزَمهم وعادَ إلى (مصرَ) ظافرًا، ولسانُ حالِه يقولُ ل(عزِّالدين): «هأنذا عُدتُ إليكَ أَقْوى مما كُنْتُ».

١١ (عزالدين) يَعْتَمِدُ على (شَجَرالدر) فى تَصْريفِ شُئُونِ المُلْكِ:

ولكنَّ (عزَّ الدين) باستنادِه إلى رُكنٍ قويٍّ من (شجرِ الدُّر)، وإن اعتزلت المُلكَ، لا تزالُ هى القُوةَ المصَرِّفَةَ مِنْ وراءِ السِّترِ، وكان نُفُوذُها مَاضيًا على كُلِّ الأمراء، ترفعُ مَنْ تَشَاءُ منهم، وتَضَعُ مَنْ تشاءُ، وكانوا جميعًا يعرِفون ميلَها[١٧] إلى (عزِّالدين أيبكَ) وثقتَها به، فلم يكونُوا ليعارضُوها فى تقريبه واصطفائِه خوفًا من غضبِها، وكانُوا يعرفون أيضًا أن (شجرَ الدرِّ) تحبُّ السلطةَ، وتعشَقُ النفوذَ والسيطرةَ، ولم تَعْتزِلِ المُلكَ إلا مَغْلوبةً على أَمْرِها، وكانت تَرى فى نفسِها الجدارَةَ للحُكم، والكفايةَ لتصريفِ الأمورِ، وأنَّها ما قعدَ بها عن الاستمرارِ فى الجُلوسِ على أريكَةِ السلطَنَةِ إلَّا كَونُها أُنثى. فرأتْ أن تتغلبَ على قُصُورِها[١٨] هذا الطبيعىِّ بأن تجعلَ على عرشِ المملكةِ رجلًا من صنائِعها، تثقُ بإخلاصِه لها، وتطمئنُّ إلى أنه لا يَنْتَقِضُ[١٩] عليها فَيَسْتَأثِرَ[٢٠] بالأمرِ دونَها، فاختارتْ (عزَّالدين أيبكَ)؛ لأنَّه كان أطوعَ الأمراءِ لها، وأخلصَهم لزوجِها، وليسَ له مِنْ كثرةِ الأتباعِ والمماليكِ ما قد يُطمِعُه فى الخروجِ على طاعَتِها، والتخلُّصِ من سيطَرتِها.

١٢ (شَجَرالدُّر) لا تَقْصِرمُساعَدتَها على (أيْبَك):

على أنَّها لم تشأْ أن تطمئنَّ إليه كُلَّ الاطمئنانِ، وتذهبَ فى الثقةِ به إلى أبعدَ مما تقتضِيه حاجتُها للاستئثارِ به، فلم تقصِرْ كُلَّ عطفِها عليه، بل جعلَتْ للآخرين نصيبًا من برِّها وعنايتِها، تضمنُ به ودَّهم لها ودفاعَهم عن حقِّها إذا بَطِرَ[٢١] (عزُّالدين أيبكُ) نِعْمتَها، وحاولَ اسْتِلاب النفوذِ من يدِها، فكانتْ تُطَيبُ نفوسَهم وتُشعرهُم أنَّها لم تخْترْ (عزَّالدين) لكونِه أَفْضَلَ فى عيْنِها، أو أدْنى إلى قلبِها منهم، وإنما أرادتْ بذلِك أن تحفظَ سُلطتَهم، وتصونَ مقامَهم؛ لأنه ليسَ له من القوةِ والشراسةِ وحبِّ الاستبدادِ ما يُخشَى عليهِم منهُ.

(١٦) الاستئثار: الاختصاص.
(١٧) ميلها: حبها وانحيازها. المضاد: عزوفها وكراهيتها.
(١٨) قصورها: نقصها. المضاد: كمالها.
(١٩) ينتقض: ينقلب.
(٢٠) يستأثر: يختص ويحوز كل شيء.
(٢١) بطر: أنكر واستخف. المضاد: شكر.

KTABYEG.COM

١٣ (عِزالدين) يَقَع فى حُبِّ (شَجرالدر) ويَخْضَعُ لَها:

وكانَ (عزُّ الدين) يعلمُ هذا منها، فكان يتَّقِى إغضابَها، ويبالغُ فى استرضائها، ولا يقطعُ أمرًا دونَها، ولم يكنْ عَزُوفًا[٢٢] عن الاسْتبدادِ بالأمرِ والاستقلالِ بالسلطةِ - وإنْ كان يتظاهرُ بذلِكَ عندَها وعندَ الناسِ - ولكنَّه أحبَّها ومالَ إليها قلبُه، فلم يجدْ حَرَجًا فى احتمالِ سيادتِها عليه، وتحكُّمِها فيه، ولم يَشْعُرْ بغَضَاضَةٍ[٢٣] فى خُضُوعِه لها، وكان عفيفًا حييًّا[٢٤] لا يكادُ يرفعُ إليها طَرْفَه، وإذا حدَّثها حدَّثها بوقارٍ واحتشامٍ، كما كان يفعلُ لو أن زوجَها السلطانَ كان حيًّا بعدُ، وقد بَرَّح به[٢٥] حُبُّها، وما منَعه مِنَ التَّصْريحِ لها بما فى نفسِه إلا أنه كان يهابُها أنْ يقولَ لها شيئًا كان يراهُ مستحيلًا فى حياةِ سيِّدِه.

١٤ (شَجَرُ الدُّرِّ) تَكْتُم حُبَّها لأيبك وتفضِّلُ الانتظَار:

ولم يَصْعُبْ على (شجرالدر) أنْ تتبيَّن حبَّه الخفيَّ لها، فقد شَعَرتْ به، فأضمرتْ له مثلَه، ولكنها كانَتْ تغالبُ هذا الحبَّ وتدافعُه، خشيةَ أنْ تستسلمَ له فيحملَها هذا الاستسلامُ على التضحيةِ بما جُبلتْ[٢٦] عليه مِنْ شَهْوةِ[٢٧] الحكْمِ، وَحُبِّ السلطانِ، فأرادتْ أن تحتفِظَ بإرادتِها حرةً، لا يحِدُ منها حبٌّ، ولا تجُورُ عليها نزوةٌ من نزواتِ القلبِ.

نعم إنها كانتْ تعلمُ أنْ لا بدَّ لها مِنَ التزوُّجِ بأحدِ الأمراءِ يومًا ما؛ لأنها لم تبلُغْ من الكِبَرِ بحيثُ ينقطعُ أملُها فى الزواجِ، وتخلدُ نفسُها إلى التَّأيُّمِ[٢٨]. ولكِن مَنْ ذَا يضمنُ لها إذا هِىَ اصْطَفَتْ[٢٩] (عِزَّالدين أيبك) بعْلًا يَصُونُ لها مَا تُحبُّ مِنَ السَّيطرةِ، ولا يُنازِعُها حقَّها فى السيادةِ؟ مَنْ ذا يضمنُ لها حينئذٍ أنْ يبقَى (لعزِّالدين أيبك) مُلكُه، وألا ينتزعَه من يدِه أحدٌ من مُنافِسيه الأقوياء فتخسرَ بسقوطِه كُلَّ شىءٍ؟ ولم يَزل التنافُسُ بينَ الأمراءِ قائمًا على قَدمٍ وساقٍ، فَلْتَتَريَّثْ حَتَّى ترى لِمنْ تكون الغلبةُ القاهرةُ، فَتَمُدَّ إليهِ يدَها إذَا مَدَّ إليها يدَه - وهى مُوقِنَةٌ أنه سَيَفْعَلُ، فأىٌّ مِنْهم لا يتمنَّى أن يَحْظَى بها، وَيَسْعدَ بحبِّها؟!

١٥ (قُطزُ) يخشى على سَيِّدِه مِنْ مُنَافسةِ الأمراءِ الأَقْوياءِ لَه:

وكان (سيفُ الدين قُطز) شَديدَ الإخْلاصِ لأستاذِه (عزِّ الدين أيبك)؛ لِثقةِ أستاذِه به، واعتمادِه عليه فى المهمَّات؛ ولأن أستاذَه كان مِثْله ديِّنًا عفيفًا، فأحبَّه لدينِه وعفَّتِه، فكانَ لا يألُو جُهدًا فى تَوْطيدِ مركز (عزِّالدين أيبك) بما يجمعُ حولَه من الأتباعِ، وبما يستميلُ إليه مِنَ القلوبِ، وقد عرفَ أن لأُسْتاذِه مُنافسِين أقْوياءَ، وأنَّ عُيونهم لا تنامُ عنه، وأنهم يَتَربصُون به الدوائرَ[٣٠] لِيَثِبُوا عليهِ ويَحكمُوا مكانَه، وهذا (فارسُ أقطاى) يفوقُ أستاذَه فى كَثْرَةِ (الخُشْدَاشِيَّةِ) والأشياعِ، وهُو مغامرٌ بطلٌ، ومِنْ حولِه مُغَامرون أبطالٌ، ولو لم يَكُنْ فيهم إلَّا (بيبرسُ) لكفَى، وقد رَأى (قطزُ) أنَّ أستاذَه يستمدُّ نفوذَه من (شجرالدُّر)، وأنَّ (شجرَ الدُّرِّ) لا يمكنُ الثقةُ بها، ولا الرُّكونُ إليها، وهؤلاء الأمراءُ يتقرَّبون إليها، ولا يبعدُ أن ينجَح أحدُهم فى استمالةِ قلبِها إليه، فَتميلَ عَنْ أُستاذِه (عزِّالدين) فيتمَّ بذلك سقوطُه.

---

(٢٢) عزوفًا: منصرفًا وكارهًا. المضاد: راغبًا.
(٢٣) غضاضة: نقص أو ذلة.
(٢٤) حَيِيًّا: خجولًا. المضاد: وقحًا.
(٢٥) بَرَّح به: ألم واشتد.
(٢٦) جُبلت: طُبعت وفطرت.
(٢٧) شهوة: رغبة - شهية. الجمع: شهًى - شهوات.
(٢٨) التأيم: فقدان الزوج.
(٢٩) اصطفت: اختارت.
(٣٠) يتربصون به الدوائر: ينتظرون له المصائب.

KTABYEG.COM

١٦ (قُطز) يَقْتَرِحُ عَلى سَيِّدهِ الزَّواجَ مِنْ (شَجَر الدُّر):

وَقد هداهُ تفكيرُه إلى أنَّ الضَّمانَ الوحيدَ لبقاءِ أستاذِه فى الحُكْم هو أنْ يتزوجَ (عِزُّالدين أيبك) (شجرَ الدرِّ)، وكان قد عرفَ ميلَه إليها وغرامَه بها، وإنْ لم يُخبرْه أستاذُه بذلِك، فأرادَ أن يُشيرَ على أستاذِه بطلبِ يدِها، فدخلَ عليه يومًا وقالَ له: «إن سيِّدى كثيرُ الاخْتِلاف إلى السلطانةِ[٣١]، وإن الناسَ يقُولون إنه سيتزوجُها، ومملوكُه الوفىُّ يعتبُ عليه أن يجهلَ ما يعلمُه الناسُ عن سيدِه».

فنظرَ إليه (عزُّالدين أيبك) باهتمامٍ كأنما لذَّ له أن يسمعَ مثلَ هذا الحديثِ، وقال له: «لا تُصَدِّقْ ما يقولُ الناسُ، فليسَ ذلك بصحيحٍ».

قال (قطزُ): «فسَيقولون ما هو أعظمُ من هذا، مما لا يطيقُ المملوكُ سماعَه عن أستاذِه العفيفِ»، ففهِم (عزُّالدينِ أيبك) ما أرادَ، وقالَ له: «ما شَأنُنا بِهم، دَعْهُم يقُولوا ما يَشاءُون». فقال (قطزُ): «صدقتَ يا سيدِى، لِندعْهم يقُولوا ما يشاءون، ليس لنا بهم شأنٌ، ولكن دعْنَا أيضًا نفعل ما نشاءُ، ليسَ لهم بِنا شأنٌ، إن سيِّدى يرغبُ فيها، فلماذَا لا يَطْلبُ يدَها؟».

قال (عزُّالدين): «مَنْ قال لك إنَّنى أرغبُ فيها؟»

فأجابه (قطزُ): «إذا لَمْ يَشْعُرِ المملوكُ بهمومِ سيدِه لم يكُنْ أهلًا لثقتِه».

فرأى (عِزُّالدين) أنْ لا فائدة من إخفاءِ الحقيقةِ عن مملوكِه، وشعرَ بالارتياحِ، إذْ رأى أنَّ ما كانَ يجولُ فى سرِّه كحُلْمٍ مِنَ الأحْلامِ قد أصبحَ حقيقةً يُتحدَّثُ عنها بينَ يدَيْه، فقال له: «وَمَنْ يَضْمَنُ لى أنها ترضَانِى؟» فقال له (قُطز): «وهل تجدُ بين يَدَيْها من هو أفضلُ منك؟».

– إنى مملوكُ زوجِها يا (قطزُ).

– وهل كانتْ إلا جَارِيةً مملوكةً؟ ومَنْ مِنْ ملوكِ (بنى أيوبَ) يرضَى الأمراءُ المماليكُ أن يَتزوجَها؟ اللهمَّ إلا أنْ يكونَ الملكَ (الأشرفَ)، فهلْ تتزوجُ هذا الصبىَّ؟! فضحِك (عزُّالدِّين) عندَ سماعِه هذا، ومضَى (قطزُ) يقول: «إنه لا يتزوجُها إلا أنتَ أو (أقطاى)، وقد سمعتُ أنه قد خاطبَها فى ذَلك».

فاختفَى من وجْه (عزِّالدين) الضَّحكُ، وظهرَ مكانَه التَّقْطِيب[٣٢] والاهْتِمَامُ، وسألَ مملوكَه: «ممن سمعتَ هذا؟».

– سمعتُه من (بيبرس)، وقال لى أشياءَ أُخرى عَنْ نَفْسِه تأبَى الصداقةُ التى بَيْنى وبينَه أن أُفْشِيها.

فسكت (عزُّالدين) طويلًا، ثم قال: «ولكنِّى لا أَجْرُؤُ عَلى مُخاطبةِ السلطانةِ فى ذلك، وقد حاولتُ ذلك غيرَمرةٍ فيَعقد[٣٣] الحياءُ لسانِى فى كلِّ مرةٍ».

– إذا شاءَ سيِّدى أعارنى[٣٤] قلبَه وأَعرتُه لسانِى.

– تريدُ أنْ أبعثَك إليها؟

– نعم فأبوحَ لها بذاتِ صدرِك[٣٥].

– ماذا أنتَ قائلٌ لها؟

– دعْ هذا للموقفِ يُمْلِ علىَّ ما يَقْتَضِيه، وأَيْقِنْ أنَّ لسانِى لَنْ يَعْثُرَ فى شَىْءٍ لا يُرضِيك.

(٣١) كثير الاختلاف إلى السلطانة: كثير الذهاب إليها والتردد عليها.
(٣٢) التقطيب: العبوس. المضاد: البشر.
(٣٣) فيعقد: يمنع.
(٣٤) أعارنى: منحنى.
(٣٥) ذات صدرك: خفاياه وأسراره.

KTABYEG.COM

١٧ هَدفُ (قُطز) من هذا الاقتراحِ أن يتزوَّجَ من (جُلَّنار):

فنظرَ إليه (عزُّالدين) ضاحكًا، وقال مُداعبًا: «قد عرفتُك يا (قطز)، إنما تريدُ أن تَرى وصيفتَها (جلنارَ)!».

فابتسم (قطزُ) وقال: «ليس هذا بسرٍّ عليك، وما أريدُ أن أكذبَكَ فأنكرَ أنى أطمعُ منها فى نظرةٍ، لا أحسَبُ سيِّدى يستكثرها علىَّ جزاءً لِى على الخدمَة، آه إنِّى لم أَلْقها إلا مرةً واحدةً، يومَ دعتْنى الملكةُ ثالثَ يومٍ لارتقائِها أريكةَ السلطنةِ، فَأَثْنَتْ على صَنيعى يومَ قَتَلْتُ (الكند دارتوا) ثم قالت لى: أتحبُّ هذه الوصيفةَ؟ فنظرتُ فإذا (جلنارُ) واقفةٌ دونى، فأذهلنِى ذلك عنْ جوابِها، فما راعنى إلا صوتُ الملكة تقولُ: وتريدُ أن أزوجَكها؟ قلتُ: لا أرفضُ نِعْمَةَ السلطانةِ، قالت: متى تريدُ ذلك؟ فقلتُ: خيرُ البرِّ عاجلُه. فابتسمتِ السلطانةُ وقالتْ: لا، حَتَّى يَنْقَضِىَ الحزنُ على السلطانِ. آه يا سيدى لا أدْرى متَى ينقضِى هذا الحزنُ على السلطانِ!».

فسكتَ (عزُّالدين) هُنَيهةً يتعجبُ مِنْ حَماسةِ مملوكه الشَّابِّ وطَلاقَةِ لسانِه فى الحديثِ، ثم قال له وهو يبتسمُ: «ينقضِى هذا الحزنُ على السلطانِ حينما تتزوجُ السلطانةُ».

فقال (قطزُ): «أجلْ ياسيدى، فَتَزَوَّجْهَا مِنْ أَجْلى أنَا إنْ لم يكُنْ من أجْلِك. وَخَلِّصْنِى مِنْ هذا الحزنِ الطويلِ».

فأغْرَبَ[٣٦] (عزُّالدين) فى الضَّحكِ، وقال لهُ: «إذَنْ فأنا الذى أستحقُّ الجزاءَ منك».

١٨ (أقْطاى) يَتَجَرَّأُ ويُخَاطِبُ (شَجَرالدر) فى الزَّواج:

ولم يكُنْ ما سمعَه (قطزُ) من صديقِه (بيبرسَ) حديثًا مُختَلقًا، فقدْ ذهبَ الفارسُ (أقْطاى) حقًّا إلى (شجرِ الدُّر) وخاطبَها فى الزواجِ، وكان جريئًا فما عقدَ الحياءُ لسانَه وما عاقَتْه هيبةُ الملكَةِ عن الإفضاءِ إليها[٣٧] برغبتِه فى يدِها، وقد فُوجئتْ (شجرُالدرِّ) بهذا الطَّلبِ الصريحِ الجرىء، ولكنَّها ملكتْ أعصابَها، وقالتْ له بهدوءٍ إنها لا تردُّ طلبَه، ولكنَّها لا تريدُ أن تفكِّرَ فى الزواجِ، حتى ينتهِىَ أمرُ الملكِ (الناصرِ) صاحبِ (دمشقَ)، وتأمنَ على (مِصر) وعلى نفسِها، من غَزْوِه وتهديدِه، فاقتنعَ منها (أقطاى) بهَذَا الجوابِ، وحسبَ ذلك وَعدًا منها بالقبُولِ فاطمأنَّ قلبُه، وجعلَ همَّه القضاءَ على (الناصِر) وجنودِه.

١٩ (قُطز) يَعْرِضُ على (شَجَرالدر) رَغْبةَ سَيِّدِهِ الزَّواجَ بها:

ولما ذهبَ (قُطزُ) رسولًا من أستاذِه إلى (شجرِالدرِّ) لم يشَأْ أن يصرِّحَ لها برغبةِ سيِّده فى زواجها، ولكنه عَرَّضَ لها بذلك تعريضًا لطيفًا، فكان مما قاله لها: «مولاتى السلطانة، إنَّ أستاذى بعَثنى إليكِ فى أمْرَيْنِ: أحدهُما أن تُنجزِى وعدَك لمملوكِه بالزَّواج من وصيفَتِك، والآخرُ أنَّه إذْ يعلمُ أنَّك لا تحبينَ فراقَ وصيفَتِك، وهو لا يقدرُ على فراقِى، فإنَّه يتوسَّلُ إليك أن تسمَحى لنَا أنا وهِىَ، بأن نعيشَ فى خِدمتِكُما معًا».

فسكتت الملكةُ هُنيهةً تفكر فيما قال، ثم سألتْه فى صوتٍ هادئٍ رزينٍ: «أىُّ هذَين الأمرَين أحبُّ إلى أستاذِكَ أن أقضيَه؟».

فطربَ (قُطزُ) إذ أدْرك أنَّ الملكةَ فهمتْ تلميحَه، وأرادتْ أنْ تستوضِحَه فَحْوَى كلامِه لتستوثقَ من صوابِ ما فهمتْ، فبدَرها قائلًا:

«الأمر الثانى يا مولاتِى السلطانةَ». فقالتْ له الملكةُ: «كيف عرفتَ ذلك؟».

فأجابها قائلًا: «لأن الأمرَ الثانى يتضمنُ الأمرَين معًا».

(٣٦) أغرب: بالغ.

(٣٧) الإفضاء إليها: إعلامها.

KTABYEG.COM

٢٠ خَجَلُ (شجرِ الدرِّ) وقرارها بَعدم الزواج وجنود الناصر على أَبْواب مصر:

فتوَرَّد(٣٨) وجْهُ الملكة خَجَلًا، وَصَفَّقَتْ بيدِها، فأتِىَ لها بماءٍ فى كوبٍ من الذهبِ فشربتْ منه، ثم التفتَتْ إلى (قطز) وقد سكنَ ما بها، وعادتْ إلى هيئتها الأولَى، وقالتْ له: «ارجِعْ إلى أستاذِك فقُل له: إنِّى لا أستطيعُ أَنْ أقيمَ عُرسًا وجنودُ الناصرِ على أبوابِ مصرَ».

فقال لها (قُطزُ): «يا مولاتِى السلطانة، أحسَبُ أنَّ فى هذا ظُلمًا لى وإخلافًا لوعدِى».

فاستغربتِ الملكةُ ببصرِها، وهمستْ تقولُ: «لا خوفَ على (عزِّالدين) وهذا المملوكُ عندَه».

٢١ (قُطز) يؤكِّد لسيده حُبَّ (شجَرِ الدر) له:

وفهم (عزُّالدين) مما بلَّغه قطزُأن (شجرَالدر) تَعِده بقبولِ الطلبِ بشرطِ أن يهزِمَ (الناصرَ) وجنودَه، ولم يكتفِ مملوكُه بأن ينقلَ لأستاذِه كلام الملكة، بل أخذَ يشرحُ له ما اسْتَنْبَطَه مِنْ سرِّها، وما قرأَه على أساريرِ(٣٩) وجهِها، وفسَّرَذلك بأنها تُحبُّ أستاذَه، ولا شكَّ فى ذلك عندَه.

وأخذَ (عزُّالدين) يُشكِّكُه فى ذلك، فيقولُ له (قطزُ): «ألمْ أتبيَّن حبَّك لها قبلَ أن تُخبرَنِى به؟». فيقولُ له عزُّ الدين: «بَلى»، فيقولُ (قطزُ) لأستاذِه: «فقد تَبَيَّنْتُ حبَّها لك مِنْ حَيْثُ تبينتُ حبَّك لها».

٢٢ (عزالدين أيبك) يَنْتصر على الملك (الناصر):

فعزمَ الملكُ (المعزُّأيبكُ) أن يسيرَ بنفسِه لملاقاةِ (الناصرِ) وجنودِه، وألا يكتفِىَ فى ذلك بتسييرِ قُوادِه، لئلا ينفردَ دونه (فارسُ الدين أقطاى) بظَفَرِ هَذا اليومِ العَصيبِ.

وكان الملكُ (الناصرُ) قد حشدَ الجنودَ لأخذِ (مصرَ) من أيدِى المماليكِ، وانضمَّ تحت لوائِه عُصْبةٌ(٤٠) مِنْ ملوكِ (بنى أيوبَ) بالشامِ أشهرُهم الملكُ (الصالح إسماعيلُ) صاحبُ دمشقَ السابقُ، فسارَإليه عزُّالدين أيبكُ بعساكرِه، واستصحبَ معه كبارَقواده، ولَقِىَ جموعَ (الناصرِ) بالرمْلِ بين الخشبى والعباسيةِ، فدارتْ بينَ الفريقَينِ معركةٌ هائلةٌ، وكانتِ الدائرةُ فى بادئ الأمرِ على الجنودِ المصريِّين، فانهزمُوا حتى وصلَ بعضُهم إلى القاهرةِ فى غد يومِ الوقعةِ وكان يومَ الجمعةِ، فما شكَّ الناسُ فى أنَّ الأمرتمَّ للملك (الناصرِ)، وخُطبَ له فى جوامعِ البلادِ كلِّها، إلا جامعَ القاهرةِ حيثُ كان يؤمُّ الناسَ فيه الشيخُ (ابنُ عبدِ السلام)، فما انقضتْ صلاةُ الجمعةِ حتى وردَتِ البشائرُبهزيمة (الناصرِ) وفرارِه إلى دمشقَ، وانتصارِ(الملكِ المعزِّ)، فزُيِّنتِ البلادُ لمقدمه ظافِرًا ومعه الأسْرى من الملوكِ، وفيهم الملكُ (الصالحُ إسماعيلُ)، فلما مرَّالموكبُ بقبْرالملكِ (الصالح أيوبَ)، أحدقَ(٤١) المماليكُ البحريةُ (بالصالِح إسماعيلَ)، وجعلوا يصيحُون: يا مولانا، أين عينُكَ ترى عدوَّكَ إسماعيلَ؟».

ولما دخلَ (المعزُّ) إلى القلعةِ تلقَّاه السلطانُ الصغيرُالملكُ (الأشرف موسى) وهنأهُ بالظفرِ، فصاحَ (فارسُ الدين أقطاى) قائلًا للملكِ الأشرفِ: «كلُّ ما حصلَ إنما حصلَ بسعادتِك، وما سعيْنا إلَّا فى تقريرِ مُلكِكَ»، ولسانُ حالِه يقولُ للملك المعزِّ: «إياك أعْنى، واسمعِى يا جارةُ».

(٣٨) فتورَّد: احمر كالورد.
(٣٩) أسارير: ملامح – محاسن الوجه. المفرد: أسرار.
(٤٠) عصبة: جماعة. الجمع: عُصَب.
(٤١) أحدق: التف وأحاط.

KTABYEG.COM

٢٣ الملكُ (الصالح إسماعيل) يُقتلُ جَزَاءَ خِيانتِهِ:

واهتمَّ (قطزُ) بأمرِ الملكِ (الصالحِ إسماعيل) السَّجينِ بالقَلْعةِ، وتذكَّرخيانتَهُ لله ولرسوله - أيامَ كانَ ملكًا على (دمشقَ) - وبيعَه بلاد المسلمِينَ لأعداءِ الله الصليبيينَ، وما كانَ من اضطهادِه لشيخِه (الشيخِ ابنِ عبد السلامِ) وأنصارِه المجاهدِين، فأشارَ على أستاذِه المعزِّ بقتلِه، فلمَّا رأى تردُّده فى ذلك استخرج لَه فَتْوى مِنَ (الشيخ ابنِ عبدِ السلام) باسْتِحْقَاقِ هَذا الملكِ الخائنِ لِلقَتلِ، فأمرَبه (المعز) فَقُتِلَ خَنْقًا، ولَقِى جزاءَ خيانتِه لدينِه ووطنِه.

٢٤ (بيبرس) يَطْلُبُ مِنْ (شَجَرالدرِّ) تَحْقِيقَ وَعْدِها (لأقْطَاى) ويُحَدِّثُها عَنْ بُطولاتِه:

وأخذَ (فارسُ الدين أقطاى) يَسْتَنْجِزُ (شجرَالدرِّ) وعدَها، فكان يبعثُ إليها (رُكنَ الدين بيبرسَ) رسولًا مِنْ قِبَلِه(٤٢)، فَتَتلقاهُ الملكةُ بالترحيبِ، وتُحْسِنُ الإصغاءَ إلى حديثِه وهو يُعددُ لها مناقبَ(٤٣) صاحبِه وشجاعتَه وفروسيتَه وقوةَ ناصرِه وكثرةَ أتباعِه، ويصفُ لها وقائعَه وبلاءَه فى المعاركِ التى شهدَها، وأثرَه فى إحرازِ النصرِ لمصرَفى كُلِّ غَارةٍ تُشَنُّ عليها، فينطلقُ لسانُ (بيبرسَ) فى وصفِ ذلك انطلاقًا عجيبًا، ويصورُه تصويرًا قويًّا يأخذُ بمجامعِ قلب(٤٤) الملكةِ، ويستولى على مَشاعِرها حتى يُخيلَ إليها أنها تسمعُ صَلِيلَ(٤٥) السيوفِ، وقَعْقعَةَ الرِّماح، وحَفِيفَ السهامِ، وصهيلَ الخيلِ، وصيحاتِ الأبطالِ، وتشهدُ الصفوفَ تزحفُ، والصفوفَ تنهارُ، والفرسان تكرُّ، والأعداءَ تنهزمُ وتفرُّ، وترى الفارسَ (أقطاى) كالأسدِ الهائجِ يُقْدِمُ ولا يُحجمُ، والجوادَ يتوثَّبُ به فيعلُو حينًا وينزلُ به حينًا، والسيفَ فى يمينِه، والأبطال تخِرُّ صرعَى عن يمينِه وشمالِه.

ولكنَّ (بيبرسَ) قلما يصفُ لها حبَّ صاحبه وغرامَه بها، وإذا تعرَّض لذلك ففى جُمَلٍ لا تَخْرجُ مِنَ القلبِ فَلاَ تصلُ إلى القلبِ، وأنَّى(٤٦) (لبيبرس) أن يصف شيئًا لا يعرفه ولا يحسُّ به؟ وعلَام يُعَنِّى نفسَه فِى صوْغ كلماتٍ لا تَطْربُ لها (شجرُالدرِّ) كما تطربُ لحديثِه المتدفِّق الممتع عن بطولةِ صاحبِه وشجاعتِه فى ميادينِ القتال؟

٢٥ (قُطز) يَطْلُب مِنْ (شَجَرالدر) أَنْ تُحَقِّق وَعْدَها (لأيبك) وَيُحدِّثُها عَن أَشْواقِه:

أمَّا (قطز) فإنه لا يعدِّدُ لشجرالدرِّما تعلمُ مِنْ مناقبِ أُسْتاذِه وخِلالِه، بل يجزئ(٤٧) فى ذلك بالإشارة إلى دينِه وعفتِه، وصدقِهِ وأمانتِه، وإخلاصِه ووفائِه، ثم يفيضُ فى شرحِ حبِّه وبثِّ غرامِه(٤٨)، ويُصوِّرُلها خطراتِ(٤٩) نَفْسِه، وخَلَجَاتِ(٥٠) ضَمِيرِه، ويُسْمِعُها وَجِيبَ(٥١) قَلْبه وحنينَ فؤاده، واصفًا فى خِلالِ ذلك الفَيْنَةَ بعدَ الفيْنةِ صورتَها فى عينِه جميلةً رائعةً، نقيةً طاهرةً، وجامعةً بين محاسِنِ الخَلْقِ ومكارِمِ الخُلُقِ، وكان (قطزُ) إذا ما أخذَ فى هذا الحديثِ نسِى أنه ينوبُ عن أستاذِه ويقولُ على لسانِه، واستحضَرحبيبتَه (جلنارَ) كأنها جالسةٌ أمامَه حيثُ تجلسُ (شجرُ الدرِّ) مِنْ أريكتِها، وكأنه يبثُّها ما فى قلبِه من لواعِج(٥٢) الحبِّ ومرارةِ الشكوى ورقةِ الحنينِ.

فكانت كلماتُه تقع من الملكة مواقعَ الماءِ من ذِى الغُلَّة(٥٣) الصَّادِى(٥٤)، فما تملكُ الملكةُ نفسَها أنْ تَتَنهَّدَ مُسَارَقةً(٥٥) مِنْ حينٍ إلى حينٍ. ولولا أَنفتُها(٥٦) أن يظهرَ عليها الضعفُ أَمامَ المملوكِ الرسولِ، وقدرتُها على امتلاكِ عواطِفها والاحتفاظ بهدوئِها، لأرسلتْ دموعَها، وعلا صوتُها بالنَّحيب.

(٤٢) من قِبَله: من جهته.
(٤٣) مناقب: مفاخر (جمع منقبة).
(٤٤) يأخذ بمجامع قلب: يستولى عليه.
(٤٥) صليل: صوت. ومثله (قعقعة - وحفيف).
(٤٦) أنَّى: كيف.
(٤٧) يجزئ: يكتفى.
(٤٨) بث غرامه: شرح حبه.
(٤٩) خطرات: مشاعر.
(٥٠) خلجات: اضطرابات.
(٥١) وجيب: خفقان.
(٥٢) لواعج: حرقة وشدة. جمع: لاعج.
(٥٣) الغُلة: شدة العطش وحرارته.
(٥٤) الصادى: العطشان.
(٥٥) مسارقة: المراد: دون أن يراها أحد.
(٥٦) أنفتها: عِزتها.

KTABYEG.COM

٢٦ (أقطاى) و(أيبك) يتنَافسان فى محاربة (الناصر) للوصول إلى (شَجَرِالدُّرِّ):

وكان جوابُ الملكةِ العظيمةِ لِكلا الرَّسولَين: أنَّ خطرَ (الناصرِ) على (مصرَ) لا يزالُ قائمًا، وأنها لن تُفكر فى الزواج حتى يزولَ، فجعلَ (أقطاى) يقودُ الحملة إثرَالحملة لقتالِ (الناصرِ) وأَشياعِه بالشامِ ابتغاء مرضاةِ (شجرِالدرِّ)، ويغارُ (عزُّالدينِ) من أنْ ينفردَ خصمُه بشرفِ الانتصاردونه، فيسيرُأحيانًا بنفسهِ لقتالِ (الناصرِ)، ويُنيبُ مملوكَه الأمينَ على البلادِ، حتى تقرَّرَالصلحُ بينَه وبينَ (الناصر) على أن يكونَ للمصريينَ الحُكْمُ إلى الأردن داخلًا فى ذلك (غزةُ والقدسُ ونابلسُ والساحلُ) كلُّه، و(للناصرِ) ما وراء ذلك.

٢٧ (شجرُالدر) فى حَيْرةٍ بَيْنَ المتنافِسَيْن، تُثيرالصراعَ بينهما:

فلم يبقَ لدى (شجرِالدرِّ) ما تُعلِّلُ به من أمر (الناصرِ) دون الزواجِ، ولكنَّها لَمْ تَشَأْ أَنْ تَتَعجَّل الفصلَ فى هذا الأمرِ العظيمِ الذى يقومُ عليه مستقبلُها الغامضُ، فلم تعدَمْ معاذِيرَ[٥٧] أُخرى تَسْتَأْجلُ بها البطلين المتنافِسَين، وظلتْ توازن بينَهما أيُّهما تمنحُه رضاها وتأمنُه على مصيرها، ونظرتْ فوجدَتْ أمامَها رجلين: أحدُهما يُحبُّها ويخضعُ لها أَكْثَرَ مِنْ صَاحبِه، والآخرُتُعجَبُ به لقوتِه وبطولاتِه أكثرَمن أخيه، فمال قلبُها إلى الأول. ولكنَّها لم تشأْ أن تقطعَ بقبولِ (عزِّالدين أيبكَ)، حتى ترى ما يكونُ من أمرِه إذا نَفِدَ صبرُ (فارسِ الدينِ أقطاى) فعزمَ على مُوَاثَبتِه جِهَارًا[٥٨]، فرأتْ أن تعملَ على تَأْرِيث[٥٩] نارِالخِصامِ بينَهما فتستعجلَ بذلك يومَ الفصلِ، فقالت لرسولِ (عزِّالدين أيبك) لما جاءها: قل لأستاذِك: إنى لا أقبلُ أن أَتزوج نِصْفَ ملِك، فإذا صَارَمَلِكًا تزوجْتُهُ.

٢٨ (عِزُّالدين) يَنْفَرِد بِمُلْك (مِصْرَ) ويَعزِلُ (المَلكَ الأشْرَفَ) إرْضَاءً (لِشجَرِالدُّر):

ففهمَ (عزُّالدين) أنها تُحَرضُه على عَزْلِ السلطانِ الصغيرِ، (الملكِ الأشرفِ)، والاستقلالِ بالمُلكِ دونَه. وكان قد فكَّر زمنًا فى ذلك، إذْ رأى أن أركانَ مُلكِه لا تثبتُ بدونِه؛ لأنَّ الأمراءَ المماليك وَخَصْمَه (أقطاى) خاصةً يتخذون حقَّ السلطانِ الصغيرِسببًا يعترضُون به على سُلطتِه، ويتداخلُون به فى شُئونه، فلما وجد (شجرَالدرِّ) تقترحُ عليه ذلك، صَدَع[٦٠] بأمرها وتوكَّلَ على الله.

وما هى إلا أيامٌ حتى انفردَ الملكُ (المعزُّ) بملْك مصرَ، وأُزِيلَ اسمُ الملكِ (الأشرفِ) من الخُطبَة، وقُبِضَ عليه فسُجنَ بالقلعةِ، والملكُ الصغيرُ لا يدرِى لماذا أجلسُوه على العرشِ، ثُمَّ لماذا أودعُوه السجنَ، وهُو لَمَ يأْتِ عملًا اسْتَحقَّ به العرشَ فى الأولِ، ولم يقترف جُرمًا استحقَ به السجنَ فى الآخرِ.

(٥٧) معاذير: حجج. المفرد: معذرة.
(٥٨) مواثبتِه جِهارًا: مبادرته بالهجوم علنًا.
(٥٩) تأريث: إشعال.
(٦٠) صدع: نَفَّذَ.

KTABYEG.COM

٢٩ (أقطاى) يَنْشُرُ الفَوْضَى فى البِلادِ مَكِيدَةً فى (عزالدين):

وكبُرَعلى (فارسِ الدين أقطاى) ما فعلَ (الملكُ المعزُّ)، وأيقنَ أنْ قَدْ آنَ أوانُ الجدِّ فى مُنازَلةِ خصمِه العتيدِ[٦١]، فجمعَ إليه أشياعَه وأتباعَه واستعدَّ للوثوبِ، ولكنَّه لم يَشأْ أن يستعجلَ الأمرَ، وَيَثِبَ فى وَضحِ النهار؛ لئلا يُثيرَ بذلك خوفَ (شجرِالدرِّ) منه، فتتقِىَ شرَّه بتحريضِ سائرِ الأمراءِ المماليكِ عَلَيْهِ - وكلمتُها مَسْمُوعةٌ عِنْدَهم، ولا يجرؤ أحدٌ منهم على مُخَالفتِها- فيبوءُ[٦٢] بالخيبةِ وينتصرُ خصمُه عليه، ولا سيَّما وهو لم يَيْئَسْ بعدُ من اكتسابِ رِضاها إذْ ذاك، ولم تقطعْ أملَهُ فى الوفاءِ بما وعدتْه به، فهذا رسولُه (بيبرس) لا يزالُ يتردَّد، فتلقاهُ بما يسرُّه من الوعودِ، ويفهمُ من ذلك أن الملكة لا تمدُّ يدَها إلَّا إلى الغالِب.

فقد عزم (أقطاى) على أن يَكيدَ للملكِ (المعزِّ)، بِنَشْرِالاضطراب فى البلادِ، حتى يُظهرَبذلك عجزَالملكِ (المعزِّ) عن القبضِ على زمامِ الحكْمِ، وحينئذٍ تتلفتُ البلادُ فلا تجدُ غيرَ (أقطاى).

فأوعزَ (أقطاى) إلى خُشْداشيتِه من المماليكِ البحريةِ وأتباعِهم فَعَاثوا[٦٣] فى الأرض فَسَادًا، واستطالُوا على الناسِ، فَجعلُوا يأخذُون أمْوَالَ العامَّةِ ونساءَهم وأولادَهم بأيديهم، فلا يقدرُأحدٌ على منعِهم، حتى بلغَ من بغيِهم وفسادِهم أنْ كانُوا يدخُلون الحماماتِ، يأخذون النساءَ منها غَصْبًا، فإذَا قيلَ (لأقْطاى) فى ذلك قال: «لا قُدرَةَ لى عليْهم، فدَعُوا الملكَ (المعزَّ) يَكُفَّهُم عَن البَغْيِ فى البلادِ!!».

٣٠ (أيبك) يُحاولُ اسْترضَاء (أقْطاى) دُون جَدْوَى:

أما (الملكُ المعز) فقد حاولَ فى أولِ الأمرِأن يسْترضِىَ (أقطاى)، فأغدقَ عليه الأموالَ، وأقطعَه ثغرَالإسكندريةِ، وكتبَ له منشورًا بذلك طمعًا فى أن يَكُفَّ شرَّه عَنْه وشَرَّأتباعِه. ولكنَّ (أقطاى) عدَّ هذا ضَعْفًا مِنْ جانبِ (المعزِّ)، فزاد طمعُه فيه، وقوِىَ أملُه فى الانتصارِعليه.

٣١ (شَجرُالدُّر) تُعْلن زَواجَها من (أيبك) لِتَقْضِىَ على الصِّراع والفَوْضَى فى البِلاَد:

ونظرتْ (شجرُالدُّر) إلى ما انتهتْ إليه الأمورُفى الصراعِ بينَ البطلَينِ المتنافسَينِ فيها، وفى عرش البلادِ فأدركتْ بحكمتِها ودهائِها[٦٤] أن السلاحَ الذى استعمله (أقطاى) سيرتدُّ فى نحرِه[٦٥] يومًا ما فيقضِى عليه؛ لأنَّ الناسَ قد ضَجُّوا من فسادِ أتباعِه وأخذُوا يَجْأرون[٦٦] بالشكوَى منه، فَبَتَّتْ[٦٧] فى أمرِها، وأعلنتِ الملكَ المعزَّبعزمِها على التزوجِ به، ولم تَشأْ أنْ تتبَاطَأ فى ذلك فعجَّلتْ به.

وما راعَ الناسَ إلا زِفافُ الملكةِ (شجرِالدُّر) إلى الملكِ (المعزِّ)، وإقامَةُ الزيناتِ والأفراحِ فى القلعةِ والقاهرةِ وسائرِ المملكةِ المصريةِ، فَدُقتِ الطبولُ، ونُشرتِ الأعلامُ، وقَدِمَتْ وفودُ الرجالِ والنساءِ من سائرِ البلادِ يُهنئون المَلكَيْنِ العروسَينِ على زواجِهما السعيدِ.

(٦١) **العتيد**: المهيأ والحاضر.
(٦٢) **يبوء**: يرجع.
(٦٣) **عاثوا**: نشروا.
(٦٤) **دهائها**: جودة رأيها وعقلها.
(٦٥) **نحره**: أعلى الصدر.
(٦٦) **يجأرون**: يضجون.
(٦٧) **بَتَّتْ**: قطعت.

KTABYEG.COM

٣٢ انتقامُ (أقطاى) من (المعزِّ) و(شجرِ الدرِّ) بالخروج عنْ طاعته:

وأُسقِط فى يد (أقْطاى)[٦٨]، إذْ رأى أملَه ينهارُ أمامَه، وأدركَ أن (شجرَ الدر) كانت تُخادعُه وتُمنِّيه بالباطِل، فاضطربَ قلبُه، حِقدًا عليْها، ونَوى أن ينتقمَ منها، ولو فقدَ فى سبيلِ ذلك رأسَه الذى على عُنقِه، فَجَمعَ أصحابَه وأتباعَه وهدَّدَ بهم غيرَهم من المماليكِ البحريةِ؛ لكى ينضمُّوا إليه، ويبسطَ عليهم نفوذَه، وجهرَ بمعارضةِ أوامِرِ الملكِ (المعزِّ)، واستبدَّ بتدبيرِ الأمورِ دونه، ووضعَ مقاليدَ السياسةِ فى أيدِى أتباعه، فلم يبقَ للملكِ (المعزِّ) معهم أمرٌ ولا نهىٌ، ولا حَلٌّ ولا عَقْدٌ، وعاد لا يسمعُ أحدٌ منهم له قولًا، فإذا رسمَ لأحدٍ منهم بشىءٍ، أخذَ أضعافَ ما رسمَ له، وإنْ أمرَ لأحدٍ من غيرهم بشَىْءٍ، لم يُمكَّنْ من إعطائه ما أمرَ به، واجتمع الكُلُّ على بابِ (فارسِ الدين)، وصارتْ كُتُب الملكِ (الناصرِ) وغيره إنما تَرِدُ إليه، ولا يقدرُ أحدٌ أن يفتحَ كِتابًا أو يردَّ عليه، أو يُبرمَ أمرًا، أو يتكلَّمَ بشَىْءٍ إلا بحضورِه.

٣٣ انتقامُهُ من (شجرِ الدر) بإنزالها مِنَ القلعة:

وهذا عِقابُه (للملِكِ المعزِّ)، فأين عقابُه للملكةِ (شجرِ الدرِّ)؟ وأينَ انتقامُه منها؟ إن عقابَها لا يتِمُّ إلا بإنزالِها من قلعةِ الجبلِ، لتحلَّ محلَّها زوجةٌ له من بناتِ الملوكِ. وقد أحكمَ تدبيرَه لهذا الأمرِ من قبلُ، فما راعَ الناسَ إلا النبأُ العظيمُ بأنَّ الأميرَ (فارسَ الدينِ أقطاى) قد صاهَرَ الملكَ المظفرَ، صاحبَ (حماةَ)، وأن ابنتَه قد حُملتْ إلى (دمشقَ)، فى موكبٍ عظيمٍ لإحضارِها إلى (مصرَ) حيثُ تُزفُّ إلى من بيدِه فيها الأمرُ والنهىُ.

وركب (أقطاى) فى عُصْبَةٍ مِنْ أَصْحابِه إلى (المَلِك المعزِّ) بقلعةِ الجبلِ، فأخبرَه بإصهارِه إلى الملكِ (المظفَّرِ) صاحبِ (حماةَ)، وطلبَ منه الإذنَ له بأنْ يسكُن (قلعة الجبلِ) بعروسِه من سلالة الملوكِ؛ فوجم[٦٩] (الملكُ المعزُّ) هُنَيْهةً، ثم قال: إنه سينظرُ فى طلبِه، فقال له (أقْطاى): «لا أرى موْضِعًا للنظرِ فى هذا الطلبِ، وإنْ كنتَ إنما تريدُ استشارةَ (شجرِ الدرِّ)؛ فما أحسبُها تَسْتنكف[٧٠] أن تَنْزل عَنْ سَكنِها فى (قلعةِ الجبَل) لابنةِ ملكٍ مِنْ بيتِ مواليها وأولياء نعمتِها». فانقطَع (المعزُّ) ولم يُجِبْ.

٣٤ (شَجَرُ الدر) تُدبِّرُ للخلاص مِنْ (أقطاى):

ولما سمعتِ الملكةُ (شجرُ الدرِّ) بالخبرِ أَيْقنتْ بالخطرِ، وأَدْركتْ أنَّ الأمرَ جِدٌّ كلُّه ولا هَزْلَ فيه، وأن ابنَة الملوكِ آتيةٌ لا رَيْب فيها، فنازلةٌ بقلعةِ الجبلِ كما شاءَ (أقطاى)، إذا لم تُعجِّلْ بالضَّرْبِ على يدِه، وقد عرفتْ أنه قصد بذلك إرغامَ أَنْفِها[٧١]، وتحدِّىَ كبريائها وكسرَ نفسِها، انتقامًا منها؛ لأنها آثرتْ (عِزَّ الدين أيبَك) عليه، وكان قد أزعَجَها قبل ذلك تحدِّى (أقطاى) لسُلطةِ الملكِ (المعزِّ)، وتعدِّيه على حقوقِه، واستبداده بالأمورِ دونَه حتى كأنَّه هو الملكُ، فأخذتْ تُفكِّرُ فى التخلُّص منه، ولكنَّ هذه الطَّامَّةَ[٧٢] الأخيرةَ هى الطامةُ الكُبرى، فلْتَظفرْ به قبلَ أن يظفرَ بها.

فأشارتْ على زوجِها ألا يُعَارضَ (أقطاى) فى شَىْءٍ وأن يتظاهرَ بالرِّضا عن طلبِه، وأوعزَتْ إلى (سيفِ الدين قطزَ)، مملوكِ زوجِها، أن يُلقِىَ فى أذنِ صديقِه (بيبرسَ) أنَّ الملكةَ قد عزمَتْ على التَّحوُّل من قصرِ القلعةِ وتركِه للأميرةِ القادمةِ، ونفَّذتْ (شجرُ الدرِّ) هذا التدبيرَ بالفعلِ، فجعلتْ تظلُّ نهارَها بقلعةِ الجبَلِ، حتى إذا أمسَى المساءُ، انتقلتْ مع جواريها وحاشيتِها إلى قصرٍ آخر، أسفلَ القلعةِ، فأوقَدتْ فيه المصابيحَ، فلم يَشُكَّ (أقطاى) أنَّ (شجرَ الدُّر) إنما عجَّلتْ بإخلاءِ قلعةِ الجبلِ؛ لكيلا تأتىَ زوجتُه الأميرةُ إلا وهىَ فى قَصْرٍ آخر، فتخففَ على نفْسِها بذلك مَعرَّةَ الخنوع[٧٣] لإرادتِه، فاطمأنَّ (أقطاى) إلى حَالِه واغْترَّ بنفسِه، واعتقد أن الأمورَ سَتُواتِيهِ[٧٤]، وأنَّ المُلْكَ سيتمُّ له.

(٦٨) أسقط فى يده: ندم وتحير.
(٦٩) وجمَ: سكت وعجز عن التكلم من شدة الغيظ.
(٧٠) تستنكف: تستكبر.
(٧١) إرغام أنفها: وضعه فى التراب، المراد: إذلالها.
(٧٢) الطامة: الداهية.
(٧٣) معرة الخنوع: عار الذل والخضوع، المضاد: العزة.
(٧٤) ستُواتيه: ستطاوعه.

KTABYEG.COM

٣٥ (شَجَرُ الدر) تُحرِّضُ (قُطز) لِقَتْلِ (أَقْطَاى):

وَبَعثَتْ (شجرُ الدُّر) إلى مملوكِ زوجِها، فقالتْ له: «إنى أريدُ أنْ أفِيَ لك بوعْدِك، وأزوجَك (جلنارَ)، ولكنِّى لا أحبُّ أن يتمَّ عُرسُ وصيفَتى الأثيرةِ[٧٥] عندِى فى غيرِ قلعةِ الجَبلِ، وقد رأيتَ أنَّنا أخليْناها لذلكَ الذى لا يقدرُ عليه أحدٌ فى مصرَ، لِيَسْكنَها مع زوجتِه!».

فأدْرك (قطزُ) أن الملكةَ تُحَرضُه على قَتْلِ (فارسِ الدينِ أقطاى)، وتَعِدُه بإنجازما وعدتْ إذا هو خلَّصَها من شرِّه، فدارَبخاطرِه أن الملكةَ ربما لم تُماطلْهُ وعدَها إلى ذلك العهد إلا لِتَندُبَه[٧٦] لمثلِ هذا العملِ الخطيرِ، وتطلبَ منه أن يُقدِّمَ إليها رأس (أقطاى) مهرًا لـ(جلنار)، وإنه لمهرٌ كبيرٌ، ولكنَّ (جلنارَ) أثمنُ من ذلكَ، وقد بَدا من ظُلم (أقطاى)، وبغيِه[٧٧] على الناسِ وفسادِ أصحابِه فى البلادِ ما يُسْتَحَلُّ به دمُه، ويُتقرَّبُ إلى الله بقتلِه، وكذلك قد رأى أستاذه الملك (المعزّ) لن يستقرَّ له أمرٌ، ولن يثبتَ له مُلكٌ حتى يزولَ (أقطاى) من الوجود.

٣٦ خُطَّةٌ مُحكمَةٌ لاغْتِيَال (أقْطَاى):

فأعلنَ (قطزُ) إلى الملكة وإلى أستاذِه الملكِ (المعزِّ) أنَّه كَفِيلٌ بقتلِ (أقطاى)، فاتفقَ الثلاثةُ على أنْ يُدْعَى (أقطاى) لمقابلةِ (المعزِّ) فى القلعةِ، حتَّى إذا بلغَ الدهليزَبرزَله فقتله، وأشارالمعزُّعلى قُطزَأن يختارَجماعةً ممن يثقُ بهم من مماليكِ المعزِّوأشياعِه ليساعدُوه فى مُهمَّتِه الخطيرةِ، فقال قُطزُ: «أنا أَكْفِيكَهُ وَحْدى».

قال (المعزُّ): «إنه شديدُ القوةِ كريهُ اللقاءِ يا (قطزُ)، ونحن بعدُ بحاجةٍ إليك، ولئن أفلتَ من يدِك ليكونَنَّ فيه هلاكُنا. وما زال بـ(قطزَ) حتى رَضِيَ بأنْ يُعاونَه اثنان اختارَهما من مماليكِ (المعزِّ) وهما (بهادرُ، وسنجرُالغتمى).

وكان (قطزُ) و(بيبرسُ) لا يزالان صديقَيْنِ إلى ذلك العهدِ، فكانَ أحدهُما إذا أرادَ الخروجَ للصَّيدِ مع أصحابِه دعا الآخرفخرجَ معَهم، واتفق يومًا على أن عزَم (بيبرسُ) على الخروجِ للصَّيد مع أصحابِه، فدعا (قُطز) لمرافقتِه فى غَدِ ذلك اليومِ، وعلم منه (قطزُ) أنه سيخرجُ مع جماعة كبيرةٍ من أصحابِه من كبارأشياع (فارسِ الدين أقطاى)، فرأى (قطزُ) أنْ يَغْتنم فرصةَ غِيابِ هؤلاءِ عن البلدِ لينَفِّذَ ما تعهَّد به من اغتيالِ (أقطاى)، فأظهَر (لبيبرسَ) الموافقَة على اقتراحِه، ولكنه بعَث إليهِ فى صباحِ اليوم التالى مَن اعتذرَله عَنْ عَدم الخروجِ بانحرافِ مزاجِه.

٣٧ (قُطز) يُنفِّذُ الخُطَّة ويَصْرَعُ (أقْطَاى):

ولما تأكَّد (قطزُ) من خروجِ (بيبرسَ) وجماعتِه دخلَ على أستاذِه فأخبره أن الفرصةَ قد سَنَحَتْ، فبعثَ (الملكُ المعزُّ) إلى (فارسِ الدين أقطاى) يدعُوه إليه، ليستشيرَه فى أمرمُهم، وكانَ (أقطاى) قد اطمأنَّ من جهتِه لما أظهَره من موافقَتِه ومُصانعتِه[٧٨]، ولِمَا رأى مِنْ نزولِ (شجرِالدُّرِّ) عَنْ قصرِها بالقلعةِ، فلم يُصْغِ إلى مماليكِه الذين نصحُوه ألَّا يُجيبَ دعوةَ الملِك (المعزِّ).

وركبَ (أقطاى) غيرَمُكْترث بنصيحةِ مماليكِه، فقالوا: لا نتركُكَ وَحْدَك وركبوا معَه، فعندَما دخَل من بابِ القلعةِ وصارَإلى قاعةِ العواميدِ أُغلقَ بابُ القلعةِ ومُنعَ مماليكُه من العُبورِمعه، فأحسَّ بالشَّرِّووضَع يده على مَقبِضِ سيفِه،

(٧٥) الأثيرة: المفضلة.
(٧٦) تندبه: تدعوه.
(٧٧) بغيه: ظلمه.
(٧٨) مصانعته: مُلاينته.

KTABYEG.COM

ومنعَهُ كِبرياؤه عن النُّكوص[٧٩] فمضَى فى طريقِه، فلقيَهُ (قُطزُ) وصاحِباه فى الدِّهليزِ، فلما رآهم قال لهم بلهجةِ الآمرِ: «اذهبوا فافْتحُوا البابَ لمماليكِى».

فقال (قطزُ) لصاحبَيْه: «اذْهبا فافتحَا لمماليكِه، فمرَّ الرجلانِ، من جانبِه حتى صارَا خَلْفَه، فمضَى به (قطزُ) قُدُمًا فى الدهليزِ فقالَ له: «أعطِنِى سيفَك فلا ينبغِى للملِك أن يُقابلَه أحدٌ رعيَّتِه والسيفُ معَه». فغضبَ (أقطاى) وصاحَ فى وجهِه قابضًا على سيفِه: «أتجردُنِى[٨٠] من سيفِى أيُّها المملوكُ القذرُ؟».

فبدَر (قطزُ) فطعنَ جنبَه بخنجَرِه وهو يقولُ له: «بل أُجرِّدُكَ من حياتِك، وأطهرُ البلادَ من رجْسِك[٨١]».

فثارَ (أقطاى) وحملَ على (قطزَ) بسيفِه واضِعًا يدَه الأُخْرى على فَم الطَّعنةِ فى جَنْبِه، فسلَّ (قطزُ) سيفَه فلقِيَه به، وأرادَ الآخران ضَرْبَ أقطاى مِنْ خَلْفِه فَصاحَ بهما (قطزُ): «دَعَاه يَقْتلْهُ المَمْلُوكُ القذرُ وَحْدَه لِئلَّا يقول الناسُ قتلَه ثلاثةٌ مِنْ ممَاليكِ المعزِّ». فَبقِى (قطزُ) يُواثِبُه، ويتَّقِى ضَرَباتِه الهائلة يبغِى بذلك أنْ تَخُورَ قُواه للطَّعنةِ التى فى جَنْبِه و(أقطاى) يَصيحُ: «يا مَلْعُونُ اثبُتْ لى» فَيجيبُه (قطزُ): «يَا زوْجَ الأميرةِ اثبُتْ لنفسك»، حَتَّى نزفَ (أقطاى) الدَّم وَنَهكَتْه[٨٢] المواثَبةُ، فَخَانَتْهُ قدمَاه فوقعَ كالجَمَلِ البارِك وما تكُفُّ يدُه عن الضَّرْبِ بسيفِه يمينًا وشمالًا، و(قُطزُ) أمامَه يَنْظرُإليه، وهَو يَقُولُ (لقطزَ) فى صوتٍ كالحشرَجة[٨٣]: «ادنُ مِنِّى يَا صَديقَ (بيبرسَ)، ادْنُ منِّى».

وكانتِ الملكةُ (شجرُ الدُّرِّ) تُطلُّ على المشْهدِ مِنْ مَقْصُورتِها، والملكُ (المعز) يشرفُ من ديوانِه، فنادتِ الملكةُ بصوتٍ يسمعُه (أقطاى): «يا مَغْرُورُ، دعْ بنتَ الملوكِ تنفعْك»، فلما سمعَ صوتها اجتهدَ أن يرفَع طرفَه ليراها فوقَعَ على ظهرِه وهو يقولُ: «يا خائنةُ!» ولم يَقُلْ بَعْدها شيئًا!!

٣٨ (المعز) يَرْمى بَرأس (أقطاى) إلى (بيبرس) وجماعتِه فيتفرَّقُونَ خائِفين:

ولما اسْتبطأ مماليكُه الذين عَلى البَابِ خُروجَه، أيْقَنُوا بأن (المعز) قَبَض عَلى أُسْتاذهم، فانْطَلَقُوا يُذِيعُون خَبَره بين أَصْحَابه حتى بلغ (بيبرس) وجماعَته وهم فى الصَّيدِ فرجعُوا مُسرعِين، وجَمعوا أتباعَهم فركبُوا إلى قلعةِ الجبلِ فى سبعمائةِ فارسٍ يتقدمُهم (بيبرسُ) فوَقفوا تحت القلعةِ يَطْلبُون تَسْليمَ زعيمِهم، فما راعَهم إلا رأسُ (أقطاى) قد رَمى به (المعزُّ) إليهم ونَادَاهم قائلًا: «انجُوا بأنْفُسِكم قبلَ أن ينَالَكُم ما نَالَ رئيسَكم».

فأُسقِطَ فى أيدِى القومِ وأيقنُوا أن (المعز) لَم يجرؤ على ما فعلَ إلَّا وقد اسْتَعدَّ لهم، فسَرى فى قُلوبِهم الرعبُ، فانطلقوا مُتفَرِّقين وخَرجُوا فى الليلِ مِنَ القاهِرة، فمنهم مَنْ قصدَ (الملكَ المغيثَ بالكركِ) ومنهم من سارَإلى (الملكِ الناصرِ بدمشق) وفيهم (بيبرسُ)، ومنهم من أقامَ ببلادِ (الغَوْرِ والبلقاءِ والقدس) يقطعُ الطريقَ ويأكلُ بقائِم سيفِه، وجعلَ (بيبرسُ) من ذلك اليومِ يقول: «لقد فعلَها صديقى فِىَّ، والله ليَكُونَنَّ مِنْ قَتْلَاى»!!

(٧٩) **النكوص**: الرجوع.
(٨٠) **تجردنى**: تنزعنى.
(٨١) **رجسك**: فسادك وشرك. **الجمع**: (أرجاس).
(٨٢) **نهكته**: أضعفته.
(٨٣) **الحشرجة**: ترديد النفسِ فى الحلقِ.

KTABYEG.COM

ذاكر

شاهد فيديو الشرح

الفصل الثانى عشر

زَوَاجُ (قُطز وَجلنارَ) ونهايةُ (المعِزِّ وَشَجَرِ الدُّرِّ)

ملخص أحداث الفصل

- أصْبَحَ (قطز) نَائِبَ السُّلطانِ، وتَزَوَّجَ (جلنار) مُكَافَأَةً له على جُهُودِه، وبَدأ المَلكُ (المعز) يَسْتأثرُ بالسُّلْطة، وَيَضِيقُ بِتَسلُّطِ (شَجر الدر)، فَدَبَّ الصِّراعُ بينهما. وأخذ كُلٌّ منهما يُفكِّرُ فى الخلاصِ مِنَ الآخَرِ.

فأرسلَ الملك (المعز) ليخْطبَ بِنْتَ الملكِ (المظفر) صَاحِبِ دمشق، وعندما رفَضَ خَطَبَ بِنْتَ صَاحِبِ (الموصِل) فَوافَقَهُ.

- عَلِمَتْ (شجر الدر) أن (المعزّ) عَازِمٌ على إنْزالِها مِنَ القَلْعة، فقررَت أنْ تتظاهَرَ بالخُضُوعِ له.

ودَبَّرت خُطَّتَها الْمَاكِرةَ، وتَمَّ قَتْلَ (المعز) ليلًا فى الحمَّام، فأسرعَ مَماليك (المعز) إلى تَوْليةِ ابنه (علىّ) سُلطانًا، وحمَلُوا (شجر الدر) إلى أمهِ فأمرَت جَوارِيها فَضَربْنَها حَتَّى مَاتَت.

عرض الأحداث

١ (قُطز) يُصْبحُ نَائِبَ السُّلْطانِ، وَيتزَوَّجُ (جُلَّنار) مُكافأةً لَه على قَتْلِ (أقطاى):

قبضَ الملكُ (المعزُّ) فى صباحِ اليومِ الثَّانى على مَنْ بَقِىَ من جماعةِ (أقطاى) من المماليكِ البحريةِ، فَقَتلَ رؤساءَهم الذين يُخشَى منهم وحبسَ الباقِين، واستراحَ الناسُ من بغْيِهم وفسادِهم، وظلُّوا أيامًا يتذكَّرون حديثَ مصرعِ (أقطاى) بيدِ (سيفِ الدين قُطز)، وأُعجِبوا بشجاعةِ (قُطز) وبطولتِه، وعظُمَ فى عُيونِهم، وأحبُّوه من ذلك الحين وعرفَ الملكُ (المعزُّ) لمملوكِه الشجاعِ الأمينِ فضلَه عليه وعلَى مُلكِه، فزادَ فى تقريبِه وترقيتِه، حتى أعتَقَه وقلّدَه[١] أكبرَ منصبٍ فى الدولةِ وهو مَنصبُ نائبِ السلطنةِ، فلم يزدْ (قطزُ) إلا إخلاصًا له وتَفانِيًا[٢] فى خدمتِه.

ولم تَنْسَ الملكةُ (شجرُ الدرِّ) فَضْلَ هذا المملوكِ الشُّجاعِ عليها، فَبَرَّتْ[٣] له بوعدِها وأَنْعَمتْ عليه (بجُلنارَ)، وكان الذى تولَّى عقدَ تزويجها لَهُ هو الشيخُ (عزالدين بنُ عبد السلام)، وكانت الملكةُ هى التى تولتْ بيدِها إصلاحَها وَتَزْيينَها، وزفَّتْهُ بِنَفْسِها إلى نائبِ السلطنةِ (سيفِ الدين قُطز).

وأقيمَ العرسُ السعيدُ فى (قلعةِ الجبل)، وجلسَ الملكُ (المعزُّ) لاستقبالِ وفُودِ التهنئةِ بزواجِ مملوكِه الوفىِّ، كما جلستِ الملكةُ تستقبلُ وفودَ النساءِ المهنئاتِ بِزَواجِ وصيفتِها الجميلةِ.

٢ لا يَنْبغى للإنْسَانِ أَنْ يَأْمَنَ تَقلُّباتِ الزَّمانِ:

وعاشَ الزوجانِ السعيدَان حينًا من الدَّهرِ فى قصرٍ من قُصورِ قلعةِ الجبلِ تحتَ رعايةِ سيدَيْهما الزوجَينِ السعيدَين، ولكنَّ الزمانَ الغادرَكان أبخلَ من أنْ يُبقِىَ على قصرَين هانئينِ فى تلك القلعةِ التى طالما تعاقبتْ فيها المآتمُ والأفراحُ، فما لبثتْ يدُه أنْ جَالَتْ فى حَواشِى[٤] القصرِالكبيرِ؛ فَتَكَدَّرَ صَفْوُه ونضَبت بشاشتُه ورحَلت الطمأنينةُ عنْهُ.

(١) قلّده: أعطاه.
(٢) تفانيًا: بذل أقصى جهده.
(٣) فبرت: فأوفت.
(٤) حواشى: جوانب. جمع: حاشية.

KTABYEG.COM

٣ (المعز) يَتَمَسَّك بالسُّلطة وَيُبْعِدُ (شجر الدر):

فإنَّ (المعزَّ) لم يكدْ يَتَخلَّصُ من (أقطاى) وجماعتِه ويأمنُ جانِبَهم وتستتبُّ له الأمورُ ويدينُ له الجميعُ بالطاعَة، حتى استثقلَ سُلطةَ الملكةِ (شجرِ الدرِّ) ونفوذَها عليه وتَشبّثَها بما تَدّعِيه مِنْ حقِّها فى الاسْتِئْثَارِ بالسُّلطانِ دُونَه؛ إذْ ترفَعُ من تشاءُ وتضَعُ من تشاءُ، ويَرى أمرَه مردُودًا إلى أمرِها، وأمرُها ليسَ له ردٌّ، وكان قد انقطعَ زمنًا عن زوجتِه القديمة أم ابنه علىٍّ، فعادَ إليها وجعلَ يُفكِّرُ فى مستقبل ابنِه وتوطيدِ الأمورِ له؛ ليكونَ خلفَه على عرشِ مصرَ، فاستوحَشَت[٥] (شجرُ الدرِّ) منه، وغارتْ مِنْ ضرَّتِها عليه، كما غَارتْ منه على سُلطتِها المهدَّدةِ بالزَّوالِ.

٤ (شجر الدر) تَتَشَبَّثُ بِحَقِّها فى السُّلْطة وفى كَرَامَتِها:

وليستْ (شجرُ الدرِّ) بِمَنْ يَسْتَنِيمُ[٦] للحوادِث، أو يتركُ حبلَ الأُمورِ على غَارِبِها[٧] حتى يضيعَ حقُّ قلبِها فى الاستئثارِ بزوجِها، وحقُّ نفسِها فى الاحتفاظِ بسلطتِها العتيدة[٨]، فعزمتْ على الكفاحِ دونَ هذَينِ الحقَّينِ وعدمِ التفريطِ فى شَىْءٍ منهما مهما يُكلفُها ذلك من المتاعِب، فرسمتْ للدفاعِ عنْ كلا الحقَّينِ خُطةً تجرى عليها، فأمَّا حقُّها الأولُ، فقد أمرتْ زوجَها بالانقطاعِ عَنْ زوجتِه الأخرى، ولكى تستوثِقَ منْ ذلك ألزَمتْه بطلاقِها، وأمَّا الحقُّ الثانِى، فكان أمرُه يسيرًا عليها إذْ جعلتْ تُدْنِى إليها مَنْ لا يميلُ إلى الملكِ (المعزِّ) من المماليكِ الصالحيةِ، وتقربُهم وتُوليهم المناصبَ، وعمَدتْ إلى خاصةِ رجالِه ومماليكِهِ وأشياعِه فطفقتْ تُقْصِيهم[٩] وتنزعُ منهم مقاليدَ الأمورِ، وما زالتْ كذلك حتَّى تعاظمَ نُفوذُها، واستبدتْ بأمورِ المملكةِ فكانتْ لا تُطلِعُ الملكَ (المعز) عليْها.

أمَّا الملكُ (المعزُّ) فقد شقَّ عليه ما فعلتْ (شجرُ الدرِّ)، ولم تَطِبْ نفسُه بتطليقِ أمِّ ولدِه الذى كان يسعَى فى توريثِ المُلكِ له، فاشتدَّتِ الوحشةُ بينَه وبينَ الملكةِ حتى خَشِيَها على نفسِه، فنزلَ عن (قَلْعَةِ الجبلِ) وأقامَ (بمناظرِ اللُّوق) حيثُ يبيتُ فيها مع زوجتِه أمِّ علىٍّ، ولا يغشى (قلعةَ الجبلِ) إلا وجْهَ النهارِ ليقومَ فيها بشُئون المُلك.

٥ كِلا الزَّوْجين يفَكِّرُ فى الخَلاَصِ مِنَ الآخر بِطَرِيقَةٍ واحدَةٍ:

وظلتِ الحربُ بينَ الملكِ والملكةِ مُسْتَعرَةً[١٠] مِنْ وراءِ الستارِ، وكلاهما يُفكِّر فى التخلُّصِ من الآخَرِ. وَمِنْ عَجِيب أمْرِهما أنَّهما اتفقَا فى وسِيلةٍ واحدةٍ ظنَّاها نَاجِعَةً فى هذا السبيل، وأخَذاها عنْ عدوِّهما البطلِ الصريعِ (فارسِ الدين أقطاى)، وهى أنْ يرفعَا من قدرِهما بالإصهارِ إلى مَلكٍ من ملوكِ البيتِ الأيوبىِّ. أما (شجرُ الدرِّ) فقد بعثَتْ أحَد أمناءِ سرِّها بهديَّة فاخِرة إلى (الملك الناصر) صاحب دمشق، وأرسلتْ معه كتابًا تعرضُ فيه على (الملك الناصرِ) التزوُّج بها على أن تُملّكَه مصرَ، وتتكفلَ بقتلِ (المعزِّ)، فخَشِىَ (الملكُ الناصِرُ) أن يكونَ هذا خديعةً منها فلم يُجبْها بشَىْءٍ، وأما الملكُ المعزُّ فإنه بعثَ يخطبُ أخت الملكِ (المنصورِ ابن الملكِ المظفَّرِ) صاحِب (حماةَ) عروسَ عدوِّه (أقطاى) التى لم تُزفَّ إليه، فلمَّا لمْ تقبلِ الأميرةُ الحمويَّةُ طلبَ قاتِلِ خطيبِها عادَ فبعثَ إلى الملكِ الرحيمِ (بدرِالدين لؤلؤ) صاحِب (الموصِل) يخطبُ ابنتَه، فقبلَ الملكُ الرحيمُ طلبَه، وكتبَ إليه يُحذِّره من (شَجرِ الدرِّ) ويُعلمه بأنّها باطَنت[١١] الملكَ (الناصرَ).

٦ (شجر الدر) تُدَبِّر لِقَتْل زَوْجها:

وعلمت (شجرالدُّرِّ) بما كانَ من خِطبةِ (المعزِّ) لابنةِ صاحبِ الموصِل، كما علمَ هو بما عرضَتْ على (الملك الناصرِ)، فتضاعفت الوحشةُ بينَهما، وكَشَّرَ الشرُّ عن أنيابِه. ولم يبقَ للوفاقِ بينَهما سبيلٌ، واحتاطتْ (شجر الدرِّ) فأمرت وصيفتَها (جُلَّنَارَ) بأن تنقطعَ عن خدمتها فى القلعةِ، فانتقلتْ مع زوجِها الأمير (سيفِ الدين قطز) نائِب السلطنةِ إلى قصرٍ آخرَ خارجَ القلعة.

(٥) استوحشت: شعرت بعدم مودة.
(٦) يستنيم: يخضع.
(٧) يترك حبل الأمور على غاربها: المراد: يترك الأمور مهملة ولا يهتم بها.
(٨) العتيدة: الحاضرة.
(٩) فطفقت تقصيهم: فأخذت تبعدهم.
(١٠) مستعرة: ملتهبة.
(١١) باطنت: اتصلت سرًّا.

KTABYEG.COM

٧ (قطز) فى حَيْرةٍ مِنْ أمْرِ سَيّديه ويُحَاولُ الإصْلاحَ بَيْنهمَا:

وكان (قطز) قد حارَ فى هذه المسألةِ الدقيقةِ بينَ الملكِ والملكةِ، فلأستاذِه فضلٌ عليه و(لشجرِالدرِّ) فضلٌ على زوجتِه وعليه كذلك، فظلَّ زمنًا يصرفُ أستاذَه عن خطبةِ ابنةِ صاحِبِ الموصِلِ، ويُوصيه بأنْ يَتَرَيَّثَ فى الأمور، ويُعالجَها بالحكمةِ والرفقِ، حتى تخضَع له (شجرُالدرِّ)، أو يظفَرَ بها إذا اقتضى الحالُ ذلك، لكنَّ أستاذَه كان يحتجُّ عليه بأنّه لا يستطيعُ إجابَةَ الملكةِ إلى ما سَألتْ من تطليقِ أمِّ ولدِه، ولا يقدرُ أن يصبرَ على مُجاهرتِها بعَداوتِه واستبدادِها بالأمور دونَه، فلا يَسَعُ (قُطز) إلَّا السكوتُ.

٨ (قطز) يُساعِدُ أستاذه ويقفُ بجانبه:

غيرَأنه لما عَلِم بمكاتبةِ (شجرالدرِّ) للملكِ (الناصرِ) قوِىَ عندهَ عذرُأستاذِه فشدَّ أزرَهُ فى الباطِن، ولكنه بَقِىَ على ودّ الملكةِ فى الظاهرِ، حفظًا لسابقِ جميلِها معه ومع زوجتِه.

٩ انْخداعُ (المعز) باعْتذَارِ (شَجرالدر) فَلمَ يَسْمَعْ لِنُصْحِ (قُطز) فَقُتِلَ!!

وعلمتْ (شجرالدرِّ) بعزمِ الملكِ (المعزِّ) على إنزالِها من القلعةِ إلى دارِالوزارةِ، وأنه جادٌّ فى ذلك، فعزمَتْ على أن تسْبِقَه بالكيدِ قبل أنْ يخرجَ الأمرُ من يدِها، فبعثتْ إليه من حَلَفَ له بأنَّها ندمَتْ على ما كانَ منها فى حقِّه، واشتاقَتْ إلى مُصالحتِه، ونزلتْ عن إلزامِها إياه بتطليقِ أمِّ ولده، وأنَّها ما فعلتْ ذلك إلا بدافع من حُبِّه والغَيْرةِ عليه، متكلةً فى ذلك كُلِّه على ما لها من الدالَّة عندَه، وقد تبين لها الآن أنَّها أسرفَتْ فى العِتابِ عليه، وذهبتْ فى عِتابِه إلى أبعدَ مما يقتضِيه استصلاحُه واسترجاعُه إليها.

فرقَّ لها الملك (المعزُّ) حتى بكَى، وغلبَه الحنينُ إليْها، والشوقُ إلى سالِف عهدِها وكان حبُّها لا يزالُ حيًّا فى قلبِه، وإنْ رانتْ[١٢] عليه المطامعُ وغَشِيَتْه أهواءُ السياسة، فما لبثَ أن انتعشَ لما سمعَ من اسْتعْتَابِها الرقيقِ، وعزَّ عليه ألا يُعْتِبَها بعدَ أنْ بَعثتْ إليه تَسْترضِيه وَتَرْجُوه المصالحَة، فقال لرسولِها: إنَه سيصالحُها ويبيتُ عندَها تِلك الليلةَ.

وكانتْ (شجرُالدُّرِّ) قد أوصَتْ رسُولها ألا يُخاطِبَ الملكَ (المعزَّ) فى حضرةِ مملوكِه نائبِ السلطنة، ولكنَّ (قُطزَ) عَلِمَ بما جَرَى، فنَهى أستاذَه عَنِ المبيتِ فى القلعَةِ، وحذَّره من كيدِ الملكةِ، وأكَّدَ لَهُ أنها تَنْوى به الشرَّ، فلم يجدْ من أستاذِه أذنًا مُصغية.

ولما اشتدَّ (قطزُ) فى نَهْيِه احْتدَّ عليه (المعزُّ) وقالَ له: «أرأيتَ لو نهيتُك عن لقاء زوجتِك (جلنارَ) كنتَ تدَعُها لقولِى؟» فعرضَ عليه (قطزُ) أن يصحبَه إلى القلعةِ، فامتنعَ وقال له: «يا حبيبِى لا تفعلْ، كيف أصالحها وأُسِىءُ الظنَّ بها؟» فَوَجِمَ[١٣] (قطزُ)، وقال فى نفسِه: «لِيَقْضىَ الله أمرًا كان مَفْعولًا».

وقُضىَ الأمرُ حقًّا، وقُتِلَ الملك (المعزُّ) فى الحمَّامِ ليلًا بأيدِى جماعةٍ من خدَمِ (شجرِالدر).

١٠ نهاية أليمةٌ (لشجرالدر) وقصَاصٌ عَادِلٌ!!

وأشيعَ أنَّ (المعزَّ) ماتَ فجأةً فى الليلِ، وصَاحَ الصائحُ فى القلعةِ، فانطلَقَ مماليكُ (المعزِّ) إلى الدورِالسلطانية وقبضُوا على الخدم والحريم حتى أقرُّوا بما جَرى، فقبضُوا على (شجرِالدرِّ) واعتقلوها فى أحدِ أبراجِ القلعةِ، ونُصِّبَ[١٤] (نورُالدِّين علىُّ ابنُ الملك المعزِّأيبك) سُلطانًا بقلعةِ الجَبلِ، ولُقِّبَ بالملِك (المنصورِ)، وكان عمرُه خمسَ عشرةَ سنةً، وأقيمَ الأميرُ (سيفُ الدين قطزُ) نائبُ السلطنةِ على حَالِه، وصارَ مُدَبِّرَدولةِ الملكِ الصغيرِ، ولما استقرتِ الأمورُ كان أوّلَ ما فعلَ الملك (المنصورُ) أنْ أمَرفحُمِلَتْ (شجرُالدُّرِّ) إلى أمه، فأمرتْ جواريها فضَربْنَها حتى ماتَتْ!! وأُسْدِلَ الستارُ عَلى الملكةِ العظيمةِ المجاهدة (شجرالدر) صاحبة الملك الصالح (أم خليلٍ).

(١٢) رانت: غطت، ومثلها غشيت.
(١٣) وجم: سكت على غيظ - سكت لشدة الحزن.
(١٤) نصب: وُلِّى، والمضاد: عُزل.

KTABYEG.COM

الفصل الثالث عشر

(قطزُ) يتولَّى المُلْكَ ويستعدُّ لِغَزْوِ (التتارِ)

ملخص أحداث الفصل

- عَاد خَطرُ التَّتارِ على البِلَادِ الإسْلامية بقيادةِ (هولاكو)، فَخَرَّبُوا (بغداد). فاستشار (قطز) شَيْخَه (ابنَ عبدِ السلام)، فأشارَ عليه بخلعِ السُّلطانِ الصَّغيرِ الفَاسدِ ليَسْتَقِلَّ هُوَ بالسُّلطة، ويَتَمكَّنَ مِنْ مجابهة خَطَرِ التتارِ. وقد نَفَّذَ (قُطز) ذلكَ.
- كتب (بيبرس) إلى (قطز) يَسْأله الصَّفْحَ ويَطْلبُ مِنْه أنْ يَقْبَله فى خِدْمتهِ، فيَفْرَحُ (قُطز) بعَوْدَةِ صَديقهِ القَديمِ، ويَستَقْبلهُ فى مِصر.

وأظهرَ (بيبرس) إخْلَاصَه أوَّلَ الأمرِ، ولكنَّ زُملَاءَه المَماليكَ أوْغَروا صَدْرَه.

- بَدأ (قطز) يَسْتَعِدُّ لحَرْبِ التَّتارِ بتَقويةِ الجيْش وإعْدادِ الأسْلِحَةِ وتَدْبيرِ المالِ، فَأفتاه (الشيخ ابن عبد السلام)، بِوجوبِ أخْذِ الأموالِ مِنَ الأمراءِ وأمْلاكِهم حتَّى يتَساوَوْا مع العَامَّةِ.
- جَاء رُسُلُ التَّتارِ إلى (قُطز) مُهَدِّدِينَ مُتوَعِّدِينَ، فاسْتشارَ الأمراءَ فى أمْرِهم، فَبعضُهم رَأى مُهادَنَتَهُمْ وَقَبُولَ دَفْعِ الجِزْيَة لهُم، وَهُنا يَغْضَبُ (قُطز) غَضبًا شَديدًا.

وأرسل قطز إلى مُلُوكِ الشَّام ليَسْتعدُّوا لقِتالِ الأعْداءِ، وهَدَّدهم بأنَّ مَنْ يُعاون الأعْداءَ فسَيُورِّثُ بِلَادَه لمَنْ هُو أحَقُّ بها مِمَّنْ قاتلَ التَّتارَ.

عرض الأحداث

١ (بيبرس) يَفْشَلُ فى تَحْريضِ مُلُوكِ المسلِمين عَلى غَزْوِ مِصْر:

لما قَدِمَ (بيبرس) وجماعته الغاضِبُون إلى دمشقَ أكرمَهم (الملكُ الناصرُ)، وأغدقَ عليهم الأموالَ، وَخَلَع عليهم[١] عَلَى قَدْرِ مراتِبهم، وما اسْتَقرَّبهم المقَامُ عندَه حَتَّى جَعلوا يُحَرِّضُونه على قتالِ (المعزِّ) وانتزاعِ مصرَ من يدِه، فَظَل الناصِرُ يُدَافِعُهم عن ذلك، لاَ يُجيبُهم إلى ما طلبُوا، ولا يُيئسهم مِنْ إجابته، حتى تجدَّد الصلحُ الأول بينَه وبينَ الملكِ (المعزِّ) مَنْصُوصًا فيه على ألَّا يُؤوِيَ الملكُ (الناصرُ) أحَدًا من المماليكِ البحرية، فما كان منهم إلا أن غادرُوا دمشقَ ولحِقُوا بالملكِ (المغيثِ) فى الكركِ، فأقاموا عنده يَحُثُّونه على غَزْو مصرَ، وَيَعْرِضُون عليه مساعدتَه فى ذلك، فتردَّد الملك (المغيثُ) بُرْهةً حتى بَلَغه موتُ الملكِ (المعزِّ)، فتشجَّع وَسيَّرَ عسكرَهُ مع (بيبرسَ) فى ستمائة فارسٍ، فجهَّز الأميرُ (سيفُ الدين قطزُ) عسكرًا لقتالِهم، فالتقى الجمعانِ بالصالحيَّة، فانكسَر عسكر (المغيث) وانهزم (بيبرسُ) إلى الكرك.

شقَّ على (بيبرسَ) أنْ يُغْلَبَ فى هذه المعركةِ، وكان قد مَنَّى نَفْسَه بالتقدُّم إلى مصرَ وأخذِها من يدِ (المعزِّ)، والانتقام لرئيسه (أقطاى) منه ومن أصحابِه، ولا سيما صديقُه (قطزُ) الذى أقسمَ هو ليقتلنَّه بيدِه، ولمَّا رجعَ مِنْ هزيمتِه إلى الملكِ (المغيث) بالكرك آنسَ مِنْه وحْشةً[٢] لأن المغيث اعتقدَ أنَّه غُدربه وَبِعَسْكرِه إذْ حَرَّضَه على غَزْوِ مصرَ، فرأى (بيبرسُ) أن يعودَ إلى الملكِ (الناصر) لعله يجدُ عندَه من العزمِ على غَزْوِ مصرَ فى هذه المرة بعدَ مقتل (المعزِّ) ما لم يجدْه من قبلُ، فبعثَ إلى (الناصر) يستأمنُه ويستحلفُه، فأمَّنه (الناصرُ) وحلفَ له، فرجعَ (بيبرسُ) إليه، وعادَ (الناصرُ) إلى برِّه وإكرامِه.

٢ مَوْقِفُ المسْلِمِينَ مِنْ عَوْدَةِ خَطَر (التَّتارِ):

وكان خَطرُ التتارِ فى ذلك الحينِ قد عَاد يتهَدَّدُ بلادَ الإسلامِ بأَشدَّ مِمَّا كان فى أيامِ (جنْكِيزْ خَانْ)؛ فقد انحدَر منهم جيشٌ كبيرٌ بقيادةِ طاغيتهم الجديد (هولاكو)، فَعَصَفُوا[٣] بالدولةِ الإسماعيلية فى فارس، ثم زحفُوا على (بغدادَ)

(١) خلع عليهم: أعطاهم. (٢) وَحْشَة: عدم مودة. (٣) عصفوا: أهلكوا.

KTABYEG.COM

فقتلُوا الخليفَة أشنَع قِتْلَةٍ، ثم مَضَوْا يَسْفِكُون[٤] الدماءَ، وينتهكُونَ الأعراضَ، وينهبُون الدُّور، ويُخرِّبون الجوامِعَ والمساجدَ، وعمَدُوا إلى ما فيها من خزائنِ الكتبِ العظيمةِ فألقَوْها فى نهرِ دجلَة حتى جَعَلوا منها جِسرًا مرَّتْ عليه خُيولُهم!! واستمرُّوا على ذلك أربعينَ يومًا، وأمرَ (هُولاكو) بِعَدِّ القَتلى بعد ذلك فبلغَتْ عِدَّتهم زهاءَ مليونَىْ نفسٍ!!!

سرتْ أنباءُ هذه الفاجعةِ التى حلَّتْ بعاصمةِ المسلمينَ الكُبرَى فاهتزَّلها العالَمُ الإسلامىُّ مِنْ أقصاهُ إلى أقصاهُ، وامْتحَنَ الله بها قلوبَ ملوكِه وأمرائهِ ليعلَم مَنْ يَثْبُتُ منهم على دينه، فَيُنْتَدبُ لِجهادِ[٥] أولئك البُغَاةِ المشركِينَ، وَمَنْ يَرْتدُّ منهم على عَقبيه[٦] جَزَعًا مِنَ الموتِ، وخوفًا على ما فى يدِه من زينةِ العاجلةِ، ومتاعِ الحياةِ الغَرورِ، فيُوالى أولئِكَ البغاةَ ويُمَالِئُهم[٧] على دينهِ وأمَّته ووطَنِه؛ فهذا الأميرُ (بدرُالدين لؤلؤ) صاحبُ الموصِلِ قد خَشِى التتارَفأعانَهم على إخوانِه المسلمينَ المجاهدِين بأربلَ. وهذا الملكُ (الناصرُ)صاحبُ دمشقَ، سليلُ هازمِ الصليبيين وَسَمِيُّه[٨]، قد أنفذَ ابنَه الملكَ العزيزَ بهدايا إلى طاغيةِ التتارِليسأله فى نجدة يأخُذ بها (مصرَ) من المماليك.

٣ دَوْرُ (قُطُزَ) حَانَ لِيَحْمِىَ حِمَى الإِسْلامِ مِنْ فَظَائِعِ التَّتَارِ:

ولكنَّ فى مصرَ – مصرَ التى حمَتِ الإسلامَ يومَ فارسكُورَ، وهزمَتِ الصليبيِّينَ، وسجنتْ (لويسَ التاسعَ) فى دارِ ابنِ لقمانَ، وردتْه إلى بلادهِ بِخُفَّىْ حُنينٍ – رجلًا كأنَّما أعدَّه جبارُالسماءِ للقاءِ جبَّارِالأرضِ!

ومَنْ أصلحُ لجهادِ التتارِمن زوجِ (جُلَّنَار) الذى كانَ كُلُّ همِّهِ فى الحياةِ أنْ يعيشَ حتى ينتقِمَ منهم لأسرتِهما المجيدةِ – وهذا حظُّ نَفْسِه – وحتى ينتصف منهم للإسلام – وهذا حظُّ دينه ومِلَّتِه؟

فلم يَكَدْ نَائبُ السَّلْطَنةِ المصريةِ يَسْمعُ بما حَلَّ ببغدادَ من نكبَةِ التتارِ، وَبِتَحَفُّزِ (هولاكو) للانْقِضَاضِ على سائر بلادِ الإسلامِ، حتى ثارتْ شُجُونُه، وتمثلتْ له ذكرياتُ خالِه (جلال الدّين) وجَدِّه (خُوارزم شاه)، وما كانَ من جهادِهما لهم فى عهدِ طاغيتِهم الأكبرِ (جنكيزخان)، وكيف انتهى مُلكُهما على أيديهم وتشتَّتَ شملُ أسرتِهما فصاروا فى الناسِ أحاديثَ، وأيقنَ أن دَورَه العظيم قد جاءَ لِيَنْتَصِف حَفِيدُ (خُوارزم شاه) من حفيدِ (جنكيزخان)، وأنَّ رُؤيا النبى ﷺ قد بدأتْ تتحققُ، أليسَ هو اليومَ حاكمَ مصرَ، ومُدبِّرَ دولتِها، ومصرِّفَ أمورِها ولَيس لسلطانِها الصغيرِإلا الاسْمُ؟

٤ (قطز) يُطَمْئِنُ النَّاسَ حَتَّى لا يَنْتَشِرَ بينهم الذُّعْرُ مِنَ التَّتَارِ:

وقد سَرى الخوفُ من التتارِإلى مصرَلكثرةِ اللاجئين إليها منَ العراقِ وديارِبكرٍ ومشارفِ الشامِ، وأخذَ هؤلاءِ يُحدِّثون الناسَ بفظائعِ التتارِوأفاعيلهم المنكَرَةِ من أشياءَ تقشعرُّ[٩] لها الأبدانُ، وَتَنْخَلِعُ[١٠] القلوبُ جزعًا وهَلَعًا، فما يشكُّ الناسُ بمصرَأن التتارَآتونَ إليهم لا محالة، وأن دَوْرَهم سيحينُ يومًا ما، وقد شاعَ فيهم اعتقادٌ قويٌّ بأَنَّ التتارَقومٌ لا يُغلَبون، ولا يُقاوَمُ لهم جيشٌ، ولا تقِى منهم حصونٌ، فانتشرَ بينَهم الذُّعرُ، وعزَم فريقٌ منهم على الرحيلِ عن مصرَإلى الحجازِأو اليمنِ. وعرضُوا أملاكَهم ليبيعُوها بأبخسِ الأثمانِ، فكان على نائبِ السلطَنةِ أن يبذُلَ جهودًا عظيمةً لطمأنةِ الناسِ وتسكينِ خواطرِهم، وإفهامِهم أن التتارَ ليسُوا إلا بشرًا مثْلَهم، بل هُمْ بما أعزَّهم الله به من الإسلامِ أقْوى من أولئِكَ الوثنيِّين، وأجدرُأن يثبتُوا للبأسِ، وأن يبيعُوا نفوسَهم غاليةً فى سبيل الله ودينِه.

٥ الشيخ (ابن عبد السلام) يُشَجِّع (قُطُز) لِيَسْتَقِلَّ بالسُّلْطَةِ:

وكانَ الأميرُ(سيفُ الدين قطزُ) فى خِلالِ ذلك يَخْتَلِفُ سرًّا إلى بَيْتِ شيخِ الإسلامِ (ابنِ عبدالسلام) ويستشيرُه فى أمورٍ كثيرةٍ، فإذا سأله الشيخُ عما أنجزَمن الأعمال استعدادًا لقتال التتار، شكا إليه (قُطزُ) ما يلقَاهُ من المصاعِب، لمكان الملكِ الصبىِّ، والتفافِ بطانةِ السوءِ حولَه وحولَ أمِّه، يُفْسِدُون ما بينَه وبينَ (قُطز) فيتصدَّى لخلافِه فيما يرى القيام به لازمًا فى هَذا الموقفِ، وكان الملكُ (المنصورُ) قد كثُرتْ مفاسدُه، وشُغِل عَنْ شئونِ المُلك باللَّعِب، وتحكَّمَتْ أمُّه، فاضطربتِ الأمورُ

(٤) يسفكون: يريقون.
(٥) فينتدب لجهادهم: يخرج لقتالهم.
(٦) عقبيه: عظم مؤخرالقدم. الجمع: أعقاب.
(٧) يمالئهم: يعاونهم ويناصرهم.
(٨) سَميّه: المسمى باسمه.
(٩) تقشعر: ترتعد.
(١٠) تنخلع: تتزعزع.

KTABYEG.COM

وكرِهَهما الناسُ. فأخَذ (ابنُ عبد السلام) من ذلك الحينِ يشجعُ (قُطُزَ) على خلعِ الملكِ والاستقلالِ بالسلطنةِ دونَه، بل جعلَ يوجِبُ ذلك عليه إذ ليسَ فى البلادِ أصلحُ منه لجمع كلمَة المسلمين، حتَّى يتأهَّبُوا لِدَفْع غَائِلة (١١) التتارِ عَنْ بلادهم.

٦ (قطز) فى صِرَاع نفسى بين الوَفاء لِسُلطانه وَالوفاء لِمصر:

وقد كان عَزيزًا على (قُطُزَ المُعِزِّىِّ) أن يخلعَ (ابْنَ المعزِّ) أستاذه وولىّ نعمتِه(١٢)، وتردد طويلًا فى ذلك، وودَّ لو استطاع أن يمضىَ فى عملِه معَ بقاءِ المنصورِ فى السلطنةِ، ولكنَّه رأى استحالةَ ذلك فى مثلِ هَذا الموقفِ العصيب الذى يحتاجُ إلى اجتماعِ الكلمةِ وَسُرْعةِ البَتِّ فى الأمورِ. فكانَ عليه أن يختارَ بين الوفاءِ لأستاذِه الذاهبِ، والوفاءِ لمصرَ الباقية، وفى الأولِ تَعْريضُ سلامةِ مصرَ وسلامةِ سلطانِها نفسِه لخطرِ التتارِ، وفى الثَّانى الرجاءُ فى حمايتها وحمايةِ سائرِ بلادِ الإسلام من هذا الخطرِ الدَّاهم (١٣) فَصَحَّ عزمُهُ على خَلعِ (المنصورِ).

واتَّفَقَ إذْ ذاك أنْ بعثَ الملكُ (الناصرُ) صاحبُ دمشقَ رسولًا إلى سلطانِ مِصرَ الملكِ (المنصور) يستنجدُ بعسكرِ مصرَ لِصَدِّ التتارِ عنْ بلادِه، بعَد أنْ يئِسَ من إجابةِ (هولاكُو) طلبَه، إذْ كتب إليه (هولاكو) يأمرُه بالخضوعِ له وتسْليمِ البلاد إليه، فاغتنم (قطزُ) هذِه الفرصةَ، وعقدَ مجلسًا بقلعةِ الجبلِ عندَ الملكِ (المنصورِ)، دعا إليه الوزراءَ والأمراءَ والعلماءَ والقُضاةَ وأهلَ الحلِّ والعقد، وحضَره سفيرُ الملك (الناصرِ)، فتذاكرُوا أمرَ (التتارِ) وما أوجبَ الله على المسلمِينَ من جهادهم، ودفع شرِّهم عن البلادِ، وحِفْظِ بَيْضَةِ(١٤) الإسلام مِنهم، فشعرَ الحاضرُون شعورًا وَاضحًا بضَعفِ السُّلطانِ، وعدمِ صلاحِيتِه للحُكمِ فى مثلِ هذه الظروفِ الحَرِجةِ، وأنْ لا بدَّ مِنْ سُلطانٍ قويٍّ حازم يضطلعُ بهذا الأمرِ الكبير، حتى لا يَخْتلفَ الناسُ وتَذْهَبَ ريحُهم.

٧ الشيخ (ابن عبد السلام) يَقْتَرِحُ أنْ يَتَوَلَّى (قطز) السُّلْطَةَ:

وكان الشيخُ (ابنُ عبدِ السلام) فيمن حضرَ ذلك المجلس مِنَ العُلَماءِ، فجَهرَ بهذا الرأى فى غيرِ تعريضٍ(١٥)، واقترحَ أنْ يَلِىَ الحُكْمَ الأميرُ (سيف الدين قطزُ) لصلاحِه وقوتِه، حتى تَتفقَ كلمةُ المسلمين، فدُهش أهلُ المجلسِ من شجاعةِ الشيخِ (ابنِ عبدِ السلام) وصراحتِه، وأشفق عليه أصحابُه ومحبُّوه أن يصيبَه سوءٌ من قِبَلِ السلطانِ والأمراء الذينَ يعزُّ عليهم أن يَخْضَعُوا (لقُطزَ)، ويستأثرُ دُونَهم بالسلطَةِ، وحصلَ اضطرابٌ فى المجلسِ، وجهرَ الأمراءُ المماليكُ المُعِزِّيةُ منهم والصالحيةُ برفضِ الاقتراحِ، وعدُّوه افْتِئَاتًا على حقِّ الملكِ (المنصورِ)، وكان أشدهم فى ذَلك الأميران (علمُ الدِّين سنجرُ الغتْمىُ وسيف الدين بِهَادرُ) وغيرُهما من مماليك المعزِّ، وكادَ يحصلُ ما لا يُحمدُ فى المجلسِ لولَا أنْ فضَّه الأميرُ (قطزُ)، فانصرفَ الحاضرون وهم يتذَاكرُون ما جَرى فى المجلس، فمنهم من يميل إلى الأمير (قطز) وَهُم سَوادُ الناس(١٦)، ومنهم مَنْ يميلُ إلى الملكِ (المنصورِ) وجُلُّهم من الأمراء وأتباعِهم، وخشِىَ الأميرُ (قطزُ) على الشيخِ (ابنِ عبدِ السلام) أن يجْنىَ عليه الأمراءُ، فرتَّب رجالًا أشدَّاءَ لحراستِه حتى أبلغُوه مَأْمَنَهُ، وظلُّوا بعد ذلك يحرسُونه أيْنَما ذهبَ.

(١١) غائلة: شر. الجمع: غوائل.
(١٢) ولى نعمته: صاحب الفضل عليه.
(١٣) الداهم: الأسود المفاجئ.
(١٤) بيضة: حمى ووسط وأصول.
(١٥) تعريض: تلميح.
(١٦) سوادُ الناس: عامتهم. المضاد: خاصتهم.

KTABYEG.COM

٨ (قطز) يُعلنُ نفسَهُ سلطانًا لمصرَ بعد إقناعِ الأمراءِ:

وانتهز الأمير (قطزُ) فرصة خروجِ كِبارِ الأمراءِ ذات يومٍ للصيدِ، فقبضَ على (المنصورِ) وأخيه (قاقان) وأمِّهما واعتقلَهم فى بُرجِ قلعةِ الجبلِ، وأعلنَ نَفسه سُلطانًا على مِصْرَ، وجلسَ على سريرِ المُلْكِ، وتلقَّبَ بـ (الملك المظفَّر).

ولما رجعَ الأمراءُ من الصَّيدِ وبلغَهم ما فعَله نائبُ السلطنةِ ركِبُوا إلى قلعةِ الجبلِ وأنكَرُوا ما كانَ من قبض (قُطزَ) على (المنصورِ) وتوثُّبه على الملكِ، فاسْتَقبلهم السلطانُ الجديدُ استقبالًا حسَنًا، وألَانَ لهم الحديث، واعتذَرَ لهم بحركةِ التتارِ إلى جهةِ الشام فمصرَ، والتخوُّف مع هذا من (الناصرِ) صاحب دمشق أنْ يَنْضمَّ إلى التتارِ ويستنجد بِهم للإغارةِ على مصرَ، وقال لهم: «إنِّى ما قصدت إلا أن نجتَمِع على قتال التتار، ولا يتأتَّى[١٧] ذلك بغيرِ مَلِكٍ قَادرٍ، فإذا خرجْنا وكسَرْنا هَذا العدوَّ فالأمرُ لكم، أَقِيموا فى السَّلطنةِ من شِئتُم، وإذا كانَ فيكم منْ يرى نَفْسَه أقوى منِّى على الاضطلاعِ بهذا الأمرِ فليتقَدمْ إلىَّ لأحلَّه[١٨] محلِّى فيُعفِينى مِن هذِه التَّبعةِ العظيمةِ، ويتحملَ مسئولية حِفْظِ بلادِ الإسلام أمامَ الله». فسكت الأمراءُ جميعًا ونظَر بعضُهم إلى بعضٍ ثم انصَرفُوا.

٩ الملكُ (الناصِرُ) يَطْلب مِنَ التَّتارِ مُساعَدته لِغَزْوِ مِصْر، و(قُطْز) يُهَدِّدُه:

ووردَ الخبرُ إلى مصرَ بأن الملِكَ (الناصرَ) لمَّا استبْطَأ جوابَ سلطانِ مصرَ أخذَ يفاوضُ التتارَ مرةً أُخرى ليساعدُوه على غزوِ مصرَ. فشقَّ هذا على الملكِ (المظفَّرِ) ودَعا السفيرَ الشاميَّ فقالَ له: «أما يستحْيى صاحبُك أنْ يَسْتَنْجدَ بنا على عدوٍّ الإسلام، ثم يستنجدَ به علَيْنا؟ إذا لم يكُنْ عنده إسلامٌ فلتكُنْ عندَه مُروءَةٌ!». فجَعَل السفيرُ يُهَدِّئُ من غضبِ الملكِ (المظفرِ) ويقولُ له: «لعلَّه استبطأ جوابَكم فخشِىَ أن تكونوا ضِدَّه». فقالَ له الملك (المظفرُ) وهو يَتَميّزُ مِن الغَيْظ: «فهبْ أننا كُنَّا ضدَّه لما بيْنَنَا مِنْ سالفِ الخلافِ والتنافُسِ، أَيرْضَى لنفسه ولدينه أنْ يتطوَّعَ لأعدائِه وأعدائِنا وأعداء الإسلامِ فَيُعينَهم علينا، ويمهدَ لهم السبيلَ لغزوِ بلادِنا والقضاءِ على ما بَقِىَ فيها من دين وإيمان؟ والله لئنْ لَمْ يَكُفَّ عن خيانتِه للدين لأَسِيرَنَّ إليه فَأُحَطِّمنَّه قبلَ التتارِ!».

١٠ (بيبرس) يَعُودُ إلى صَدَاقَة (قُطْز) لِيَقْوَى عَزْمُه عَلَى قِتَالِ التَّتار:

أما (بيبرسُ) فقد كان فى (غزةَ)، لما بلغَه قبضُ خصمِه الأميرِ (قطزَ) على (الملكِ المنصورِ)، وإعلان نفسِه سُلطانًا على مصرَ، ففكَّرَ فى مُصالحةِ عدوِّه وصديقِه القديم، فبعثَ إليه يعترفُ له بالسَّلْطَنةِ ويُعَظِّمُ شأنَه ويَصفُ له ما يُكابِدُهُ هُو مِنْ ذُلِّ الغُربة وعذابِ التشرُّدِ، ويتوسَّلُ إليه بحقِّ الصداقةِ القديمةِ أن يَقْبلَ عَثْرتَه[١٩] ويَقْبلَ خدمتَه، ويأذَنَ له بالرجوعِ إلى مصرَ لِيَشُدَّ أزرَه فى عَزْمِه على قتالِ التتارِ.

فلما قرأ الملكُ المظفَّرُ كتابَه، أدركتْه الرأفةُ فبكى وقَال: «الحمدُ لله، قد عادَ صديقى القديمُ إلىَّ». وكتبَ إليه جوابًا رقيقًا يسألُه القدومَ عليه، ويَعِدُه بالوعودِ الجميلة.

ففارق (بيبرسُ) غزةَ، وسارَ فى جماعةٍ من أصحابِه عائدًا إلى مصرَ، فلما قاربَ القاهِرةَ ركبَ (المظفرُ) للقائِه فعانقه واستقبَلَه استقبالًا حسَنًا، وأنزلَه بدارِ الوزارةِ وأقطعَه قَصَبةَ قليوبَ وأعمالَها، وأخذَ الملكُ (المظفرُ) بعدَ ذلك يُقربُه إليه ويستشيرُه فى أمورِه، ويبالغُ فى إكرامِه ومجاملتِه خَشْيةً من نَزَواتِه[٢٠]، ولم يَنْسَ ما يُضْمِرُه له

(١٧) ولا يتأتَّى: ولا يتحقق أو لا يمكن.
(١٨) لأحله: أضعه وأُنزله.
(١٩) يقبل عثرته: يقبل عذره، ويعفو عنه.
(٢٠) نزواته: وثباته وزلاته.

KTABYEG.COM

كبيرُ أتباعِ (أقطاى) من الخُصومةِ والحِقْدِ، فاجتَهد أنْ يَسْتَلَّ[٢١] سَخِيمَتَه[٢٢] من صدْرِه، ليتخِذه عَضُدًا[٢٣] له فى جهادِ أعداءِ الإسلامِ؛ لما يتصفُ به (بيبرسُ) من الشجاعة والبأس، وكثيرًا ما نصحَه بعضُ بِطانَتِه[٢٤] بالقبضِ على (بيبرسَ) حتى يأمَنَ جانبَه فلا ينقضَّ عليه فى وقتِ الخطرِ، فكان يُعْرِضُ عنْهم ويقولُ لهم: «دَعُونِى وصديقِى (بيبرسَ)، ليس لى أنْ أحرِمَ المصريينَ فضلَ بأسِه وشجاعتِه».

١١ زُملاء (بيبرس) يُزَيِّنون لَه التآمُرَ عَلَى (قُطز):

وكان (بيبرسُ) فى بدْءِ إقامتِه بمصرَ يُظهرُ الإخلاصَ للملكِ (المظفَّرِ) والاستعدادَ لخدمتِه ومناصرتِه، ولكنَّه سُرعانَ ما نَسِىَ جميلَ (المظفَّرِ) وإحسانَه إليه، وعندما كثُرَ اجتماعُه بزملائِه من المماليكِ الصالحيَّةِ الذين رأوا الأمرَ قد خرجَ من أيديهم منذُ مَقْتَلِ (أقطاى)، وغلبهم عليه المماليكُ المعزِّيةُ، فأوغَرُوا صدْرَه على الملكِ (المظفَّرِ)، وحسَّنوا له الانتقاضَ عليه لاسترجاع سالفِ سُلطانِهم، وذكَّروه بثأرِ رئيسهم (فارسِ الدين أقطاى)، فصادفَ هذا هوًى فى نفس (بيبرسَ)، ولكنَّه أوصاهم بالكِتْمانِ، وَإرْجَاء الأمرِ إلى الحين المناسبِ، ريثما يُدبِّرون مكيدةً للقبْضِ على الملكِ (المظفَّر) وحُلول (بيبرسَ) محلَّه.

١٢ (قطز) يُفكِّر فى تَدْبيرِ المَالِ لِقتالِ التَّتارِ:

وكان الملكُ (المظفرُ) إذْ ذاكَ يفكِّرُ فِى تدبيرِ المالِ اللازمِ لتقويةِ الجيشِ المصرىِّ، وتكثيرِ عددِه، وتجهيزِه بالأسلحةِ والعُددِ وآلاتِ القتالِ وجمعِ الذَّخائِرِ والأقواتِ والأرزاقِ الكافيةِ لإعاشتِه وتكوينِه؛ إذْ ليس ببيتِ المالِ ما يكفِى للقيامِ بهذا الأمرِ العظيمِ، فخطَرَ ببالِه أن يفرضَ ضريبةً على الأمةِ وأملاكِها لِجَمع المالِ اللازمِ، فعقَد مجلسًا حضَره العلماءُ والقضاةُ والأمراءُ والوزراءُ والأعيانُ، وفى مقدمتِهم (الشيخُ عزُّ الدينِ بنُ عبد السلام) فاستَفْتَى الملكُ (المظفرُ) العلمَاءَ فى جوازِ فرضِ الأموالِ العامَّة لإنفاقِها فى الجيش.

١٣ فَتْوَى (الشيخ ابن عبد السلام) بمُصَادَرَةِ أَمْوالِ الأُمَراءِ لِتَقْوِيةِ الجيْشِ:

فَتَهيَّبَ[٢٥] العُلماءُ فى الإفتاءِ وخافُوا إنْ هم أَفْتوْا بالجوازِ أن يُغضِبُوا العامَّةَ عليهم، وإن أفْتَوا بالمنعِ أنْ يَبُوءُوا[٢٦] بِغَضَبِ السلطانِ، فظلوا يتدافَعُون الإفتاءَ حتى صَدَع[٢٧] (ابنُ عبدِ السلام) بفتْياه العَظيمةِ، فسكتَ سائرُ العلماءِ وانفضَّ المجلسُ على ذلك.

وكانت الفُتيا صريحةً فى وجُوبِ أخذِ أموالِ الأمراءِ وأملاكِهم حَتَّى يُساوُوا العَامةَ فى مَلابِسهم ونفقاتِهم، فحينئذٍ يجوزُ الأخذُ من أموالِ العامةِ، أمَّا قبلَ ذلك فلا يجوز.

(٢١) يستل: ينتزع.
(٢٢) سخيمته: حقده.
(٢٣) عضدًا: معينًا. الجمع: أعضاد.
(٢٤) بطانته: أصفيائه. الجمع: بطائن. المراد: أعوان.
(٢٥) فتهيب: فتخوف.
(٢٦) يبوءوا: يرجعوا ويعودوا.
(٢٧) صدع: جهر. المضاد: أسرَّ.

KTABYEG.COM

١٤ صُعُوبَة تَنْفيذ هَذه الفَتْوَى وإصْرارُ الشَّيخ عَلَى تَنْفِيذِها:

فحارَ الملكُ (المظفرُ) فى الأمرِ؛ لأنه إنْ سَهُلَ عليه الأخذُ من أموالِ العامةِ فليسَ من اليسيرِ عليه أنْ يأخذَ من أموالِ الأمراءِ دونَ أنْ يُحدِثَ ذلك شَغْبًا[٢٨] فيهم قد يُوقِدُ فى البلادِ فتنةً يَصْعُبُ إطفاءُ نارها، فبعث إلى (الشيخ ابنِ عبد السلام)، وشرحَ له صُعوبةَ الأخذِ من أموالِ الأمراءِ. وتلطَّف معه ليُفتيَه بجوازِ الأخذِ من أموالِ العامةِ، إذا صعُبَ الأخذُ من أموالِ الأمراء، فلم يرضَ (ابنُ عبدِ السلامِ) وقال له: «لا أرجعُ فى فتواىَ لرأيِ مَلِكٍ أو سلطانٍ». وذكَّرَه بالله وبالعهدِ الذى قطعَه على نفسِهِ أن يَقُومَ بالعَدْلِ وينظُرَ لمصلحةِ المسلمينَ، وأغلظَ له[٢٩] فى ذلك حتى لم يشكَّ الحاضرون أن السلطانَ سيقبضُ عليه، فما كان من الملكِ (المظفَّرِ) إلا أن اغْرَورَقَتْ عينَاهُ بالدموع، وقام إلى الشيخِ فقبَّلَه على رأسِه قائلًا: «بارك الله لنَا ولمصْرَ فيكَ، إن الإسلامَ ليفتخرُ بعالمٍ مِثلِكَ، لا يخافُ فى الحقِّ لوْمَةَ لائمٍ».

١٥ (بيبرس) يُخَوِّفُ (قطز) عَاقِبَةَ تَنْفيذ الفَتْوى ويُحَرِّضُ أُمَراءَ المَمَاليكِ عَلَى عَدَمِ تنفيذها:

وبعثَ الملكُ (المظفرُ) إلى الأمير (بيبرسَ) فاستشارَه فى هذا الأمرِ الخطيرِ، فخوَّفَه (بيبرسُ) فى أولِ الأمر مِنْ عاقبةِ الأخذِ من أموالِ الأمراءِ، وأكد له أنَّهم سينتقضُون عليه ولا يُطيعونه، وكان غرضُه بذلك أن يحملَ الملكَ (المظفَّرَ) على نَقْضِ ما أفتى به (ابنُ عبدِ السلام)، ليغضَبَ هذا العالِمُ لدينِه فيثيرَ الناسَ على (المظفرِ)، ولكنَّه لما بلغَه أنَّ المظفرَ رَضِىَ من الشيخِ تشدُّدَه فى التَّمسُّكِ بفُتْيَاه، وأثنَى عليه لذلك، رجعَ (بيبرسُ) إلى (المظَفرِ) وقال له: «قد رجعتُ عن رأيى الأولِ وأرى الآن أنْ تُمضِىَ ما أفتى به الشيخُ (ابنُ عبد السلام)، وسأكونُ أوَّل من ينزلُ عن أملاكِه لبيتِ المال». وكان (بيبرسُ) يريدُ بهذَا أن يثورَ الأمراءُ على الملكِ (المظفَّر)، ويخلعُوه ويولُّوا (بيبرسَ) مكانَه، وقد اجتمعَ بهم سرًّا وحرضَهم على ذلك، وأنذرَهم بأن (قُطز) سيجردُهم من أملاكِهم وأموالِهم ويُساوِيهم بالعامَّةِ، وأنَّ فى ذلك إخلالًا بشَرفِهم، وإسقاطًا لحقوقِهم، ولن تقومَ لهم بعد ذلك قائمةٌ.

وأخذَ أولئك الأمراءُ يستعدُّون لذلك اليومِ الذى يُفَاتِحهُم فيه (المظفرُ) بالنُّزولِ عن مُمتلكاتِهم لبيتِ المالِ، وتشاورُوا طويلًا فيما يُقابلونه بِه عندما يحاولُ التنفيذَ، وكانوا مُوقنين بأنَّه سيأخذُهم بالشِّدةِ، فتهيَّئُوا لمقابلتِها بمثلِها ولو أفضَى بهم ذلك إلى قتلِه.

١٦ (قطز) يُهدِّدُ (بيبرس) لِتَخَاذُله، ثم يُقْنِعُه بالوقُوفِ مَعه لِقتَالِ أَعْدَاءِ الإسْلاَمِ:

وانتهى شىءٌ من خبرِهم إلى الملكِ (المظفرِ) فدعا الأميرَ (بيبرسَ) إليهِ وخَلا به وقالَ له: «اتَّقِ الله يا (بيبرسُ) فى دينِك ووطنك، إننا لسنا فى وقتٍ يكون لنا فيه أن نتنافسَ على المُلْكِ، فأمامَنا تَبِعَاتٌ جِسَامٌ[٣٠] نحوَ الأمةِ والمِلَّةِ. وقد تَرى كيفَ يُغِيرُ هؤلاء التتارُ المتوحِّشون على أطرافِ الشامِ وهُمْ قادِمُون إلينا. فإذا لم ننهَضْ لصدِّهم فسيكونُ مصيرُنا مصيرَ بغدادَ، وقد تعيَّن[٣١] علينا الجهادُ فى سبيل الله، فَلْنَمْضِ له ولْنُجْمِعْ عليه، ولا تُفرقنا المطامعُ والأهواءُ ولا الإحَنُ[٣٢] والعَداواتُ». فحاولَ (بيبرسُ) أن يَتنصَّل[٣٣] مما عُزِىَ إليه، فَبدَرهُ السلطانُ قائلًا:

(٢٨) **شغْبًا**: فتنة واضطرابًا وإخلالًا بالنظام.
(٢٩) **أغلظ له**: عَنَّفه واشْتد عليه فيه.
(٣٠) **جسام**: جمع: جسيم: عظيم.
(٣١) **تعيَّن**: تحتَّم.
(٣٢) **الإحن**: الأحقاد. جمع: إحنة.
(٣٣) **يتنصل**: يتبرأ.

KTABYEG.COM

«لا تُنْكِرْ ذلك بالقولِ يا (بيبرسُ)، ولكنْ أنْكِرْهُ بفِعْلك، واعلمْ أنِّى لو أردتُ قتلكَ لما أعجَزَنِى ذلك، ولكنِّى أضِنُّ برجلٍ مثلِك أن يُقتلَ فى غيرِ سبيلِ الله، وأريدُ أن أستبقِيَك ليومٍ مع أعدائِنا مشهودٍ، تكونُ لكَ فيه البطولةُ والفضلُ».

قال (بيبرسُ) وقد ظَهرَ الغضبُ فى وجهه: «أتهدِّدُنِى يا (سيفَ الدِّين)؟ فو الله إنِّى لأَقوى مِنْكَ ناصرًا، وأكثرُ جُنْدًا».

قال السلطانُ: «وإنّى والله لا أهابُ عدَدك، ولا أخشَى ناصرَكَ، ولو امتلأ الوادى بشيعتِك من مَنبَعِه إلى مصبِّه لرجوتُ الله أنَ ينصُرَنِى عليك، ويكفِيَنِى شَرَّك لو أُفْرِدْتُ وَحْدِى، فإنّ حَسْبِىَ الله، به حَوْلِى وقُوتِى، وهو نِعْمَ الوكيلُ!».

فأطْرقَ (بيبرسُ) مليًّا، فمضَى السلطانُ يقولُ: «إنّك جئْتَ إلىَّ وقد تقاذفَتْك[٣٤] بلادُ الله الواسعةُ، فضاقتْ عليكَ بما رَحُبَتْ. تسْتقِيلُنى[٣٥] فأقَلْتُك، وقبلْتُ عُذْرَك، وأدْنَيْتُك مِنْ مَجْلِسِى، واتخذتُك صفيًّا لى، لا أقطعُ أمرًا دونَك، وأقطعتُك من مالِ البلادِ لتقُومَ بخِدْمَتها، فقُلْ ماذَا تَنْقِم[٣٦] منِّى فَأُنْصِفَك مِنْ نَفْسِى؟».

فرفع (بيبرسُ) رأسَه وقال -وقد سكتَ عنه الغضبُ-: «إنى ما أنقِمُ منك إلا سُوءَ ظنِّك بِى».

- «إنَّك أنتَ الذى أفسدْتَ رأيى فيكَ، وإنِّى لمستعدٌّ لأعودَ لِحُسْنِ ظَنِّى بك إذا قمتَ بواجبِكَ نحْوَ دينِكَ وأمَّتِكَ».
- ماذا تريدُ منِّى أن أصنعَ لترجِع عن سوءِ رأيكَ فِىَّ؟
- ابسُطْ يدكَ فعاهدْنى أن تكونَ مَعِى على هؤلاءِ المؤتمِرين مِنْ شيعَتِك، الذين طالمَا شَبِعُوا من أموالِ الأمةِ، ثم بَخِلُوا عليها بالقليلِ حين تعرَّضَتْ سلامتُها للخطرِ.
- أعاهدُك بشرفِى ودينى أنَّنى أقاتلُ مَعك أعداءَ الإسلامِ التتارَ حتى تنتصرَ عليهم أو أُقتلَ دونَك، أما الأمراءُ الذين ذكرتَ فَشأنُكَ وشأنُهم، لا أعينُك عليهم ولا أُعينُهم عليكَ.

فمدَّ السلطانُ يدَه فصافحَه قائلًا: «حسْبى هذا مِنْك أنْ تقاتِلَ معى التتارَ وأن تكونَ بِصَدَدِ الأمراءِ كَفافًا[٣٧]، لا علىَّ ولا لى». وحلَّفه على ذلِكَ، فحلَفَ له (بيبرسُ).

١٧ (قطز) يُقْنِعُ أمَراءَ المَماليك بِتَنْفِيذِ الفَتْوَى والتَّنازُلِ عَنْ فَائِضِ أَمْوالِهم لِلْجَيْشِ:

ولم ينَم الملكُ (المظفرُ) ليلتَه تلك، فقد قضاها ساهرًا يفكر فى طريقةٍ يحمِلُ بها الأمراءَ على تسليم ما عندهم من ذهبٍ وفضةٍ، وفى الصباحِ دعا وزيرَه (يعقوبَ بنَ الرفيعِ) وتشاورَ معه طويلًا، ثم اتفقَا على أمرٍ نَوى التصميمَ عليه.

ودعَا الأمراء المماليكَ إلى مجلس القلعةِ، فلما حضَرُوا جميعًا دخلَ عليهم (المظفرُ) فقامُوا له وحيَّاهم جميعًا، ثم بسطَ لهم القضية التى دعَاهم من أجْلها، وكان مما قَاله لهم: «إنَّ الأمراءَ هم جنودُ الدولةِ، جاءُوا إلى هذه البلادِ من أسواقِ الرقيقِ لا يملكُون شيئًا، فغَنُوا من أموالِ الأمةِ، وامتلأتْ خزائِنُهم بالذهبِ والفضةِ، حتى إنَّ فيهم لَمَنْ يُجَهِّزُ بناتِه بالجواهرِ واللآلِئ، ويتخذُ الإناءَ الذى يَسْتَنْجِى به[٣٨] فى الخَلاءِ مِنْ فِضَّةٍ، ويُرصِّعُ مداسَ زوجتِه بأصنافِ الجواهرِ، كلُّ ذلك والأمةُ صابرةٌ عليهم راضيةٌ بهم؛ لأنَّهم يقُومون لها بمهمةِ الدفاعِ عن بلادِهم، وتوفيرِ أسبابِ الأمنِ لها. وهَا هو ذا العدوُّ على الأبوابِ قد أقبلَ يريدُ القضاءَ عليها وعلى دينِها وشرفِها وعِرْضِها ومالِها، وليس فى بيت المال ما يكفِى لتجهيزِ الجيشِ اللازمِ لِرَدِّ العدوِّ، فكان علينا أنَ نأخُذَ من أَمْوالِ الأمَّةِ لبيتِ المالِ؛ إذ لا سبيلَ لنا غيرُ ذلِك، ولكنَّ الشرعَ الشريفَ أفْتَانا بأنَّه لا يجوزُ لنا ذلك حتى نَنْزِلَ نحنُ - معشرَ الأمراءِ - عمَّا احْتَجَنَّاهُ[٣٩] من أموالِ الأمةِ، ونردَّ لبيتِ المالِ ما كَنَزْنا من ذهبٍ وفضةٍ وجواهِرَ وغيرِها مما يفضلُ عن حَاجتنا، فإذا أحصَينا ذلك ولم يكفِ

(٣٤) تقاذفتْك: ترامت بك وتباعدت.
(٣٥) تستقيلنى: تطلب منى الصفح عنك.
(٣٦) تنقم: تعيب.
(٣٧) كفافًا: على قدر الحاجة. المراد: محايدًا.
(٣٨) يستنجى به: يتطهر به.
(٣٩) احتجنَّاه: جمعناه. المضاد: فرقناه.

KTABYEG.COM

كانَ لنا حينئذٍ أنْ نأخُذَ من أموالِ العامَّة، وإنِّى ما دعوتُكم الآنَ إلاّ لِتُساعدُونى على تنفيذِ حكمِ الشرعِ فىَّ وفيكُم ثُمَّ فى الأمةِ حتَّى نبرأ إلى الله من مظالمِنا، ونخرجَ للجهادِ فى سبيلهِ وقد رضِىَ عنا ورَضِينا عنه، فينصرنَا على عدُوِّنا ويُثبِّتَ أقدامَنا يومَ اللقاءِ».

كان الأمراءُ قد عرفُوا ما دعاهُمْ الملكُ (المظفرُ) من أجلِه قبلَ حضُورهم فعزمُوا على (بيبرسَ) أن يتولَّى عنهم مُحاجَّة السلطانِ، ولكن (بيبرسَ) اعتذَر لهم بضعفِ حُجتِه، وعدمِ طلاقةِ لسانِه، وقال لهم: إن الملكَ (المظفرَ) قويُّ البيانِ فاختارُوا مِنكم رجلًا أقوى منِّى بمُحاجَّتِه وإنِّى لا أُخالِفُكم فى أمرٍ تجتمعُون عليه». فقبلُوا عُذْرَه واختارُوا غيرَهُ ليتولَّى عنهُم الكلامَ.

فلما انتهى الملكُ المظفر من حديثِه انتدب له لِسانُ القومِ فقالَ له: «أتريدُ أنْ تجرِّدنا من أموالنا يا خُوَنْدُ[٤٠]؟».

قال السلطانُ: «كلَّا... بل أريدُ أن تتجرَّدوا عما يفيضُ عَنْ حاجتِكم ممَّا أخذتُموه من مالِ الأمةِ».

– أردْتَ أنْ تقولَ: إنَّ أموالنَا ليستْ لنا؟

– نعم. إنها ليستْ لكُم، وإنما هِىَ للأمَّةِ، وإلا فأَخبرونِى مِنْ أينَ جاءتْكُم..؟ فهل ورِثتموها عن آبائِكم، أو كسبْتُموها بالتجارة، أوْ أىِّ طريقٍ من طرقِ الكسبِ المشروعةِ؟

– حرامٌ عليكَ يا خُوندُ أن تَتْرُكَنا نموتُ جوعًا؛ لتَعِيشَ أنتَ وحدَكَ سُلطانًا على مصرَ ويخلوَ لك الجوُّ.

١٨ (قطز) يبدأُ بِنَفْسِه بالتَّنازُلِ عَنْ أمْوالِه لِلْجَيْشِ:

– إنكُمْ لن تموتُوا جوعًا فأنتم جنودُ الأمَّة وعليها إعاشَتُكم مِنْ صُلبِ مالِها، وها هُو ذَا سُلطانُها بينَكم «يُشيرُ إلى نفسِه» يَتَعهَّدُ لكم بإعاشَتِكم وإعاشَةِ أبنائِكم وأهْليكم بما يَكْفُل شرفَكم ويصُون حُرماتِكم، يقتطعُ ذلك لكم بالمعروفِ من بيتِ مالِ الأمةِ، وسأكونُ أوَّلَ من ينزلُ لبيتِ المالِ عما يملِك من ذهبٍ وفضَّةٍ، وهذِه حُليُّ سلطانتِكم – وأشارَ إلى صُندوقٍ كان قد وضَعه قُدَّامه – قد نزلَتْ عنها لبيتِ مالِ الأمةِ، وأُقسمُ لكم بالله إنِّى لن آخذَ من مالِ البلاد إلَّا ما يكفِينى، ولن يزيدَ نصيبى على نصيب أى فردٍ منْكم، أما قولُكَ يا هذا إنَّنى أريدُ أنْ يخلُوَ لى الجوُّ، فأنتم والله عُدَّتِى[٤١] وقوَّتِى، وكيفَ يعيشُ السلطانُ بغيرِ عُدَّةٍ وقوةٍ؟

١٩ الأُمَرَاءُ يَطْلُبُونَ (بيبَرسَ) فَيقُولُ لَهم: أَنتُمْ أحْرَارٌ فِى اتِّخَاذِ القَرارِ:

فانقطعَ مُتَكلِّم القومِ ولم يجِرْ جوابًا[٤٢]. فنظَرُوا إليه مُغْضَبينَ وصاحُوا به: «تكَلَّمْ! انطقْ!» فقال لهم: «والله لا أدرى ماذا أقولُ له، لقد أَوقَعنى (بيبرسُ) فى هذِه الورطةِ وخلَصَ هو منها سَالمًا». ونظَرُوا يتلمَّسون[٤٣] (بيبرسَ) فلم يجدوه بينَهم، فقالوا للسُّلطانِ: «أمهلْنا حتَّى نَرى رأينَا فيما ذكرتَ». فأجابَهم السلطانُ: «لا أمهلكُم أكثرَ من هَذا اليومِ فَتشاورُوا فيما بينَكم والآن إنْ شِئتُم، ولن تخرجُوا من هنا إلا عَلى شىءٍ».

وكان (بيبرسُ) قد سَبقَهم إلى القلعةِ، واتفقَ مع الملكِ (المظفَّرِ) أن يجلسَ وراءَ البابِ الذى دخَل منه السلطانُ بحيثُ يسمعُ حديثَهم وعليه جماعةٌ من حرسِ السُّلطانِ، فلما قَال القومُ: «نريدُ (بيبرسَ) لنرَى رأيه». قال لهم السلطانُ:

(٤٠) خوند: لقب للتعظيم.
(٤١) عُدَّتى: ما يتقوى به المحارب من سلاح وغيره.
(٤٢) لم يحر جوابًا: لم يرد.
(٤٣) يتلمسون: يطلبون.

KTABYEG.COM

«إنّ الأميرَ (بيبرسَ) قد اتفقَ مَعِى على ما أردتُ، وحلَفَ لى بذلِكَ، وهو الآنَ موجودٌ خَلْفَ هذا البابِ يسمعُ حدِيثَكُم».
فصاحُوا جميعًا: «لقد باعَنا بيبرس». وطلبوا دخولَه إليهم فناداه السلطانُ، فدخل (بيبرسُ) القَاعَةَ فَرَمقُوه[٤٤] بعيونٍ مُحْمَرَّةٍ وصاحُوا به: «بِعْتَنا للسُّلطانِ يا بيبرس!» فأجابَهم بيبرسُ قائِلًا: «كلَّا والله ما بعتُكمْ للسلطانِ، وإنّى غيرُ مسئولٍ عنْكُم، تعرفُون شأْنَكم معَهُ، وإنما عاهدتُ السُّلطانَ أنْ أقاتِلَ معه التتارَ، وتعهدْتُ له بأنَّنِى لا أعينُكُمْ عليه ولا أُعينُه عليْكم، وهذا التعهدُ لا يربِطُ غيرِى. أما أنتُمْ فأحرارٌ تَفْعَلُون ما شِئْتُمْ».

٢٠ امْتناعُ الأُمَراءِ عَنِ التَّنازُلِ عَنْ أمْوالِهِم:

فصاحَ القومُ جميعًا: «لا نُطيعُ السُّلطانَ، ولا ننزلُ له عنْ أموالِنا وأملاكِنا» ونظَرُوا إلى أبوابِ قاعَةِ العَواميدِ فوجدوها قد غُلِّقَت عليهم فاستقرُّوا فى مجالِسهم. وعند ذلك نهضَ السلطانُ من مجلسه وقَال لهم: «سأمهلُكُم ساعَةً تَتَراجَعُونَ فيها وحْدَكم لتَنْزلوا عمَّا عِنْدكم من أموالِ الأمة راضِينَ، قبلَ أنْ تَنْزِلُوا عنه صَاغِرين[٤٥]!» وأخذَ بيدِ صديقِه (بيبرسَ) فغادَرَ به القاعةَ من البابِ الخاصِّ.

٢١ (قطز) يُقَرِّرُ مُصادَرَةَ أمْوالِ الأُمَراءِ للمَصْلَحَةِ العامَّةِ:

وكان الملكُ (المظفرُ) قد دبَّر فرقةً من رجالِه الأشداء الأُمناءِ لِكَبْسِ بُيوتِ الأُمراءِ المماليكِ وكَسْرِ خزائنِهم وحمْلِ ما فيها من الذهبِ والفضةِ والجواهِرِ إلى بيتِ المالِ، وخصَّصَ كُلًّا منهم لبيتٍ من بيوتِهم، وأمرَهم أن ينتظروا إشارتَه بذَلك، فلما مضتِ الساعةُ ولم يتَّفقُوا على شَىْءٍ أشَارَ إلى رجالِه فانطلقُوا يُنفِّذون تدبيرَه. وما راعَهم إلا السُّلطانُ قد دخلَ إليهم يقولُ لهم: «انصرِفُوا إلى بيوتِكم، فقد نفَّذَ الله فيكُم ما أرادَ سُبحانَه». ونظرُوا فإذا أحدُ أبوابِ القاعةِ قد فُتِحَ، فجعلوا يخرجُون منه واجمِين، وإذا عُصْبَةٌ من رجالِ السلطانِ قد وقَفُوا خارجَ البابِ فقبَضُوا على رؤساءِ القومِ وتركُوا الباقين.

٢٢ فَرْضُ ضَرائِبَ عَلى الشَّعْبِ لأنَّ أمْوالَ الأُمَرَاءِ غَيْرُ كافِيةٍ:

وأحصَى ما جَاءَ من عندِ الأمراءِ فوجدَ أنه لا يكفِى لتقويةِ الجيشِ وتموينِه، فعند ذلِكَ أمرَ الملكُ (المظفرُ) بإحصاءِ الأموالِ وأخذِ زكاتِها من أربابِها، وبأخذِ كِرَاءِ[٤٦] شهْرَيْن من الأملاكِ والعقاراتِ المستأجَرَةِ، وبفرضِ دينارٍ على رأسِ كُلِّ قادرٍ من سُكانِ القطرِ المصرىِّ، فاجتمعَ من ذَلكَ فى بيتِ المالِ نَحْو (ستمائة ألف دينارٍ).
ولما انتهى الملكُ (المظفرُ) من ذلك عهدَ إلى وزيرِه (يعقوبَ بنِ عبدِ الرفيعِ)، وأتابكِهِ (أقطاىَ المستعربِ) أن يباشرا تقويةَ الجيشِ المصرىِّ بالأسلحةِ والعددِ وآلاتِ القتالِ، وتكثيرِ عدَدِه بتجنيدِ الشَّبابِ الأقوياءِ من أهلِ مصرَ، واستقدامِ العُربانِ والبدوِ وتجنيدِهم وتفريقِ الأموالِ فيهم، وأَمرَهُما بإنشاءِ المصانعِ الكبيرةِ لصُنْعِ الأسلحةِ والمجانيقِ وغيرِها من العُددِ الحربيةِ فى جميعِ أرجاءِ البلادِ، وبشراءِ الجيادِ العربيةِ العتيقةِ[٤٧]، والبغالِ القويةِ، والإبلِ الهجانِ[٤٨].

(٤٤) فرمقوه: نظروا إليه.
(٤٥) صاغرين: أذلاء خاضعين. المضاد: أعزَّاء – أعزة.
(٤٦) كراء: أجر.
(٤٧) العتيقة: الكريمة.
(٤٨) الهجان: أجودها وأكرمها أصلًا، وهى إبل سريعة.

KTABYEG.COM

٢٣ إنْشَاءُ دِيوَانٍ للتَّعْبئةِ العَامَّةِ للجِهَاد:

وأوعَزَ للشيخِ (عزِّ الدينِ بنِ عبدِ السلام) فأنشأَ ديوانًا كبيرًا للدعْوةِ إلى الجهادِ فى سبيل الله، يضمُّ إليه مَنْ يختارُهم من خطباءِ الجوامع، فيُلقنهم ما ينبغِى لهم أن يخطُبُوا الناسَ به على المنابر ليَدعُوهم إلى الجهادِ ويُبيِّنُوا لَهُم فضائِلَه، ويفصِّلوا لهم ما أنزَل التتارُ ببغدادَ وغيرِها من الخرابِ والدَّمارِ، وما اقترفُوه فيها مِنْ سَفكِ الدماءِ، ونَهْبِ الأموال، وانتهاكِ الأعْراضِ والحُرماتِ، وتهديمِ الجوامعِ والمساجدِ، وقتلِ الأطفالِ الرضعِ، والشيوخِ والعجائزِ، وبَقْرِ بطونِ الحواملِ، ويبعثُ منْ ذلك الديوانِ الوعَّاظَ يطُوفُون بالقُرَى يدْعُون أهلَها إلى الجهادِ، ويُوقدُون فى قلوبهم نارَ الحماسةِ لله والوطنِ. وكانَ الشيخُ (ابنُ عبدِ السلامِ) لا يُجِيزُ أحدًا من هؤلاءِ الخُطباءِ والوعَّاظِ بالانطلاقِ لعملِهم حتى يحفظَ سورتَى (الأنفال والتوبةِ) من القرآنِ عنْ ظهر قلبٍ. فكانَ من جَرَّاءِ ذلك أنْ صارتِ المنابرُ والجوامعُ والأنديةُ ومجالسُ القُرى تَعِجُّ بآياتِ القتالِ من القرآنِ، حتَّى كادَ الرجالُ والنساءُ والأطفالُ يستظهِرُونها حِفظًا.

٢٤ التَّتاريُرْسلُون رسُلهم لتَهْديد (قُطز):

وكانت الأخبارُ تَرِدُ باطِّراد تقدُّم التتارِ فى بلادِ الجزيرةِ يقصدُون الشامَ ومصرَ، كُلُّ ذَلِكَ والملكُ (المظفرُ) رابطُ الجأشِ، ساكنُ الأعصابِ، لا يُضيِّعُ من وقتِه لحظةً فى غيرِ الاستعدادِ. وفى خلالِ ذلك جاءَتْ رُسُلُ التتارإلى مصر، وكانوا بِضْعَةَ عشرَ رجلًا يرأسُهم خمسةٌ من كبارهم، يُحْسِنُون اللسانَ العربىَّ، ومعَهمْ صبىٌّ مُراهقٌ، وكان فيهم رجالٌ مخصوصُون للتَّجسُّس، ليعرفُوا مداخِلَ الحُصونِ ومخارجَها واسْتحكاماتِ المدينة والثُّغَرَ[٤٩] الضعيفةَ فيها، وقد جاءُوا بكتابٍ من (هولاكو) إلى الملك (المظفرِ)، فأمَرَ باستقبالِهم استقبالًا حسنًا ورتب جماعةً من عسْكرِه؛ ليقومُوا بشئُونهم وحَاجاتهم ويصحَبُوهم إلى كُلِّ موضِعٍ يحبُّون الذهابَ إليه. وقد عَجبوا لهذِهِ الحريَّةِ التى أعطيَتْ لهُمْ إلَّا واحدًا من رؤسائِهم الخمسةِ أمَرالملكُ (المظفرُ) أولَ ما قدمُوا فعُزل عن أصحابِه واعتُقلَ فى بُرجٍ من أبراج القلعَةِ، فلم يسْأل الباقُون عنْه لانهمَاكِهم[٥٠] فى تعرُّفِ قُوى الدفاعِ للدولة، والاطلاعِ على حُصونِ المدينة وأسوارِها وأبوابِها، حتَى إذا قَضَوا من ذَلك ما أحبُّوا أمَربهم الملكُ (المظفَّرُ) فاعتُقِلوا فى بُرجٍ آخرَ.

٢٥ (قطز) يَسْتَشِيرالأمراء فى هَؤلاء الرُّسُل:

واستشارَ السُّلطانُ الأمراءَ فيما يُجيبُ التتارَبه، فأشَارمُعظمُهم أن يُرسلُوا إلى (هولاكُو) جوابًا لطيفًا يَتَّقُون به شرَّه، ويخطبُون[٥١] به وُدَّهُ ويَتفِقُون مَعَه على مالٍ يُؤدونَه إليه كُلَّ سنةٍ، لِئَلا يهجُمَ على بلادِهم فَيُهلكَ الحرْثَ والنَّسل[٥٢] وقالوا: إنَّه لا فائِدَةَ من مُقاوَمَةِ التتارِ، وإنَّ اللينَ مَعَهم أنفَعُ من الشّدَّةِ. فغضِبَ الملكُ (المظفر) غَضبًا شَديدًا، واحمرَّ وجْهُه حتى كادَ الدَّمُ يَنْبثِقُ منه. ثم قامَ إلى كبيرِالجماعَةِ، فاختطفَ منه سيفَه فكسَره على رُكْبته ثم ألقاهُ أمَام صاحِبِه، وهو يقولُ: «إنَّ السيفَ الذى يَجبُنُ حاملُه عن القتال لخليق أنْ يُكسرَ هكذا ويُلقَى فى وجهِ صاحبِهِ».

(٤٩) الثُّغَر: جمع: ثغرة، وهى الفتحة التى يُخَافُ منها هجوم الأعداء.
(٥٠) انهماكهم: انشغالهم. المضاد: تفرغهم.
(٥١) يخطبون: يطلبون.
(٥٢) الحرث والنسل: الزرع والولد.

KTABYEG.COM

٢٦ (قطز) يأمر بقتل رسل التتار تخويفًا لهم:

أمرَ بإحضار الرُّسُلِ فأحضِرُوا بينَ يَديهِ، فقال لرجَالِه: «اصنعُوا بِهم ما أمَرْتُكُم به». فخرجُوا بهم، ونُودِى بإمْرارِهم فى النَّاسِ، فخرَجَ الرجالُ والنساءُ والصِّبيانُ لمشاهَدتِهم فى مَوْكبٍ عظيمٍ، وقَدْ أُرْكِبُوا على جمالٍ شُدُّوا إلى أَقْتابها(٥٣) بالحبالِ، ووجوهُهم إلى أذْيالِها: ما عَدا الرسولَ المفردَ المعزولَ وحْدَهُ؛ فقدْ قُيِّدَ وحُمِلَ على مَحفَّةٍ(٥٤) ليُشاهِدَ ما يُفعَلُ بأصْحابِه، وخرجَ الموكِبُ بالطبولِ من القلعَةِ، وسارتْ جموعُ النَّاسِ حولَهم يصيحُون ويضْحكُون ويصفّقُون بأيديهم لهوًا ومَرحًا، حتى وصَلُوا سوقَ الخيلِ تحتَ قلعةِ الجبلِ فقتلُوا أحدَ الرُّسل، ولما بلغُوا ظاهِرَ باب (زُوَيلَة) قتلُوا الثانِىَ، وقَتلُوا الثالثَ بظاهِر (باب النصرِ)، والرابعَ (بالرَّيْدانيَّة)، ثم أُنزِل الباقُون فقُتلوا دَفعةً واحِدةً.

٢٧ اسْتعراض لِقُوة جَيْش المسلمين أمام رسول التتار:

وأمرَ السلطانُ فأُقِيمَ عَصْرَذلك اليوم استعراضٌ عظيمٌ للجيش المصرىِّ فى ميدانِ الريْدانيَّة حيثُ نُصِبَ للمَلكِ سُرادقٌ فى مرتَفَع جلسَ فيه على كرسيهِ يحيطُ به كبارُ الأمراءِ والوزراءِ. فأقبلتْ فُرسانُ الجيشِ فرقةً بعدَ فرقَةٍ يتقدَّمُها أميرُها حاملًا لواءَه وهُمْ جميعًا شاكُو السلاحِ(٥٥)، فكلَّما مرَّتْ فرقةٌ أشارَ أميرُها بالتحيّةِ، فقامَ الملكُ المظفرُ وأوْمأَ بيده ردًّا على تحيَّتِه، ثم مرّتْ فِرقُ المُشاةِ وهُمْ شَاكُو السِّلاح حتى غُصَّ(٥٦) بهم الميدانُ، وأقبلتْ وراءَهم فرقةُ المجَانيقِ محمولةً على عجلاتٍ تجرُّها البغالُ القويةُ، ثم مَرَّتْ فِرقُ الهجَّانةِ على ذُللهم(٥٧) وعليْهم العمائِمُ الصفراءُ، ثم مَرَّ كِبارُ الأمراءِ فَامتَطَوْا جيادَهم وتَبارَوْا سبعةَ أشواطٍ فى الميدانِ، ولما انتهى الشَّوطُ السابعُ ترجّلُوا، وقصدُوا السُّرادِقَ فصافحَهم الملكُ وأجازَهم.

ونهضَ الملكُ (المظفَّرُ) بعدَ ذلك ونزلَ من السُّرادق وامتطَى جوادَه الأبيضَ تحرسُه كوكبةٌ من الفُرسانِ، وتَحَرَّكَ رِكابُهُ إلى قلعةِ الجبلِ يخترقُ الجماهيرَ المحتشِدَةَ وهى تهتفُ له بالدُّعاءِ: «يعيشُ السلطانُ! يُديمُ الله أيامَه! يطولُ عمرُ المظفَّر!» حتّى إذا ما حاذَى السلطانُ بابَ القلعةِ أمرَ بالرسولِ التترىِّ فأطْلق بينَ يَدْيه وقالَ له: «أخبرْ مولاكَ اللعينَ بما شاهَدْتَه من بعض قوتنا، وقل له: إن رجال مصر ليسوا كمن شاهدهم من الرجالِ قبلَنَا».

ثم أمرَ وزيرَه (يعقوبَ بن عبدِ الرفيع) فسلَّم الرسولَ التترىَّ جوابًا مختومًا لـ (هُولاكو)، وأمرَ جماعةً من رجالِه ليحرسُوه ويُوصِّلُوه إلى الحدود، وهكذا قَطَع الملك (المظفَّرُ) أملَ أولئك الأمراءِ المشاغِبين فِى مُسالمةِ (هُولاكو) ووضعَهم أمامَ الأمرِ الواقِع.

٢٨ (قطزُ) يقيمُ جَبهة خَارجية من حكام الشام لِصَد التتار بَعْدَ الجَبْهة الدَّاخلية:

لم يكتفِ (المظفرُ) بإعداد الجيشِ المصرىِّ، وإكمالِ عَددِه ومُؤَنِه(٥٨) لملاقاةِ التتارِ، بل رأى أنْ يُقيمَ دُونَهم جبهةً قويةً من مُلوكِ بلادِ الشام وأمرائِها، وكان يعلمُ تخاذُلَهم وتَواكُلهم وتَقاعُسَهم عن قتالِ التتار وميلَهم إلى التسليمِ لـ(هولاكُو) والخضوعِ له، فكتَب إلى كُلِّ واحدٍ مِنْهم رسالةً يشرحُ لهُمْ فيها أنَّه جادٌّ فى العزْمِ على قتالِ التتارِ، وقد

(٥٣) أقتاب: جمع: قتب، وهو السرج الذى يوضع على ظهر البعير للركوب.
(٥٤) محفة: هودج بلا قبة.
(٥٥) شاكو السلاح: أسلحتهم تامة (مستعدون).
(٥٦) غُص: امتلأ.
(٥٧) ذلل: جمع: (ذلول)، وهى الدابة سهلة الانقياد.
(٥٨) مُؤنِه: أقواته. المفرد: (مئونة).

KTABYEG.COM

أعدَّ للتتارِ جُنودًا لا قِبَلَ لَهُم بها، وهو مصمِّمٌ على أن يُنقِذَ بلادَ الإسلامِ منهم، ويُطهِّرَها من رِجْسِهم، وأنه يعتبرُ بلادَ الشام حُصونَ مصرَ الأمامية، وأنَّ وقُوعَها في أيدى التتارِ يُعَرِّضُ سلامةَ مِصْرَ للخطرِ، ويؤكِّدُ لَهُمْ فيها أنَّه لا مَطمَعَ له فى مُلْكِ الشام، وسيتركُ بلادَ الشَّامِ لِملوكِها وأُمرائِها المسلمينَ، وإنَّما غايتُه أنْ يُساعدَهم على حِفظِها من السقوطِ فى أيدى الكَفرةِ الفَجَرةِ.

٢٩ تَهديدٌ لِكُلِّ مُقَصِّرٍ أو خَائنٍ فى الدِّفَاعِ عَنِ الإسْلام:

ويقولُ فيها: إنه وإن اعترفَ أنَّ بلادَ الشامِ لملوكِها إلَّا أنّه لنْ يَسمحَ لأحدٍ منهم أنْ يستَسْلمَ للتتارِ، بَلْهَ[٥٩] أنْ يُظاهِرَهم[٦٠] على إخوانِهم المسلمين، وأنَّ مثَلَه ومثَلهم ومثلَ التتار كمثلِ مَنِ اشتعلتِ النارُ فى بيتِ جارِه الأدنى فعليْه أنْ يَسْعَى لإطفائِها وليس لجاره أنْ يقولَ له: لا شأن لكَ بِدَارِى، ويُصرِّحُ لهم فِيها أنه سيُعاقِبُ من يُمَالِئُ الأعداءَ منهم بقتلِه وتوريثِ بلادِه لمنْ هو أحقُّ بها منهُ ممن قاتَلَ التتارَ مِنْ ملوكِ الشَّامِ، وإنه إذَا لمْ يستَطِعْ أحدهُم الوقوفَ فى وَجْهِ العدُوِّ واضْطرَّ للنجاةِ بنفسِه، فعليه أنْ يلحقَ بالديارِ المصريةِ حيثُ يجدُ منْها التَّكْرِمَة والحفاوةَ حتَّى يحينَ الوقْتُ لتحركِ الجيوشِ المصرية فيُقاتِلَ معَها عدُوَّ الجميع، ومَنْ لمْ يفعلْ ذَلِكَ وتأخَّرَ لغيرِ عُذْرٍ قاهرٍ، فإنَّه يفْقدُ بِلَاده ومُلكَه عندمَا يتمُّ إجلاءُ التتارِ عنْها بسيوفِ المصريين. وما اكتفَى السلطانُ كذلِك بهذِه الرسائل حتّى سيَّرَ إلى بلادِ الشَّامِ جماعةً من الشاميِّين المقيمينَ بمصرَ ليحدِّثُوا أهْلَ بِلادِهم بما أعَدَّ الملكُ (المظفرُ) من الجيوشِ الإسلاميَّةِ العظيمةِ لردِّ غاراتِ التتارِ وإجلائِهم عن بلادِ المسلمين.

٣٠ تَكرِيمُ (قُطز) لملوك الشَّام الَّذِين انْضمُّوا إلى مصر لِقتال التَّتار:

ولما اشتدَّتْ هجماتُ التتارِ على بِلادِ الشامِ لحقَ بمصرَ كثيرٌ مِنْ ملوكِها الذين آثرُوا الانضمامَ إلى الملكِ (المظفَّر)؛ لِيقَاتِلُوا التتارَ معَه، فأكرَمَ السُّلطانُ وِفَادتَهم، وجعلهمْ فى بطانَتِه يستشيرهُم فى كبارِ الأمورِ، ويُشْرِكهم معَهُ فى تَبِعاتِ الجهادِ فى سبيلِ الإسلامِ، وأمَّرَ كُلًّا منهُم علَى مَنْ قَدِمَ معه من مماليكهِ وجُنودِه إلى مصرَ، وضمَّ إليه عَددًا من الجنود المصريين، فكانوا تحتَ قيادَتِه، ولحِق آخرون ممنْ كَتَبَ الله عليْهم الذُّل فى الدُّنيا والخِزْىَ فى الآخرة بـ(هُولاكُو)، حتّى كان فِيهم من أعانَه، وقَاتَلَ المسْلمينَ معَه!!!

(٥٩) بله: كيف. (٦٠) يظاهرهم: يناصرهم.

KTABYEG.COM

الفصل الرابع عشر

معركـةُ (عَـيْنِ جَالُـوتَ)

ملخص أحداث الفصل

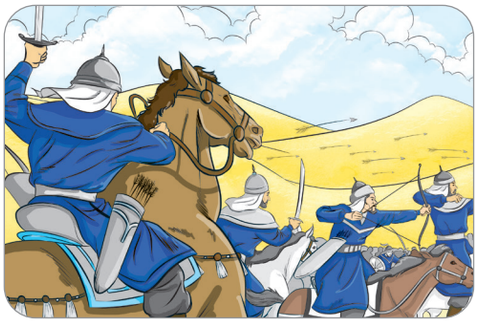

- وتَحرَّكَ الجَيْشُ لحربِ التَّتارِ في رمَضانَ إلى الصَّالحيةِ.
وصَل (بيبرس) إلى (غَزَّة)، ووافاهُ السُّلطانُ، ثم (جُلَّنار)، وتوجَّه السُّلطانُ إلى الفرنج الصليبيينَ في (عكا)، وطَلَبَ مِنهُم أن يلتزمُوا الحياد، ثم خَرجَ الجيشُ مِنْ (عكا) إلى (عَينِ جَالوت).
وتَمَّت المواجَهةُ بيْنَ الجيشين، وغابَ (هُولاكو) بِسَبَبِ مَوْتِ أخِيه، وأنابَ عَنْه قائِدَه (كتبغا) واشْتعَلتِ المعركةُ، وضحت جلنار بحياتها لإنقاذ قطز وهي في ملابس فارس ملثم.
حَمَلها السلطان وَهِيَ تَلفظُ أنْفَاسَها الأخِيرةَ وهُوَ يَقولُ: (واحَبِيبَتاه)!! ولَكِنَّها قالت له: بَلْ قُلْ: (وا إسْلاماه!!)
- شَاع خَبرُ اسْتِشْهادِ (جُلنار) في الجَيْش فأثارَ فيهم الحَماسَةَ، وتَقدَّم أحدُ الأمراءِ (جمال الدِّين آقوش) وطعنَ قَائِدَهُم طعنةً قَضَتْ عليه؛ مما ألقى الرُّعبَ في صُفوفِ التَّتار، وأخذُوا يتَقَهْقَرُون، وانتهَت المعركةُ بالنَّصْرِ المبينِ عَلَى التَّتار.

عرض الأحداث

١ مَهَامٌّ ضَخمةٌ يَقُومُ بها (قطز) استعدادًا للمعركة:

قَضَى الملكُ المظفرُ عشرةَ أشهرٍ من مُلكِه لم يَعرِفْ للراحةِ طعمًا، ولم ينمْ إلا غِرارًا، بل ملأ ساعاتِها كلَّها بجهودٍ تَنُوءُ بها العُصْبةُ[١] أُولو القوة. فقد كان عليه أنْ يُوطِّدَ أركانَ عرشِه، بين عواصفِ الفتنِ وزعازعِ[٢] المؤامراتِ، ويُدبِّرَ مُلكَه، ويقضِيَ على عناصرِ الفَوْضَى والاضطرابِ، ويضربَ على أيدِي المفسدِين والدسَّاسِين[٣]، ويقبضَ بيدٍ قاهرةٍ على أزِمَّةِ السياسةِ الجامِحةِ، ويُعالجَ الأمَراءَ المماليكَ، ويستعملَ مع بعضِهم اللينَ ومعَ آخرينَ الشدَّةَ، وكان عليه أن يُقوِّيَ الجيشَ، ويُضَاعفَ عَدَدَهُ، وأسلحتَه وعُدَدَه، ويجمعَ له المؤنَ[٤] والذَّخائرَ والأقْواتَ، ويُحصِّلَ لذلك كلِّه الأموالَ الكافيَةَ، وكان عليه أن يُسكِّنَ القلوبَ الوَجِلَةَ[٥] من قُدوم التتارِ، وينفخَ فيها روحَ العزمِ على مُقاوَمَتِهم على كثرةِ المخذِّلين من الأمراءِ، المعوِّقِينَ عن قتالِهم، الداعِينَ إلى مُسالمَتِهم والخضوعِ لهم، ولولا ما خصَّه اللهُ به من قُوةِ البنيةِ، ومتانةِ الأعصابِ، ومضاءِ[٦] العزيمةِ، وصَرامةِ الإرادةِ، وصدقِ الإيمانِ، والعقيدةِ القويةِ بأنَّ الله قد هيأَهُ وأعدَّه للقيامِ بكَسْرِ التتارِ وطردِهم من بلادِ المسلمينَ، لما استطَاعَ أنْ يُنْجِزَ في بِضعَةِ أشهرٍ ما يعجِزُ غيرُه عن القيامِ ببعضِه في بِضْعِ سنواتٍ، فقد خلقَ الجيشَ المصريَّ خلقًا جديدًا، ونفخَ فيه رُوحَ الفداءِ والاستماتةِ في الدفاعِ عن الدِّين والوطَن، وأفاضَ عليه من شجَاعتِه وحماسَتِه، فإذا هو يَتَوقَّدُ حماسةً للقتالِ، ويحِنُّ للجهادِ في سبيلِ الله، وقد استطاعَ أن يُنزِلَ السكينةَ والطمأنينةَ في قلوبِ سوادِ الناسِ[٧] بعد أنْ كانت تَرْجفُ هَلعًا من ذكرِ التتارِ، وأن يبذُرَ فيها الثقةَ واليقينَ بأنَّ مصرَ ستفلحُ في ردِّ غاراتِ التتارِ عنْها، بل طردِهم من بلادِ الشامِ، كما أفلحتْ من قبلُ في ردِّ الصليبيِّين على أعقابِهم.

٢ (جُلَّنار) تَقِفُ مَع زَوجِهَا (قطز) تُشجِّعهُ وتُخَفِّفُ مِنْ أعْبَائِه:

وكانت زوجتُه وحبيبتُه السلطانةُ (جُلَّنارُ) تشدُّ أزرَه في ذلك كُلِّه وتشجِّعُه على المُضيِّ في هذا السبيل الوعْر[٨]. فكانتْ تسهرُ الليلَ معَه، وتُشاطرُه همُومَه وآلامَه، وتمسحُ بيدِها الرقيقةِ شكْواه، كلَّمَا ضاقَ صدْرُه بتخاذُلِ الأمراءِ عن

(١) العصبة: الجماعة. الجمع: (عصائب).
(٢) زعازع: رياح شديدة. المفرد: (زعزع).
(٣) الدساسين: الذين يدبرون الدسائس للوقيعة بين الناس. المفرد: دساس.
(٤) المؤن: الأقوات.
(٥) الوجلة: الخائفة. المضاد: المطمئنة.
(٦) مَضاء: نفاذ وقوة.
(٧) سواد الناس: عامة الناس.
(٨) السبيل الوعر: الطريق الصعب.

KTABYEG.COM

طاعتِه وَنَيْلِهم منه فى مَغِيبِه، وَنِفَاقهم له فى مَشهدِه، وإلقائهم العَواثِيرَ[٩] فى طريقِه. وكان ربما أنساهُ انهماكهُ فى عملهِ الدائبِ طَعامَه وشرابَه فعُنِيَتْ بتقديمهما بنفسِها إليهِ، وإذا أنهكه السَّهرُ فى أعقابِ الليلِ، قامتْ إليه، فأخذتْ بيدِه وقادَتْه إلى فراشِه، ليأخذَ نصيبَه مِنْ نومِه وراحَتِه. وكانتْ لا تفتأُ تملأُ قلبَه ثِقةً بالفوزِ فيما نَدَبَ نفسَه للقيامِ به، فيزدادُ يقينُه ويتضاعفُ إيمانهُ، وكانتْ تقولُ له: «إنِّى سأخرجُ معكَ إلى ميدانِ القتالِ، لأرى مَصَارعَ الأعْداءِ بعَينى، فيَشفى ذلك صَدْرى» فيقولُ لها: «أخشَى عليكِ يا حبيبَتِى مِنْ سهامِهم»، فتقولُ له: «لن أخْشى على نفْسِى ما لا أخْشَاهُ عليكَ، ولكَنْ تطْمَئنَّ علىَّ سأكونُ وراءَ الجيشِ فى مأمَنٍ من سِهَامِهم وكَرَّاتِهم».

– أما تخافينَ أن يَخْلُصوا[١٠] إليكِ أثناءَ الكرِّ والفرِّ، فتقَعِى أسيرةً فى أيدِيهم؟

– أنا ابنةُ (جلالِ الدِّين) لا يخلصُون إلىَّ وجَوادِى معِى ينجُوبِى منْهم، أما تذْكرُيا (محمودُ) أيَّامَ كُنَّا نتبارَى على جوادَيْنَا، فتسبقنى حينًا وحينًا أسبقك؟

فيضحكُ الملكُ (المظفَّرُ) ويُعانِقُها قائلًا: «أجلْ أذكُرذلك يا (جهادُ) كيف أَنْسَى تلك الأيامَ السعيدةَ؟».

٣ اندمَاجُ كُلِّ طَبقَاتِ الأمةِ فى المعْرَكَةِ:

ورأى الملكُ (المظفرُ) عندما انسلخ[١١] الشهرُ العاشرُ من حُكمِه أن قد تكامَلَ جيشُه وأصبحَ كافيًا بحولِ الله وقوتِه لملاقاةِ التتارِ، فأرادَ أنْ ينتظِرَ بهم شهرَ رمضانَ، حتى إذا انقضَى تحرَّك بجيشِه لقتالِهم، ولكنَّ حركاتِ التتارِ صَوْبَ الديارِ المصريةِ كانتْ أسْرعَ مِنْ أن تدَع له انتظَارشهرِ رمضَانَ حتى ينقضِىَ. فقد ورَدَتِ الأنباءُ بأن طلائِعَهُم قد بلغَتْ (غزَّة وبلدَ الخليلِ)، فقتلوا الرجالَ. وسَبَوا[١٢] النساءَ والصبيان، ونهبُوا الأسواقَ، وسلبُوا[١٣] الأموالَ، وارتكبُوا الفظَائِع كعادَتِهم، فلمْ يسَع السلطانَ إلاَّ العزْمُ على الإسراعِ لملاقاتِهم والتعجيلِ بالخروج.

وكان شهرُرمضانَ قد دَخَلَ، وصامَ الناسُ بضْعَةَ أيام منهُ، حِينَما نُودِىَ فى القاهرةِ وسائرِمُدنِ القطرِالمصرىِّ وقُراه، بالخروجِ إلى الجهادِ فى سبيلِ الله، ونُصرةِ دينِ رسولِ الله ﷺ، تردَّدَ هذا النداءُ العظيمُ فى جميع أرجاءِ القُطرِ، فخالطَ الناسَ شعورٌعجيبٌ لم يعهدُوا[١٤] له مثيلًا من قبلُ، وأحسُّوا كأنهم خَلْقٌ آخرُ غيرُ ما كانوا، وأنَّهم يعيشُون فى عَصْرٍ غيرِعصرهم ذاك – فى عهدٍ من عهودِ الإسلام الأُولى حينَ كان الصحابةُ –رضْوانُ الله عليهم– يُلبُّون دعوةَ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلام، فَيَنْفِرونَ خِفَافًا[١٥] وَثِقَالًا[١٦]، ويُجاهدُون معَه المشركِين، ويبتغُون إحْدى الحسنَيْن: النصْرأو الشهادَة، حتى يجعلُوا كلمةَ الذين كَفرُوا السُّفْلَى، وكلمة الله هى العُليا.

وطغَى هذا الشعورُ على جميع طبقاتِ العامةِ، حتّى كَفَّ الفَسَقَةُ عن ارتكابِ معَاصِيهم، وامتَنع المدمِنُون عَنْ شُرْبِ الخمورِ، وامتلأتِ المساجدُ بالمصَلِّينَ، ولم يبقَ للناسِ فى البيوتِ والأنديةِ والمساجدِ والطرقاتِ مِنْ حديثٍ إلا حديثُ الجِهادِ!

وأمرَ الملكُ المظفرُ الأمراءَ والقوادَ بدعوةِ أجنادِهم، وإعدادِهم للمسيرةِ إلى الصالحيَّة وأن يُضْربَ بالمقارعِ[١٧] كُلُّ من وُجِدَ مُخْتَفِيًا مِنْهم، وتَقدَّمَ هو بالمسيرِ، حتى نزلَ بالصالحيّةِ ينتظرُتكامُلَ الجنود.

٤ تَوْبيخُ (قطز) للأمَراءِ المتَخاذِلين عَنِ القِتَالِ حَتَّى انْضَمُّوا إليه:

فلمَّا تكاملَت طلَبَ الأمراءَ، وكان قد أنِسَ ازْورَارًا[١٨] من جانبِهم، وميلًا إلى القعودِ والتخلُّفِ، فتكلَّم معَهم فى الرحيلِ للقاءِ العدوِّ، فأبَى ذلك عليه جماعةٌ كبيرةٌ من الأُمراءِ، كانوا قد تعاقَدُوا على عِصْيانِ الملكِ (المظفر) واعتذَرُوا له بأنَّ الرأىَ هُوأنْ يبْقَوْا هُنالك حتّى تأتِىَ جموعُ التتارِفيصدُّوها عن البلادِ، فغَضِبَ الملِكُ غَضبًا شديدًا حتى انعقدَ لسانُه ولم يستطعِ الكلامَ بُرْهةً من الزمَنِ، ثم انفجَرَيُخاطبُهم قائلًا: «بئسَ الرأىُ الضَّعيفُ رأيُكم! أمَا والله ما حملَكُم على هذا إلا الجبنُ والهلعُ من سيوفِ التتارِأن تقطعَ رقابَكم هذِه التى سَمِنَتْ من أموالِ الأمةِ! ألمْ تعلمُوا يا أمراءَ السُّوءِ أنَّهُ ما غُزِىَ قومٌ فى عُقْرِ[١٩] دارهم إلا ذَلُّوا؟ يا أمراءَ المسلمينَ، لكُمْ زمانٌ تأكلُون أموالَ بيتِ المالِ، وأنْتم للقتالِ كارِهُون، وما أشبَهَ الليلةَ بالبارحةِ! وما أشبَهكم بأولئِكَ المنافِقين فى عهدِ رسولِ الله ﷺ، إذ يقولُ الله فيهم: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا[٢٠] وَلَأَوْضَعُوا۟[٢١] خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ

(٩) العواثير: العقبات. المفرد: (عاثور).
(١٠) يخلصوا: يصلوا.
(١١) انسلخ: مضى وانتهى.
(١٢) سبَوا: أسروا.
(١٣) سلبوا: اغتصبوا، أخذوا ظلمًا.
(١٤) يعهدوا: يعرفوا.
(١٥) خفافًا: المراد: نشيطين أو مشاة.
(١٦) ثقالًا: المراد: ركبانًا أو معهم أسلحتهم.
(١٧) مَقَارِع: مَضَارب. المفرد: مقرعة.
(١٨) ازورارًا: انحرافًا وبعدًا. المضاد: استقامة.
(١٩) عُقر: وسط. (٢٠) خبالًا: هلاكًا.
(٢١) أوضعوا: أسرعوا.

KTABYEG.COM

ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾!(*) والله لأَتَوَجَّهَنَّ بمنْ معى لقتالِ أعداءِ الله، فمن اختارَ الجهادَ منكم فلْيَصحَبْنى، ومن لم يشأ فليرجعْ إلى بيتِه غيرَ مأسُوفٍ عليه، فإنَّ الله مُطَّلعٌ عليه، وَتَبِعةُ حريمِ المسلمِينَ فى رقابِ المتأخِّرينَ!

ولم يكَدْ يتمُّ كلامَه حتى أشارَ على الأمراءِ الذين ثبتُوا مَعَه على رأيه بأنْ يعتزِلُوا ناحيةً، وطلبَ منهم أن يُبايعُوا على المسيرِ لجهادِ التتارِ، فبايعُوه على ذَلك حتى الموتِ، فما وَسِعَ الباقين إلا الموافقةُ، فأخذُوا يتسلَّلون واحدًا بعدَ واحِدٍ، فيبايعُونه على المسيرِ حتَّى لَمْ يبْقَ منهم أحدٌ إلا بايَعَ.

٥ (قطز) يَضَعُ خُطَطَهُ الحربية بالتَّشاوُرِ مَع قُوَّادِه:

وأمسَى الليلُ والصالحيةُ مدينةٌ كبيرةٌ من المضاربِ والخيامِ يتوسَّطُها المخيَّمُ السلطانىُّ. ولم تنقطعْ حركة الجمالِ والبغالِ تحملُ المؤنَ والذخائرَ والأثقالَ، فيتلقَّاها الرجال المكلَّفُونَ بذلك وأصْدرَ الملكُ (المظفرُ) أوامِرَه بأن يأخذَ الجنودُ قِسْطَهم من النومِ والراحةِ، ورتَّبَ طوائفَ كبيرةً من الجنودِ ليسهَرُوا على بُعْدٍ من حُدودِ الجيشِ، ولاسيَّما فى الجهةِ الأماميةِ نحوَ الشامِ، حتى لا تأتِىَ طلائعُ العدُوِّ فتُبِيدَ المعسكرَ على غِرَّةٍ(٢٢)، ويقومُ على المخيَّمِ السلطانىِّ مجازٌ(٢٣) تحرسُه فرقةٌ من الحرسِ المَلكىِّ ولا يُؤْذَنُ لجندىٍّ من غيرِ الأمراءِ أن يمرَّ فيه. وكان مع الملكِ (المظفَّرِ) فى مُخيَّمِه الأمير (بيبرس) والوزيرُ (يعقوبُ بنُ عبدِ الرفيعِ) و(الأتابكُ أقطاىُ المستعربُ)، وعلى مقربةٍ منه مضاربُ مُلوكِ الشامِ اللاجئينَ. وكان السلطانُ يتشاورُ مع هؤلاءِ فى رَسْمِ الخُطَطِ للهجومِ على العدُوِّ فكان يعرضُ الرأىَ فيناقِشُونَه فيه، فيستمعُ إلى اعتراضاتِهم واقتراحاتِهم بانتباهٍ شديدٍ، فيردُّ على هذا برفْقٍ، ويتلقَّى رأىَ هذَا بالقبولِ والاستحسانِ، ثم يستخلصُ من ذَلِكَ كلِّه الرأىَ الَّذى يُصمِّمُ عليه بعدما أشْعَرهمْ جميعًا بأنَّ الرأى رأيُهم وليسَ رأيَهُ وحْدَه، فلما انتَهَوا من ذَلك عرضَ الملكُ (المظفرُ) على الأميرِ (بيبرسَ) أن يأخذَ نصيبَه من النَّوْمِ، وأشارَ على الآخرينَ بمثلِ ذَلك وقالَ لهم: «إنَّكُم رُبَّما لا تَذُوقون النومَ غدًا ومساءَ غدٍ»، فشكرُوه وانصرفُوا إلى مخادِعِهم إلا أتابكَه الأميرَ (أقطاى المستعربَ) فقد بَقِىَ مع السلطانِ.

٦ حِوَارٌ سَاخِنٌ لاخْتبارِ مَدَى إخْلاصِ (بيبرسَ) وَشَجَاعَتِه:

وبعدَ أنْ سادَ الصَّمْتُ بينَهما بُرهةً شكا إليهِ السلطانُ مِنْ تخاذُلِ الأمراءِ فى مثلِ ذَلك الوقتِ الحرجِ، ونَعى عليهم(٢٤) غرامَهم بالخلافِ والمُكابرةِ وقلَّةَ شُعورِهم بالتَّبِعةِ الملقاةِ على عواتقِهم فى دفْعِ الأعداءِ المتوحِّشينَ عن الوطَنِ وإنقاذِ بلادِ الإسلامِ منهم.

فقالَ له الأتابكُ: «هوِّنْ عليكَ يا مولاى فإنَّ فى مضاءِ عزْمك ما يأخذُ المسالِكَ على تَخَاذلِهم، وقد فَعَلُوا ذلك مِرارًا فما لَبِثوا أن انْصاعُوا لأمرك ونزلُوا على حُكمِكَ فاحتمِلْ ذلك منْهم، فأنتَ أهلٌ للاحتمال».

قال السلطانُ: «إنِّى قد أحتملُ هذا مِنْهم فى وقتِ السَّعَةِ والأمنِ، ولكنِّى لا أستطيعُ احتمالَهُ فى وقتِ الضيقِ والحربِ، وإنِّى سائِلُك، فلْتُجبْنى بدون مُوارَبةٍ(٢٥).. ما رأيك فى الأميرِ بيبرس؟».

قالَ أقطاى: «ليسَ المسئولُ عنه بأعْلمَ مِنَ السَّائل». فَبَدره(٢٦) السلطانُ قائلًا: «أُريدُ أنْ أعرفَ، أما يزالُ يتصلُ بالأمراءِ سِرًّا ويُحرِّضُهم علىَّ؟».

فأجابَه الأتابكُ: «ما أظنُّ ذلكَ يا مولانا، ومبلغُ عِلْمِى به أنَّه منذُ يومِ القلعةِ إذْ عاهَدَك على قتالِ التتارِ وَفَّى بما عاهدكَ عليه، فلمْ يُحرِّضْهُم على العصيانِ، ولم يُحاولْ أن يصرفَهم عنه، وإذا كانَ فِيهم وسمعَ شيئًا من ذَلِكَ سكتَ ولم يشتَرِكْ معَهم».

قال السلطانُ: «ولكنَّ هذا السكوتَ هو الذى أتعَبنِى منْه يا أقطاى».

فقال الأتابكُ: «ولكنَّ مولانا قد رضِىَ هَذا السكوتَ منه».

فقال السلطانُ: «نعم قَدْ رَضِيتُه منه، ولكنِّى كنتُ أحسَبُه يرجعُ إلى صَوابِه فيما بعدُ، ويُخْلِصُ للأمرِ الذى نعملُ له، فلا يَدَعُ هؤلاءِ يتآمَرونَ على عِصْيانى بينَ سَمْعِه وبصرِه دُون أنْ يصُدَّهم عن ذلك بفعلٍ أو قولٍ، ألا تَرى معِى يا أقْطاى أنَّه لولا وجودُ (بيبرسَ) وحيادُه هذا لما اجترأَ أصحابُه هؤلاء على شَىْءٍ مما فَعلوه؟».

قال (أقطاى): «الأمرُ لمولانا السلطانِ، إذا شاءَ أنفَذْتُ أمْرَه فى أكبرِ رأسٍ يشتملُ عليه هذا المعسكرُ».

(*) سورة التوبة (٤٦ - ٤٨).
(٢٢) غِرة: فجأة. الجمع: غِرَر.
(٢٣) مجاز: مكان للعبور.
(٢٤) نعى عليهم: عاتبهم وأنَّبهم.
(٢٥) مواربة: إخفاء. المضاد: إظهار.
(٢٦) بدره: عاجله.

KTABYEG.COM

قال السلطانُ: «لا، يا أقطاى، لا نستغْنِى عن (بيبرسَ)، إنِّى لا أريدُ أنْ أحرمَ المسلمينَ شجاعةَ هذا الرجل وقوتَه. وقد رأيتُ منه انبعاثًا للخروج ورغبةً صادقةً فى قتالِ التتارِ، ولعلَّ الله ينصرُ بهِ المسلمين نَصرًا مُؤَزَّرًا[٢٧]».

وأشارَ السلطانُ على أتابِكه أن ينامَ قليلًا ليستريحَ، واضطجعَ هو على فراشِه فنامَ نومةً خفيفةً وكذلك فعلَ الأتابكُ.

٧ تَحَرُّكُ الجيشِ وبَدْءُ المَناوَشَاتِ ودخُولُ (غزَّة):

ولما كانَ الهزيعُ[٢٨] الأخيرُ من الليل هبَّ السلطانُ من نومِه، وأيقظَ أتابكَهُ، وأوعَزإليه[٢٩] أن يُصدِرَ الأوامرَ للعساكر بالسُّرَى[٣٠]، فهبَّ المعسكرُ كلُّه من نومه وأخذَ فى الاستعدادِ للمسير، وبينما هُمْ كذلك إذْ بلغَ السلطانَ تَلكُّؤُ الأمراءِ عن المسيرِ فلم يكترِثْ بهم، ولَم يقُلْ لهم شيئًا بل رَكِبَ هو وركبَ معه رجالهُ وقالَ: «أنا ألقَى التتارَ بنفسى!» فلما رأى الأمراءُ المتلكِّئُون ذلكَ مِنْه أدركَهم الخجلُ، فرَكِبُوا معه على كُرْهٍ.

وكان السلطانُ قد أمرَ الأميرَ (بيبرسَ) أن يتقدَّمَ فى جمع من العسكرِ ليكُونَ طليعةً يعرفُ له أخبارَ التتارِ، فسارَ (بيبرسُ) والجمعُ الذى معه سَيرًا حثيثًا حتى وصلَ (غزَّةَ) وبها طلائعُ التتارِ. فناوشَهم القتالَ فانهزمُوا، إذْ ظَنُّوا أنّ وراءَه جيشًا عظيمًا وتركُوا له (غزَّةَ) فدخَلها ونزلَ فيها بجَمْعِهِ حتى وافاه[٣١] السلطانُ بالعساكرِ فأقام فيها يومًا يَسْتَجِمُّ ويُدبِّرُ الخططَ.

وهناك وافَتْه (السلطانةُ جلنارُ) راكبةً على جوادِها وهى بملابسِ الفُرسانِ من الأمراءِ إلا قناعًا من الحريرِ الأسود مسْدُولًا[٣٢] على وجْهِها، لولاهُ لقَلَّ مَنْ يستطيعُ تمييزها عنهم، وتصحبُها جاريتَان حبشيَّتانِ على بغلتَيْهما، ويَسِيرُ حولَها جماعةٌ من العبيدِ السُّودِ يحرُسُونَها ويقومُون بخدمَتِها، فضُرِبَ لها مُخيَّمٌ خلفَ المخيمِ السلطانىِّ، جعلَ السلطانُ يتردّدُ عليْها فيه.

٨ السلطانُ (قطز) يَطْلُبُ مِنَ الفرنجِ أنْ يَلْزَمُوا الحِيادَ فى المعركَةِ:

ولاحَ للسلطانِ أن عكَّا بيدِ الفرنجِ، وأنَّهم قدَ يغدِرون بالمسلمِين عندما يَلْقَونَ التتارَ فيطعَنُونهم من الخلفِ، فرأى أنْ يقطعَ عليْهم هذَا السبيلَ فتوجَّه إلى عكَّا من طريقِ السَّاحلِ بعدما بعثَ إليْها رُسلًا من قِبَلِه، حتَّى إذا شارفَها[٣٣]، وعلم أهلُها بدُنوِّه منهم خرجُوا إليه بالألطافِ[٣٤] والهدايا، فقالَ لهُم السلطانُ إنَّه لا يَنْوى بهم السوءَ ولم يخرجْ لقتالِهم، وإنما خَرج لقتال التتارِ، فعليْهم أن يلزَمُوا الحيادَ التامَّ. فخافُوا منه وألطفُوا له القولَ، وأعربُوا له عن إخلاصِهم وولائِهم لهُ. وعرضُوا عليه أن يسيِّروا معه نجدةً من عسكرِهم، فشكرَهم وقالَ لهم إن جيشَه لا يحتاجُ إلى معونةِ أحدٍ، ثم استحلفَهم أن يكونُوا لا له ولا عليه، وأقسمَ لئن تبعَه فارسٌ منهم أو راجلٌ يريدُ أذى المسلمين ليرجعنَّ إليهم فيقاتِلَهم قبل أن يلقَى التتارَ.

وكان هؤلاء الفرنجُ قد كاتبُوا التتارَ قبلَ ذلكَ يُعْلِمُونَهم بأنَّهم معَهم على المسلمين، وأنَّهم على استعدادٍ ليجيئوا المسلمينَ من خلفِهم إذا تقدَّمُوا لقتالِهم، ولكنَّهم لما رأوا انهزامَ طلائعِ التتارِ وجلاءَهم من (غزةَ) خَشُوا أن ينقضَّ عليهم المسلمُون فاتَّبعوا سبيلَ الوفاقِ معَهم، ولم يَكْتفِ السلطانُ بوعدهِم وإيمانهم حتّى شرَط عليْهم أن يُبقِىَ فى الحصون القائمةِ على منافذِ عكّا حامياتٍ من عسكرِه؛ ليضْمَن بذلِك بقاءَهم على الحيادِ، فوافَقُوا على ذلك مُكْرَهينَ.

٩ أناشِيدُ الكِفَاحِ لإثَارةِ الحَماسِ فى الجُنُودِ قَبْلَ المعركَةِ:

ورحلَ السلطانُ عن (عكَّا) حتى إذا عَسْكَرَ بعيدًا عنها، جمعَ الأمراءَ والقوَّادَ ومُقدّمى الجنود فوقفَ بينَهم خطيبًا على جوادِه، وجعلَ يحضُّهم على قتالِ العدو يُذكِّرُهم بما حَاق[٣٥] بأهلِ الأقاليم من القَتْلِ والسَّبْى والحريقِ، ويخوفُهم وقوعَ مثل ذلك لهم ولبلادِهم. ثم حثَّهم على استنقاذِ بلادِ الشامِ من أيدى التتارِ، ونصرةِ الإسلام والمسلمين، وحذَّرَهم عقُوبةَ الله وغضَبَه إذا هُمْ قصَّروا فى جهادِهم فضجَّ[٣٦] السامعون بالبكاءِ، وتحالفُوا على الصِّدقِ والاجتهاد فى قتالِ التتارِ، وحينئذ دعا السلطانُ الأميرَ (بيبرسَ) وأمَره أن يسيرَ بكتيبَةٍ من العساكرِ لتكونَ طليعةً له، فصدعَ (بيبرسُ) بأمرِ السلطانِ

(٢٧) مؤزرًا: قويًا.
(٢٨) الهزيع: الجزء.
(٢٩) أوعز إليه: أشار.
(٣٠) السُّرى: السير ليلًا.
(٣١) وافاه: جاءه.
(٣٢) مسْدُولا: مَرْخيًّا.
(٣٣) شارفها: دنا منها.
(٣٤) الألطاف: التحف.
(٣٥) حاق: نزل.
(٣٦) فضجَّ: صاح من مشقةٍ أو جزع.

KTABYEG.COM

وسارَ بكتيبتِه حتّى لقىَ طلائعَ التتارِ، فكتبَ إلى السُّلطانِ يُعْلِمُه بذلِك وأخذَ يُناوشُهم فتارةً يقدِمُ عليْهم، وتارةً يُحْجِمُ[٣٧] عنهم، يبغِى بذلك مُشاغلتَهم وعدَمَ الاشتباك معهم فى معركةٍ فاصلةٍ.

واستمرَّ على ذَلك حتى وافَاه السلطانُ عندَ (عينِ جالوتَ) فنزلَ بجنودِه فى الغَوْرِ[٣٨] ولما رأى طلائعُ التتارِ قدومَ الجيشِ المصرىِّ لَزِمُوا مواقعَهم ينتظرون تكامُلَ جُمُوعِهم المقبلة.

وكان الجيشُ طوالَ مسيرِه من الصالحيَّةِ إلى (غزَّةَ)، ومن (غزَّةَ) إلى (عكَّا)، ومن (عكَّا) إلى (عينِ جَالُوتَ) يردِدُ الأناشيد الحماسية.

وأمستْ ليلةُ الجمعة لخمس بقينَ من شهرِ رمضانَ، والسلطانُ مخيمٌ بعسكرِه فى الغورِ، ومِنْ دونهم مُعسكرُ التتار تَتَوارد[٣٩] إليه جموعُهم طَوالَ الليلِ، وكلا الفريقَينِ ينتظرُ النَّهارَ، ولا يشكُّ أن غدًا سيكونُ يومَ الفصلِ، ولم يأوِ الملكُ (المظفَّرُ) إلى فراشِه ليلتَه هذِه، بلْ قضَاها فى ترتيبِ العساكرِ وتعيينِهم فى مواقِعهم، وإصدارِ الأوامرِ إلى قُوادِهم ومقدميهم، والتفكيرِ فى خطط الهجوم، ولما غلبَه النعاسُ من شِدَّةِ التعبِ نام على مقعدِه، ولم يضَعْ جنْبَهُ على الأرضِ.

وكان فى خلالِ ذلك يكثرُ من ذكرِ الله، وتلاوةِ ما يحفظُ مِنْ آياتِ القرآن وسُوَرِه، ويطْرقُ من حينٍ إلى حينٍ مخيَّمَ زوجتِه فيطمئنُّ عليها ويخرجُ.

١٠ مَعْركة (عين جالوت) الخالدة:

وكان (هُولاكُو) قد رحل من حلبَ يريدُ بلادَه لأخبارٍ وصلتْ إليه بوفاةِ أخيه (منكُوخان) ملكِ التَّتارِ، وأناب عنه فى قِيادَة عساكرِه قائدَه الكبيرَ (كُتُبْغا) وأمَره بمواصَلَةِ الغزوِ إلى مصرَ. ولكنَّه لما وصلَ إلى بلادِ فارسَ، بلغه مسيرُ سلطانِ مصرَ بجيوشِه العظيمةِ الجرارَةِ، فأقامَ بها ينتظر ما تتمخَّضُ[٤٠] به الحوادثُ.

ولما طَلعَ الصباحُ تراءَى الجمعانِ فتهيَّبَ كلاهما لقاءَ الآخَر؛ لأنه يعلمُ أنَّ المعركةَ التى هو خائِضها[٤١] ستقررُ مصيرَه، وحبسَ كِلَيْهما عَنِ التقدُّمِ للقاءِ الآخرِ حابسٌ. أمَّا التتارُ فلَم يصلْ (كُتُبْغا) قائدهُم الكبيرُ فوقَفُوا ينتظِرون قدومَه. وأما المسلمُون فقد انتظرَ بهم الملِكُ وقْتَ صلاةِ الجمعَةِ؛ ليباشِرُوا قتالَ أعدائهم وخطباءُ المسلمين على المنابر يدْعُون لهم بالتأييدِ والنصرِ.

١١ (قطز) يُنَظِّمُ جيشَه:

ووصل (كُتُبْغا) قبل الزوالِ بساعةٍ فما لبثَ أن رتَّبَ عساكِرَه وساقَها للقاءِ المسلمين، وكان الملكُ (المظَفرُ) إذْ ذاك قد عيَّنَ جنوده فى مواقِعهم فجعلَ الأميرَ (ركنَ الدين بيبرس) على مَيْسرَتِه، والأميرَ (بهادرَ المعزِّى) على ميْمَنتِه، وكانَ هو على القلبِ وحولَه جماعةٌ من أبطاله ومماليكِه، بينهم الصبىُّ «التترىُّ» الذى كان استبقَاه من رُسُل التتارِ، واتخذَه مملوكًا له، ووكلَ به من عَلَّمَه فرائضَ الدِّين، فكان يسيرُ معَه لا يكادُ يُفارقُه. وكان الملكُ المظفرُ يحبُّه لذكائِه وفطنتِه، ويقول لهُ: أنتَ مَلكُ التتارِ، فكان رجالُ (المظفَّر) يدعُونه دائمًا ملكَ التتارِ، وكانَ الصبىُّ يُزهى بذلِكَ فيضحَكُون له.

١٢ اشْتِدَادُ المعرَكَةِ:

وما لبثَ الجيشان أن تقارَبا، فأخذَتْ سِهامُ التتارِ تمرقُ[٤٢] فى صُفوفِ جيشِ الملكِ المظفرِ فتجرح وتقتلُ فيهم. فلما اشتدَّ ذلك على الجندِ أمرَ السلطانُ رجالَه بالهجُوم عليْهم، فاندفَعوا إلى الأمَامِ، حتى تصافَحَتِ الصفوفُ الأماميةُ من كِلاَ الفريقَين بالسيوف. واشتدَّ القتالُ واستبسلَ الفريقانِ استبسالًا عظيمًا، واسْتَحرَّ[٤٣] فيهما القتلُ، إلاَّ أنَّ الجندَ كانوا لذلكَ الحينِ ظاهِرين[٤٤] على أعدائِهم.

وكان الملكُ (المظفَّرُ) فى وسَطِ القلبِ ينظُرُ إلى القتالِ بصدرٍ مُنْشرِحٍ، كأنه سرَّه أن يَرى أصحابَه يهجمُون على التتارِ بعد أنْ كَانوا يخَشوْنَ لقاءَهم ويظنُّون أنَّهم قومٌ لا يُغلَبون لكثرة ما سمعُوا من أخبارِ شجاعتِهم وتوحُّشِهم وهو يدفَعُ أبطالَه ويَحضُّ رجالَه على التقدُّم.

(٣٧) يحجم: يتراجع.
(٣٨) الغَوْر: كل مكان منخفض. الجمع: (أغوار).
(٣٩) تتوارد: تأتى.
(٤٠) تَتَمخَّض: تأتى.
(٤١) خائضها: مقتحم إياها.
(٤٢) تمرق: تخترق وتنفذ بسرعة.
(٤٣) استحر: اشتد.
(٤٤) ظاهرين: منتصرين.

KTABYEG.COM

١٣ جُلنارُ (الفارسُ الملثم) تنقذُ السُّلطان وتُضَحِّي بِنَفْسِها:

وكانتِ (السلطانَةُ جلنارُ) قد جعلتْ همَّها حمايَة زوجِها من الغِيلةِ[٤٥]، فجعلتْ تُلاحظُه وهىَ على جوادِها من تلٍّ مرتَفع خلفَ السلطانِ وتراقبُ مَنْ حولَه، فرأت خمسةَ فرسانٍ من التتار اندفعوا كالسَّهم إلى جِهَةِ السُّلطانِ، فُوجِئ السلطانُ ودُهشَ، وفوجئَ مَنْ حولَه من الرجالِ فاضطَربُوا، ولكنّ السلطانَ تلقَّاهم بسيفهِ فَجَنْدَل[٤٦] ثلاثَةً منهم.

وإذا بفارس تترى قد رمَى السلطَان بسهْمٍ من خلفِه فأخطأهُ وأصابَ الفرسَ فترجَّلَ السلطانُ وقصدَه الفارسانِ التتريانِ، فجعلَ يَحيصُ[٤٧] عَنْهما، ثم قصدَ أحدَهما فضرب قوائمَ فرسِه فوقَعتْ به وكادَ الفارسُ التترىُّ الآخر يَعْلُو السلطانَ بسيْفِه لو لم يبرزْله فارسٌ ملثمٌ شغَله عن ذلك، فاختلفَا ضربتَيْنِ بالسيفِ فخرّا صَريعَين. وصاحَ الفارسُ الملثَّمُ: «صُنْ نفسَك يا سلطانَ المسلمينَ! ها قَدْ سبقْتُك إلى الجنَّة!» وكان هذا الفارسُ قبلَ ذلك قد أطارَ رأسَ الفارس التترىِّ.

١٤ (جُلنار) تَجُودُ بِرُوحِهَا وهى تردِّد: لا تَقُل: واحبيبتاه! ولَكِنْ قل: وا إسْلامَاه!!

وكان فرسانُ الحرسِ السلطانىِّ قد ثابَ إليهم رُشدهُم إذْ ذاك فاجتمعوا حول السلطانِ وقبضُوا على الفارسِ الذى ضربَ السلطانُ قوائمَ فرسِه فقتلُوه، وسدُّوا الثغْرةَ الأمامية وتكاثَفُوا فيها دونَ السلطانِ فلم يَدعُوا أحدًا يقتربُ منه، وتذكَّر السلطانُ صوتَ الفارسِ الملثَّم فارتابَ فى أمرِه فقصدَ إليه وكشفَ عن وجههِ فإذا (السلطانةُ جلنارُ) وهى تجودُ بنَفْسها، فهالَه الأمْرُ وحملَها وهو لا يعقلُ ما يفعلُ، وبعثَ إلى (بيبرس) وهو على الميسرَةِ ليحل محلَّه فى القلبِ، وانفتلَ[٤٨] هو منطلقًا إلى المخيم فَلقِىَ (أقطاى الأتابكَ) على البابِ فقال له: «لا تُرَعْ، هذه سلطانتُك جريحةً، فعلىَّ بالطبيب والجاريتَين». فذهبَ أقطاى ليُحْضِرَهُم، وأضجعَها السلطانُ على فراشِه وجعلَ يقبلُ جبينَها والدموعُ تنهمرُ من عينَيْه وهو يقولُ لها: «وا زوجَاه! واحبيبتَاه».. فأحسَّتْ به ورفعَتْ طَرْفَها إليه وقالَتْ له بصوتٍ ضعيفٍ متقطِّع وهى تجودُ بروحِها فى السِّياق[٤٩] «لا تَقُلْ: واحبيبتَاه... قُلْ: واإسلامَاه!».

وما لَبثَتْ أنْ لفظتِ الروحَ بين يديْه حينَ حضرتِ الجاريتَان الحبشيَّتانِ مُرتاعتَين وخلفَهما الطبيبُ، فطبعَ السلطانُ على جبينِها القبلةَ الأخِيرَة، ومسحَ دموعَه ونهَض تاركًا زوجتَهُ الشهيدةَ للطبيبِ والجاريتَين يتولون تجهيزَها، وخرجَ من المخيَّم فامتطَى جوادًا طارَبه إلى ساحةِ القتالِ.

١٥ استبسال (قطز) والمسلمينَ بعد استشهادِ السلطانةِ (جُلنار):

وكانَ قد شاعَ فى جند الجيش خبرُ مصرَعِ (السلطانةِ جُلَّنار) وانتشرَ فيهم كالنارِ فى الهشيم، وخالطَهم من ذلك أسفٌ ووجُومٌ وشاعَ فيهم أيضًا أن السلطانَ احتمَلها إلى المخيَّم، وتركَ مكانَه للأميرِ (بيبرس)، فلما رأوه عادَ إلى محلِّه صاحُوا جميعًا: (الله أكبرُ)، وتمثلتْ لهم بطولةُ السلطانةِ الصريعةِ، فشعَروا بهوانِ أنفُسِهم عليْهم وحمُوا واستبسَلُوا.

ولما رأى التتارُ ذلك - وكانوا قد فرِحُوا بغيابِ السُّلطان؛ وظنَّ كثيرٌ منهم أنه قُتِل - حمُوا أيضًا واستماتُوا فى الهُجوم، فاضطربتْ مَيْمَنَةُ المسلمينَ التى عليها (الأميرُبهادرُ)، حتى صارَصَفُّ الجيشِ خطًّا مائلًا؛ مُقَدِّمَةُ الميسرة عليها (بيبرسُ)، ومُؤخرةُ الميمنة التى انكشفتْ حتى تعرَّضَ القلبُ لهجماتِ التتارِ الحاميةِ؛ وقد أدْرَكُوا أنَّ فيه السلطَانَ فاندفعوا لاختراقِه، وضغَطُوا عليه حتّى تقهقرَ قليلًا، فكادَ يُوازِى الميمنَةَ المنكشفَةَ، وصارالصفُّ بذلك أشبَهَ بضلعَيْن لزاويةٍ مُنْفرجةٍ.

وعندها تقدَّم السلطانُ قليلًا إلى الأمام فكشَف عن خوذَتِه وألقَى بها إلى الأرضِ وصرخَ بأعلى صوتِه ثلاثًا: «وا إسلاماه!» وحَمَلَ بنفسِه وبمن معَه حملةً صادقةً، وتَرَدَّدَ صوتُه هذا فى أرجاءِ الغَوْرِ، فسمِعَه مُعظمُ الجنود وردَّدُوه معَه، وحملوا حملةً عنيفةً انتعشَتْ بها الميمنَةُ.

فتقدمَتْ ببطء شديدٍ من كثَافةِ جموعِ التتارِ الذين حاولُوا مِنْها أن يُطوِّقُوا الجيشَ، وبَصُرَ السلطانُ ب(كتُبْغا) قائدِ التتارِ، وقد حمِىَ واستبسَل وهو يَضْربُ بسَيفَين، وكُلَّما عُقِر جوادُه استبدَل به جوادًا آخر، وكأنما كان يترقَّبُ الفرصة ليشُقَّ لبعضِ مُقدمِى رجالِه مُنْفرَجًا يصِلُون به إلى السلطانِ.

(٤٥) **الغيلة**: الخديعة والقتل بالاغتيال.
(٤٦) **جندل**: صرع وقتل.
(٤٧) 📖 **يحيص**: يحيد ويفر.
(٤٨) **انفتل**: انصرف.
(٤٩) **السياق**: نزع الروح.

KTABYEG.COM

١٦ دَوْرُ (بيبرسَ) البُطُولِى فِى المعركةِ:

وكان (الأميرُ بيبرسُ) إذْ ذاك يَحُضُّ بعضَ أصحابِه على القتالِ، ولا يَدَعُ لهم مجالًا للتقهقر مهما اشتدَّ بهم الضغطُ، فكأنما كانوا مقيَّدين بسلسلة طرفَاها فى يدهِ، فثَبَتُوا ثباتَ الرَّواسِى [٥٠]، وكَثُرَ القتلُ فِيهم وفى أعدائِهم حتى إنهم لَيَطئُون بحوافِرِ خيُولِهم على جُثثِ قتلاهُم وصَرْعاهم، وكان يزجُّ بنفسه فى مُقدَّمِ الصفِّ فَيُجَنْدِلُ ما يُجندِلُ مِنْ أبطالِ العدوِّ ثم يتراجَعُ ويغوص بين أصحابِه ويطوقُهم من الخلفِ يُحرِضُهم ويدفَعُهم إلى الأمامِ، وما أسرعَ ما يمرقُ من خلالِ صفوفِهم حتى يبرزَ إلى المقدمةِ من ناحيةٍ أخرى، وهكذَا دَوَالَيْكَ [٥١].

وكان فى كُلِّ ذلِكَ حذِرًا كأنما ينظرُ بألفِ عَيْنٍ، لا تفوتُه أقَلُّ حركةٍ يقومُ بها العدوُّ، ولا أىُّ تَضَعْضُعٍ [٥٢] يبدُو من قِبَلِ أصحابِه، وكانَ مَعَ ذلك مُوكِّلَ الطرف بالشُّجعانِ المُعَلَّمين من رجالِ العدُوِّ يتخيرُ أشدَّهم على جندِه فَيَفْجُؤه بضربَةٍ لا تُمْهلُه فربما قَدَّهُ [٥٣] وقَدَّ جوادَه معَه! وربَّما أطارَ رأسَه فوثَب الجوادُ بجسمٍ لا رأسَ له! وكثيرًا ما وكَلَ إلى أحدِ أبطالِ رجالِه فيقولُ له: «اقتلْ هَذا الفارسَ وخَلاك ذمٌّ [٥٤]».

وكان من جرَّاء شجاعةِ (بيبرس) وصرامَتِه أن تحامَى العدوُّ الميسرةَ واستضْعفُوا الميمنَةَ، وانْدفَعُوا إليْها حتى كانَ من أمرِها ما كانَ، ولمْ يفُتْ بيبرس أنَّ العدوَّ لما رأَى قوةَ الميسرةِ أمر ميمنتَه بالتأخرِ قليلًا والانتشارِ إلى الغربِ، وغرضُه من ذلِك أن تندفعَ ميسرةُ الجيشِ إلى الأمامِ فيقُوموا بتطويقِها فأبطلَ عليهم تدبيرَهم هذا، إذْ أمرَ رجالَه بالانتشارِ إلى الغربِ أيضًا وجعلَ تَقدُّمَه بِبُطْءٍ وحذرٍ ريثما يَرى مَا يكونُ من مَيمنةِ الجيشِ والقلبِ، حتّى إذا سَمِعَ صرخةَ (الملكِ المظفَّرِ): «واإسلاماه!» ورأى القلبَ يتقدَّم ويكرُّ على صُفوفِ الأعداءِ وأدركَ بِفطنتِه أنَّ السلطانَ يريدُ أن يُطوِّقَ ميسرةَ التتارِ ويفصلها عَنْ قلبِهم إذْ رآه يندفعُ بشطرٍ من القلبِ فاخترقَ به صُفوفَهم – رأى الفرصَة سانحة حينئذٍ ليقومَ بحركةٍ تطويقٍ لميمنةِ التتارِ وقَلْبهم حتَّى يَحصرهم بين مَيْسَرته وبين الشطرِ الأخيرِ من قلْب المسلمين، فأمر رجاله بالتقهقرِ قليلًا ليندفع العدوُّ إلى الأمام، وبالانتشارِ إلى الغربِ ثُمَّ التقدمِ إلى الأمامِ فى شكلٍ هلالىٍّ ينتهى طرَفُه الشَّمالىُّ بخطٍّ مائلٍ إلى الغَربِ، ليَسُدَّ بذلكَ على العدوِّ سبيلَ الالتفافِ، ثم أمرَ رجال الشكلِ الهلالىِّ أن يضغطُوا شيئًا فشيئًا على العدو فأخذَ مجالُ العدوِّ يضيقُ من ذلك الحينِ.

١٧ السُّلطان (قطز) يُقاتِلُ باستِمَاتةٍ حَتَّى يَصِلَ إلى قَائدِ التَّتار:

وكان (الملكُ المظَفَّرُ) يُقاتِلُ قِتالَ المستمِيتِ حاسرَ الرأسِ [٥٥]، وقد احمرَّ وجهُه، وانتفشَ شعْرُه، فصارَ كأنه قطعةٌ من اللَّهبِ يعلوها إعصارٌ من الدُّخان الأسودِ، وكان الناظرُ إليه – وهو يتقدمُ الصفوفَ ويضربُ بسيفه ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال، فكلما اعوجَّ له سيفٌ التمسَ له سيفًا آخرَ ورمَى الأولَ فى وجوه العدُوِّ، وكلَّما جَنْدَلَ بطلًا مِنْ أبطالِ العدوِّ صاحَ: «الله أكبر» – يُشْفِقُ عليه، ولا يشكُّ أنه يَتَعَرَّضُ للشهادةِ، وأنه عَمَّا قليل سَيُصابُ. فعظُم ذلك على خواصِّ رِجَاله المخلصِينَ لِما رَأوا من قِلَّة حَذرِه وتهاونِه [٥٦] بنفسه إلى حدِّ التَّهَوُّرِ، فعزَم أبطالُهم على أنْ يَقُوه بأنفسِهم ما استطاعُوا، فكان لا يتقدَّمُ خطوةً إلى الأمامِ إلاَّ تقدَّمُوا مَعه مُحيطِينَ به فى نصفِ دائرةٍ، فاسْتَحَرَّ القتلُ فيهم ولَمْ يَثْنِهم [٥٧] ذلك عن الاندفاعِ معَه إلى حدِّ التهوُّرِ، إذ لا سبيلَ لهم معَ ذلك إلى الأخذِ بجانبِ الحيطةِ والحذرِ.

(٥٠) الرواسى: الجبال الثابتة. المفرد: الراسى.
(٥١) دواليك: المراد: باستمرار.
(٥٢) تضعضع: ضعف.
(٥٣) قدّه: شقه وقطعه.
(٥٤) خلاك ذم: أعذرت وسقط عنك الذم.
(٥٥) حاسر الرأس: مكشوف.
(٥٦) تهاونه: استخفافه وتساهله.
(٥٧) يثنهم: يمنعهم.

KTABYEG.COM

وبَصُرَ السلطانُ بسهمٍ يصوِّبُ نحْوَهُ فشَدَّ عِنانَ[٥٨] جوادِه فوثبَ الجوادُ قائمًا على رجلَيْه، فنشِبَ[٥٩] السهمُ فى صَدْرِ الجوادِ فَتَدَاعَى ونزلَ عنْه السلطانُ ومسَح عَرقَهُ وهو يقولُ: «فى سبيلِ الله أيُّها الرفيقُ العزيزُ!»، واستمرَّ السلطانُ يُقاتِلُ راجلًا وهوَ يصيحُ: «إلىَّ بجوادٍ!» فأرادَ بعضُ أصحابِه أن ينزلَ عن فرسِه فأبَى السلطانُ عليه ذَلِك وقالَ لهُ: «اثبُتْ مكانكَ ما كنْتُ لأمْنَعَ المسلِمين الانتفَاعَ بك فى هذا الوقْتِ».

وبقىَ يُقاتلُ راجلًا حتى جِىءَ له بفرسٍ من الجنائبِ[٦٠] فامتطَاها وتوغَّل بشطرٍ كبيرٍ من جيْشِه فيما بينَ قَلْبِ العَدُوِّ وميسرتِه، وبعثَ إلى (الأميرِ بهادِرَ) قائدِ الميمنةِ بما عزَم من تطويقِ مَيْسرةِ العدوِّ، فأمرَ (الأميرُ بهادرُ) رجالَه بالانتشارِ إلى الشَّرق فى اتجاهٍ شمالىٍّ.

وبقِىَ (الملكُ المظفَّرُ) يحثُّ أصحابَه على توسيعِ المجالِ الذى اخترقَه فى صُفوفِ العدو؛ لِيقيمَ بذلك بَرْزَخا قويًّا بين ميْسرةِ العدوِّ وسائرِ جيشِه، فلم يَزَل البرْزَخُ يَتَّسعُ بما ينْدفعُ فيه من صفوفِ الجيشِ المصرىِّ، وكان القتالُ أحْمَى ما يكونُ فى جانبى البرْزَخِ، ولا سيَّمَا فيما يلِى قلبَ العدوِّ، حيثُ يُرى (كتُبْغَا) كَبيرُ التتار وقد استَكْلبَ[٦١] فى القتالِ وهو يقاتلُ بسيفِه، وخواصُّ رجالِه يَقُونَه بأنفُسِهم من الضرباتِ فيُصْرَعُونَ أمامَه وحوالَيْه، و(الملكُ المظفرُ) يتردَّدُ بين البرزخِ وبينَ سائرِ القلْبِ، فأرادَ (المظفرُ) أن يلقَاه، فتقدَّمه أصحابُه يبغُون أنْ يصدُّوه عن ذلك إشفاقًا علَيه، والسلطانُ يقولُ لهم: «دَعُونِى له ليسَ له قاتلٌ غيرِى! أريدُ أن أَقْتُلَه بيدِى!».

١٨ هَزِيمَةٌ سَاحِقَةٌ لِلتَّتارومَصْرعُ قَائِدهم (كتُبْغا):

فلما أعياهُم ذلك انتدَب أحدُ أبطالِهم وهو الأميرُ (جمالُ الدين آقوشُ الشمسىُّ) -وكان يُقاتلُ إلى جانبِ السُّلطانِ- فأبصرَ فُرْجةً فاقتحمَها إلى قائدِ التتارِ وصاحَ يخاطبُ السلطانَ: «ياخوند! أنَا يدُك لقد قتلتُ عدوَّ الله بيدك!» وأهْوَى بسيفِه على عاتقِ الطاغيةِ فأبانها[٦٢]، وضَربَه (كتبغا) بيدِه الأخرى فصرعَه مِنْ على فرسِه، ولكنَّ (الأمير آقوش) كان قد زجَّ[٦٣] حينئذٍ برمْحِه فى عنُق الطاغيةِ، فلما هَوى من فرَسه هَوى الطاغيةُ معه ورمحُ (آقوشَ) ناشبٌ[٦٤] فى حلقِه و(آقوشُ) قابضٌ على الرُّمح بيَديْه، وكبَّر (الأمير آقوشُ) -وسيوفُ العدوِّ تتعاوره[٦٥] من كلّ جانبٍ- فكبَّر السلطانُ وكبَّر مَنْ حولَه معه، فعرفَ المسلمُون أن (كتُبْغا) قد هَلَكَ، فكبَّروا جميعًا بصوتٍ واحدٍ أَلْقَى الرُّعْبَ فى قُلوب التتارِ فازدَادَ هلعُهم، واختلَّتْ صفوفُهم وأخذُوا يتقهقَرُون.

فأمرَ السُّلطانُ جنودَ البرْزخ وصفُوفَ الميمَنةِ أن يُكمِلُوا تطويقَ ميسرةِ العدُوِّ، واندفعَ باقِى القلبِ إلى البرْزَخِ لِيُساعدَ ميسرَةَ المسلمين التى عليها (الأميرُ بيبرس) على تطويقِ من لمْ يتمكنْ من الفرارِ مِنْ قَلْبِ العدوِّ ومَيْمَنتِه، فانحصَر[٦٦] مُعظَمُ جيشِ العدوِّ فى هاتَيْن الدائرتَين وحِيلَ[٦٧] بينَهم وبينَ الفِرارِ، فأوقَع بهم المسلمُون وأفنَوْهم ضربًا بالسُّيوفِ وطعنًا بالرماح حتى امتلأ الغورُ بجُثثِهم وأشلائِهم ولم يَسْلَمْ منهم إلا القليلُ من ساقَتِهم الذين تمكَّنُوا من الفرارِ، واعتصَم منهم جماعةٌ بالتلِّ المجاورِ لمكانِ الوقعَةِ، وأخذُوا يُمطرونَ المسلمِينَ بوابلٍ من سهامِهم وأحدَق بهم المسلمُون وصابَروهم فى القتالِ، وحملوا عليهم مُصْعِدِينَ حتى سحقوهم سحقًا بعد أن كَثُر قتلُ المسلمين دونَ هذا التَّلِّ، لِما لَقُوه من سِهامِ التتارِ التى تتساقَطُ عليهم كالمطرِ ولا تَكادُ تُخْطِئُ أهدافَها.

(٥٨) عنان: لجام. الجمع: أعنة.
(٥٩) نشب: علق. المراد: اخترق.
(٦٠) الجنائب: الدّواب. جمع: (جنيبة) وهى الزائدة على الحاجة (الاحتياطى).
(٦١) استكلب: اشتد.
(٦٢) أبانها: قطعها.
(٦٣) زج: دفع.
(٦٤) ناشب: عالق.
(٦٥) تتعاوره: تتداوله.
(٦٦) فانحصر: أحاط به العدو.
(٦٧) حيل: منع.

KTABYEG.COM

١٩ الشُّكْرُ لله على النَّصر العَظيمِ للمُسْلِمِينَ:

وانتهتِ المعركةُ وقد تهلَّلتْ وجوهُ المسلمين فرحًا واستبشارًا بما أنْعَمَ الله عليهم من هَذا النصرِ الكبيرِ، وبما غَنِمُوا من أموالِ التتارِ مما نهبُوه وسَلبُوه من أغْنى المدُنِ والبلادِ التى مَرُّوا بها، فكانتْ غنيمةً عظيمةً لم يُرَ مثلُها فى حروبِ ذلك العَهدِ.

وخرَّ (الملكُ المظفرُ) ساجدًا لربِّه، شاكرًا لما اجْتَباه(٦٨) من أنعمِه، وأطالَ السجودَ ثم رفَع رأسَه، والدُّموعُ تَتَحادرُ على لحْيتِه حتى سلَّمَ من صلاتِه فامتطَى صهْوَةَ(٦٩) جوادِه، وخطَبَ فى جيشه قائلًا: «أيُّها المسلمُون، إن لسانِى يعجزُ عن شُكرِكُم، والله وحدَه قادرٌ على أنْ يجزيَكُمُ الجزَاءَ الأوفَى، لقد صدقْتُم الله الجهادَ فى سبيله، فنصرَ قَليلكُم على كثير عدوِّكم، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾(٧٠) وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٧١).

إياكم والزَّهْوَ بما صنعتُم، ولكنِ اشكُروا الله واخضعُوا لقوتِه وجلالِه، إنَّه ذُو القُوَّة المتينُ، وما يُدريكُمْ لعلَّ دعواتِ إخوانِكم المسلمِينَ على المنابرِ فى الساعةِ التى حملتُم فيها على عَدُوِّكم مِنْ هذا اليوم العظيم، يومِ الجمعةِ وفى هذا الشهرِ العظيمِ، شهرِ رمضان كانتْ أمْضَى على عدوِّكُم من السيوفِ التى بها ضَربتُم، والرماحِ التى بها طعنتُم، والقسِيِّ(٧٢) التى بها رَميْتُم، واعلموا أنَّكم لم تَنْتَهوا مِنَ الجهادِ وإنما بدأتُموه، وأنَّ الله ورسُولَه لن يَرضَيا عنكُمْ حتى تَقضُوا حقَّ الإسلامِ بطردِ أعدائِه من سائرِ بلادِه؛ ويومئِذٍ يفرحُ المؤمنُون بنصرِ الله..».

٢٠ دعاءٌ للشهداءِ، وترحُّمٌ على (جُلنار)؛ فهم جميعًا أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرْزَقُون:

«ألا فَتَرحَّمُوا على إخوانِكم الذين عَلِم الله ما فى قُلوبِهم من الإيمان والخيرِ، فاختارَ لهم الشهادَة والجنَّة، واختارَ لكُمُ النصرَ والبقَاءَ، لتعودُوا للجهادِ فى سبيلِه، وما عندَ الله خيرٌ وأبقَى، وتَرحَّمُوا على أَمةِ الله سُلطانتِكُمْ، فقد صَدَقَتِ الله ما عاهَدَتْه عليْه، وآثرتْ ما عندَه على ما عندَ عبدِه قُطُزَ!».

وهنا أدركتْه الرِّقةُ فبكى وعلاَ نَحِيبُه، فبكَى المسلمونَ جميعًا، وتعالتْ أصواتُهم بالنَّحيب، وهُمْ يقولونَ: «يرحمُها الله! يرحمُها الله».

ثم تَلا السّلطانُ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ (٧٣) ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾(٧٤).

(٦٨) اجتباه: اصطفاه وأعطاه.
(٦٩) صهوة: موضع السرج.
الجمع: صهاء، صهوات.
(٧٠) سورة محمد آية: (٧).
(٧١) سورة البقرة آية: (٢٤٩).
(٧٢) القسى: المفرد: القوس.
(٧٣) آتاهم: أعطاهم ومنحهم.
(٧٤) سورة آل عمران: الآيتان (١٦٩، ١٧٠).

KTABYEG.COM

ذاكر

شاهد فيديو الشرح

الفصل الخامس عشر

(قطز) يُحاكِمُ الخَونَةَ، ويُطارِدُ التَّتارَ وَيتوجَّهُ إلى (دِمَشْق)

ملخص أحداث الفصل

حاكَمَ السلطانُ (قطز) الخَونَةَ مِنَ المسلمينَ الَّذين انْضَمُّوا إلى التَّتارِ، فَقَتَلَ مَن لا عُذْرَ له مِن اضْطرَار، أَوْ إكراهٍ، أو جَهْلٍ، وإلا بَيَّنَ لَه سُوءَ عَمَله، واسْتَتابَه وضَمَّهُ إلى جَيْشِه، وعَفا عَنْه لما توسَّمه فيه مِنْ خَيْرٍ.. ثم تَحرَّك إلى دِمَشْقَ، وأمر (بيبرس) بِمُطَارَدةِ فُلُولِ التَّتارِ حَتَّى يَقْضِيَ عليهم إلى الأبدِ، وقَدْ كَانَ..

عرض الأحداث

١ محاكَمَةُ الخَونَةِ من المسلمينَ الَّذين انضَمُّوا إلى التَّتَارِ:

فرغ (الملكُ المظفرُ) بعد ذلك لمحاكمةِ الأسرى من المسلمينَ الذين انضمُّوا إلى التتارِ وأقْبَلوا من الشامِ يُقاتلُون إخوانَهم المسلمِينَ معَ أعدائِهم، فَقَدمُوا إليه فردًا فردًا، فكلَّما تقدَّم إليه واحدٌ منهم سألَه عن اسمهِ واسمِ أبيهِ واسمِ بلدِه، وعن عملِه وحالِه من الفقرِ والغِنَى، ثم سألَه عن التتارِ وماذا يعتقدُ فيهم، وما حملَه على القتالِ معَهم، فكانوا يُجيبونَه بأجوبةٍ مختلفةٍ، فإذا تبيَّن له من كلامِ المسئولِ أنَّه لا عذْرَ له من اضطرارٍ أو إكراهٍ أو جهلٍ أمرَبه فَضُرِبَتْ عنقُه، وإلا بيَّنَ له سوءَ عملِه، واستتابَه[(١)] وضمَّه إلى جيشِه بعدَ أنْ أعْلمَه أنَّ حُكْمَه القتلُ ولكنَّه عفا عنه لما يتوسَّمُ[(٢)] فيه من بقيةِ خيرًا!

وكان في هؤلاءِ الأسرَى ملكٌ من مُلوكِ (آل أيوبَ) انضمَّ إلى التتارِ وقاتلَ معَهم المسلمينَ يومَ الغورِ[(٣)] قِتالًا شديدًا، فأمرَبه السلطانُ فجِيء به إليْه يَرْسُفُ[(٤)] في قُيودِه، فقتَلَه السلطانُ بيدِه جزاءً له عَلَى خيانتِه وفسْقِه؛ ليكونَ عِبْرةً لغيرِه من الملوكِ الَّذِينَ يتَمالئون[(٥)] معَ أعدائِهم على أمَّتِهم ودينِهم.

٢ رسائلُ (قُطُز) إلى أهلِ (دمشقَ)، و(ابنِ الزعيمِ) قبلَ التحرُّكِ إليها:

ثم تحركَ (الملكُ المظفرُ) بعساكرِه إلى (طَبَريَّة) حيثُ أرسَلَ كِتابًا إلى أهلِ (دمشقَ) يُخْبِرُهُمْ بالفتحِ وكَسْرِ العدوِّ، ويعِدُهم بالوصولِ إليهم ونشرِ العدلِ فيهم، وأنَّه سَيولِّي عليهم خيرَ مَنْ يرتضونه من مُلوكِهم وأمرائِهم، وأمرَهم بالقبضِ على أعوانِ التتارِ وأنصارِهم من أهالِي (دمشقَ) حتى يصلَ إليها فيَرى رأيَه فِيهم.

وبعث بكتابٍ آخرَ في معناهُ لمولاه الأولِ (السيدِ ابنِ الزعيمِ) الذى كان مُختبئًا في بعضِ ضَواحِي (دمشقَ)، وكان (ابنُ الزعيمِ) يتنسَّمُ أخبارَ مملوكِه (قطُز) منذُ فارقَه إلى الديارِ المصريةِ مع خادمِه (الحاجِّ عليِّ الفراشِ)، وكان يُراسلهُ الفينةَ بعدَ الفَينةِ، ويُشجِّعُه على تحقيقِ البِشَارَةِ النبويةِ، حتَّى إذَا جَلَسَ (قطزُ) على أريكةِ السلطَنةِ كتَبَ إليه يُهنئهُ بها، وخَتَمَ رِسالَتَهُ بهذَا الإمضاءِ «من خادمِكم المطيعِ ابنِ الزعيمِ». فلما قرأها (الملكُ المظفرُ) بكَى وقال: «الحمدُ لله الذى ولَّى عبده قُطزَ على عبادِه المسلمينَ»، وكان (ابنُ الزعيمِ) بعدَ ذلك يُوالِي الرسائلَ إليه، ويصفُ له أحوالَ دمشقَ وغيرِها من بلادِ الشامِ، ودخائلَ[(٦)] مُلوكِها وأُمَرائِها وزُعمائِها ومواقفِهم من مُعاداةِ التتارِ ومُوالاتِهم، فاسترشدَ السلطانُ بهذِه الرسائلِ في حملتِه هذه على بلادِ الشامِ وتطهيرِها من دسائسِ التتارِ.

(١) استتابه: طلب منه التوبة.
(٢) يتوسم: يتبين.
(٣) يوم الغور: يوم عين جالوت.
(٤) يرسف: يمشى ببطء مشى المقيد.
(٥) يتمالئون: يتعاونون.
(٦) دخائل: أسرار. المفرد: دخيلة.

KTABYEG.COM

٣ استقبالٌ حافلٌ (لقطز) مِنْ (دمشقَ وابنِ الزعيمِ):

وما لبثَ (الملكُ المظفَّرُ) أَنْ وصَلَ بجنده إلى ظاهرِ دمشْقَ فى آخرِ يومٍ من شهرِ رمضانَ، فخيَّم هناك حيثُ وافَاه السيدُ (ابنُ الزعيم) ففرحَ به السلطانُ فرحًا عظيمًا، وطفِقا[٧] يتعانقَانِ طويلًا والدموعُ تنهمرُ من عُيونِهما، وعيَّدَ السلطانُ فى ذلك الموضِع، وذبحَ الذبائِحَ فأطعَم الفقراءَ والمساكينَ من أهلِ القُرى المجاورةِ، وأشارَ على (ابن الزعيمِ) فصَلَّى به وبعساكرِهِ صلاةَ عيدِ الفطرِ، وتمنَّى كلاهُما لو أنَّ (الشيخَ ابنَ عبد السلامِ) كان حاضرًا ذلك اليومَ لِيَؤُمَّ الناسَ.

ثم دخلَ السلطانُ مدينةَ دمشقَ، ففرح به أهلُها، وأقاموا له الزيناتِ، واستقبلُوه بالطُّبولِ والأعلامِ ونثَرُوا على طريقهِ الأزهارَ والرياحينَ، حتى نزَل بقلعَتِها.

٤ مُطاردةُ فُلولِ التَّتارِ والقضاءُ عليهِمْ إلى الأَبَدِ:

وكان أولَ شَيْءٍ فعَله عَقِبَ دخُولِه دمشقَ أنْ سيَّر الأميرَ (بيبرسَ) بجيشٍ كبيرٍ فَطارَد فلولَ التتارِ، وقتلَ منهم خلقًا عظيمًا، ونازَل حاميتَهم الكبيرةَ بحمْصَ حتى مزَّقَ شملَهم واستولى على (حِمصَ) بعدَ أن قَتَلَ خلائقَ منهم وأَسَرَ، وهَرَب الباقُون فى طريقِ الساحلِ فتخطَّفَهم عامةُ المسلمِينَ ولم ينجُ منهم أحدٌ، وكانَتْ وقْعَةُ حِمْصَ هذه آخر أمرِ التتارِ ببلادِ الشامِ فقد هربُوا بعدَها من حلبَ وغيرِهَا، وألقَوْا ما كانَ بأيديهم من أموالٍ ومتاع ونَجَوْا بأرْواحِهم فارِّين إلى بلادِهم.

٥ اشتدادُ غضبِ (هولاكو) لهزيمَتهِ فقتلَ مُلُوكَ المسلمينَ الَّذِينَ ساعَدُوه:

ولما بلغَ (هولاكو) وهو ببلادِ (فارسَ) انهزامُ عسكَرِهِ وقتلُ نائبِه الكبيرِ (كتبغا) عَظُمَ عليه الخطْبُ، فإنه لم يُكْسَرْ له عسكرٌ قبلَ ذلك، ولمْ يهدأ غضبُه حتى قَتَلَ من لَحِقَ به مِنْ خَونةِ ملوكِ الشامِ وأولادِهم، فلقُوا جزاءَ خيانتِهم بيدِ مَنْ مالئُوه على إخوانِهم المسلمينَ، إلا واحدًا منهم عشِقَتْه زوجةُ (هولاكُو)، فشفعَتْ له عندَ زوجِها، فعاشَ طليقَ امْرأَةٍ كافرةٍ! ورحلَ طاغيةُ التتارِ الأكبرليومهِ بمن بَقِىَ من جُموعهِ إلى بلادِه، تُشيِّعُه لعنَةُ الله ولعناتُ المسلمين.

(٧) طفقا: بدآ.

KTABYEG.COM

ذاكر

شاهد فيديو الشرح

الفصل السادس عشر

نِهَايَـةُ (قاهرِ التتارِ)

ملخص أحداث الفصل

- رَجَعَ (السلطان) إلى نَفْسِه فانْفَجرَ مَا كَانَ حَبِيسًا مِنَ الحُزْنِ عَلَى زَوْجَتِهِ الشَّهيدةِ، فَضاقَ بالحياةِ ذَرْعًا. فَفَكَّرَ فى أنْ يَتنازَلَ عَنِ العَرْشِ لِصَديقِهِ (بيبرس) الذى يَعْتقدُ أنَّه الأقْدرُ على تَحمُّلِ هَذِه الأَعْبَاءِ الضَّخْمةِ عَلَى ما فيه مِنَ الخَدِيعَةِ والمكرِ.. ولكنَّه لم يُصَرحْ له بهذا التَّفكيرِ؛ خَوْفًا مِنَ الفِتْنةِ بينَ الأُمَراءِ المماليكِ خَاصَّةً أنه يَعْرِفُ أن (بيبرس) لن يَقْدرَ على كِتْمانِ هَذا الخَبَرِ.

ولذلك لم يمنح قطز بيبرس (حَلَبَ) التى وعده بها، مِمَّا أَغْضَبَ (بيبرس)، وَظَنَّ الظُّنُونَ بالسُّلطانِ، واعْتَقَدَ أنه يَحْسُدهُ لما قَامَ به مِنْ بُطولاتٍ فى صَدِّ التَّتار.

- وتَزْدَادُ الشُّكوكُ فى صَدْرِ (بيبرس)، وَيُشْعِلُها أتباعُه حَتَّى يَتَّفقَ الجميعُ على تَدْبيرِ خُطَّةٍ لِقَتْلِ السلطانِ خِلَالَ عَوْدَتِه إلى مِصْرَ.

وبالفعل نفذوا الخطة، وقبل أن يلفظ (قطز) أنفاسه الأخيرة أخذَ يُرَدِّدُ: «حَسْبِىَ اللهُ ونعْمَ الوَكِيلُ، أتقتُلُنى يَا صَدِيقى وأَنَا أُرِيدُ أن أُولِّيكَ سُلْطانًا مَكَانِي؟».

ويُحِسُّ (بيبرس) بالنَّدَمِ ويُلْقِى بِسَيْفِهِ على الأَرْضِ، ويَزْدَادُ نَدمًا حتى يَرْفَعَ السُّلطانُ عَيْنَيْه ليمنعَ حُرَّاسَهُ مِنْ قَتْلِ المتآمِرِين قَائِلًا: دَعُوا (بيبرسَ) لا تَقْتُلُوه، إنه سُلْطانُكم قَدْ وَلَّيْتُهُ عَليكم. قَاتِلْ أَعْدَاءَ الإسْلامِ يا (بيبرس)، هَذِه وصيَّتِى لَكَ.

جَلَسَ (بيبرس) على عَرْشِ مِصْرَ، ولُقِّبَ بالملكِ (الظاهر)، وجَهِدَ أنْ يُنَفِّذَ وَصِيَّةَ السُّلطانِ.

عرض الأحداث

١ (قُطز) يعيشُ ذِكْرياتٍ أليمةً بَعْدَ النَّصْرِ الكبيرِ:

استطاعَ (الملكُ المظفرُ) إلى هذا الحينِ أنْ يَكْبِتَ [١] حُزْنَهُ على زوجتِهِ الشهيدةِ منذُ سمعَها تقول له وهى فى السِّياقِ: «لا تَقُلْ: واحبيبتَاه.. قُلْ: واإسلاماه»؛ فحبسَ دمعَه واستمرَّ مُنطويًا على لوعتِه [٢] ما كانَ خطرُ التتارِ قائمًا فى بلادِ الشامِ، فلما انتَهى أمرُهم بعد وقْعَةِ (حِمصَ) وهربَ الباقُون منهم ناجين بأرواحِهم إلى بلادِهم، وأكملَ هو تدبيرَ بلادِ الشامِ، وجعلهَا بأيدى مَنِ اصطَفاهم مِنْ ملوكِها وأمرائِها ممن قاتلَ أو حسُنتْ توبتُه، شعرَ بأنه قد قامَ بما أوجبه الله عليه من الصبرِ على مصيبتِه، بفقدِ زوجتِه؛ لئلا يشغلَه الحزنُ عليها عن كمالِ الاضطلاعِ بالأمرِ العظيمِ، الَّذى عاهدَ الله على القيامِ به، فرجَعَ إلى نفسِه، وفكَّر فى مُصابِه، فإذَا هو قد فقدَ سَلْواه [٣] الوحيدةَ فى الحياةِ بفقدِ (جُلَّنار) فانفجر ما كان حبيسًا فى نفسه من الحزن؛ إذ ضعف عن مغالبته ولم يعُدْ يقوى على احتمالِه، فسالتْ دموعُه حتى تقرَّحَتْ [٤] جفونُه، وأظلمتِ الدنيا فى عينَيْه، وضاقَتْ عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ، وجعلَ يتذكرُ مصرعَ (جلنار)، وكيف احتملهَا إلى المخيمِ، وكيف قالتْ له تلك الكلمةَ التى صرخَ بها ساعَةَ العُسْرةِ فى الجيشِ، فكانتْ مِفْتاحَ النَّصْرِ، ثم تذكَّرَ أنَّها لن تعودَ إلى مصرَ، ولن تُشاطره فرحَ الناسِ بمَقدِمِه ظافرًا منتصرًا تُقَامُ له الزيناتُ والأفراحُ وتُدقُّ له الطبولُ، وتُرفعُ الأعلامُ وتُنثرُ فى طريقِه الأزهارُ والرياحينُ، وأنَّه سيأوى إلى قلعةِ الجبلِ وحيدًا لا أنيسَ له، وسيعودُ إلى الاضطلاعِ بشئُونِ الحكمِ وتدبيرِ أمورِ الدولةِ.

(١) يَكْبِتَ: يحبس. المضاد: يكشف، يصرح.
(٢) لوعته: حرقة فى القلب وألم من الحب أو الهم أو الحزن.
(٣) سلواه: ما تطيب به نفسه.
(٤) تقرحت: علتها القروح.

KTABYEG.COM

٢ (قُطز) يشعرُ بالعجزِ عن كبحِ تطلُّعاتِ المماليكِ ومُؤَامَراتِهم:

وأنَّى له [٥] القُدرةُ اليوم – وقد ضَعفتْ نفسُهُ وخارَتْ عزيمتُه – على كَبحِ جِماحِ الأمراءِ المماليكِ وغرامِهم بالخلافِ، وتكالُبِهم [٦] على السُّلطةِ والجاهِ؟ أيدعُ البلادَ لهم فتعودَ إلى سيرتِهَا الأولى مِنَ الظُّلمِ والفسادِ والفَوْضَى والاضطرابِ، وتنطلقَ أيديهم فى أموالِ الأُمَّةِ وخيراتِ البلادِ فَيَبْتَزُّوها [٧] بالباطلِ، ويعُودوا إلى اكتنَازِ الذهبِ والفضةِ والجواهرِ، غافِلِينَ عن مصالحِ البلادِ، غَيْرَ آبِهِينَ [٨] لما يتهدَّدُها من الأَخْطَارِ، حتى تَحلَّ بها كارثةٌ لعلَّها تكونُ أعظمَ من كارثَةِ التتارِ؟ وقد رَأى كيفَ أنَّهم لم يخرجُوا معَه لقتالِ التتارِ إلا بالإكْراهِ والقَسْرِ، وبعد أن تَعِبَ فى مُمَارَستِهم ومعالجتِهم باللِّينِ وبالشِّدةِ، ولقِىَ منهم مِنَ التخاذُلِ والتَّقاعُسِ [٩] والتواكُلِ مرةً بعدَ مرةٍ ما كانَ كافيًا لِصَدِّ أمْضى العزائمِ، وتخذيلِ أقوى النفوسِ حماسةً ويقينًا لَوْ لَمْ يُظْهِرْه الله [١٠] عليهم بتأييدٍ مِنْ عِنْدِه.

٣ (قُطز) يتحسَّرُ على (جُلنار) وأثرُ ذلكَ فى نفسِيَّتِه:

وقد كانَ له فى الدُّنيا أملٌ هَوَّنَ عليه كُلَّ ما لَقِىَ فى سبيلِ ذلك من المتاعِبِ، وذَلَّلَ كُلَّ ما قامَ فى طريقِه من المصاعِبِ، فأينَ ذلكَ الأملُ اليومَ؟ لقد انطَوى إلى الأبدِ، أينَ (جُلنار) التى كانتْ تُشاطِرُه هُمُومَه وآلامَه، وتمسحُ بيدِها الرقيقةِ شَكْواهُ، وتطردُ عن نَفْسِه اليأسَ، وتُنْعشُ [١١] فى قلبِه الأملَ، وتُذْكِى [١٢] فى فُؤادِه الرغْبَةَ فى الحياةِ والمجدِ؟ وما لَذَّةُ الحياةِ بعدَ (جلنارَ)؟! وفيمَ يطلبُ المجدَ وقد نامتِ العينُ التى كانَتْ تباركُه وتسهرُ عليه؟!

أينَ (جلنارُ) التى كان يشهدُ فيها بقيةَ أهلِ بيتِهِ الذينَ نكبهم التتارُ؟ وها هُو ذا قد انتقم لهم وللإسلام من التتارِ، ما أحقرَ هذِه الحياةَ الدنيا لذوِى النفوسِ الشاغرةِ!! وما أهونَها على من ينظرُ فى صمِيمِها، ولا ينخدعُ بزخرفِها وباطلِ نعيمِها!! لقدْ كتبَ الله عليْها ألا يتمَّ فيها شَىْءٌ إلا لَحِقَهُ النقصانُ، ولا يَربحَ فيها امْرُؤٌ إلَّا أدركه الخُسرانُ.

طغَى الحزنُ الجبَّارُ على تِلك النفسِ القويَّةِ فوهَنتْ، وعَلى تلكَ العزيمةِ الماضيةِ فَكَلَّت [١٣]، وعلى تلك الهمةِ الطائِرةِ فهِيض [١٤] جنَاحُها، وعلى ذلك الرأيِ الجميع فانْتَقَضَ غزْلُه [١٥] مِنْ بَعْدِ قُوةٍ أَنْكاثًا [١٦]. وأصبحَ (الملكُ المظفرُ) يائسًا فى الحياةِ يستثقلُ ظِلَّها، ويستطيلُ أَمَدَها، ويودُّ لو استطاعَ فجازَ ما بقى له فيها من الأيامِ [١٧] مرحلةً واحدةً، إلى حيث يلقَى حبيبتَه الشهيدةَ فى مَقعدِ صِدْقٍ [١٨] عِندَ مليكٍ مُقتَدِرٍ [١٩]!

٤ (قُطز) يُفكِّرُ فى اختيارِ (بيبرسَ) خَلَفًا له (سُلْطانًا) على مِصْر:

ولكنَّ الذى هزمَ التتارَ، وحمى الإسلامَ فى وقعةِ (عينِ جالوتَ) فأَضَافَها إلى أخواتِها الكُبْرَى: (بدرٍ، وأُحُد، والقادسيةِ، واليرموكِ، وحطِّينَ، وفارسكور) لم يكنْ لِيَنْسَى إذا هو عَافَ [٢٠] الحُكْمَ وضاق ذرعًا بالحياةِ أن ينظُرَ للإسلام وأهلِه، فيختارَ من بين المسْلِمينَ رجلًا قويًّا يعهدُ إليه بحكْمِهم، ويبرأ به إلى الله من تَبِعتِهم، فظلَّ أيامًا يتلفَّتُ فِيمَنْ حولَه من الملوكِ والأمراء، فما ملأ عينه منهم إلا صديقُه القديمُ، وعدوُّه العنيدُ، ونصيرُه فى جهادِ التتارِ (الأميرُ ركنُ الدِّين بيبرس) وقَدْ رآه – على ما فيه من الخديعةِ والمكرِ والتكالُبِ على الرياسةِ والحكم – أَقْوَمَهم جميعًا بالأمرِ، وأقدرَهم عليه، وأجدَرهم أن يسوقَ الناسَ بعصاه، ويحملَهم على ما فيه استقامةُ أمورِهم، ودوامُ قُوتِهم وعِزَّتِهم، وبقاءُ هيبةِ الإسلامِ فى صُدورِ أعدائِه. فعزَم على أنْ ينزِلَ له عن الحُكْم، ويتخلَّى له عن عرْشِ مِصْرَ عاصمةِ المسلمينَ وملاذِهم، ومظهرِ قوتِهم وسلطانِهم.

(٥) أنَّى له: من أين؟
(٦) تكالبهم: حِرْصهم.
(٧) يبتزوها: ينزعوها ويغتصبوها.
(٨) آبهين: متنبهين.
(٩) التقاعس: التخاذل والتراجع. **المضاد**: الهمة والنشاط.
(١٠) يظهره الله: ينصره.
(١١) تنعش: تحيى.
(١٢) تذكى: تشعل.
(١٣) كلَّت: تعبت.
(١٤) هيض: انكسر.
(١٥) انتقض غزْله: فسد بعد إحكام.
(١٦) أنكاثًا: **جمع**: نكث: الخيط البالى، ومعنى (انتقض غزله من بعد قوة أنكاثًا): صار فى غاية الضعف بعد أن كان فى غاية القوة.
(١٧) جاز ما بقى له من أيام: قطعها. **المراد**: التعجل بالحياة وسرعة الموت.
(١٨) مقعد صدق: مكانة عالية عند الله.
(١٩) مليك مُقتدر: إله قادر.
(٢٠) عَافَ: كره.

KTABYEG.COM

٥ (قُطز) يَكْتُمُ الخَبرَ خَوْفًا مِنَ الفِتْنَةِ:

ولكنَّه رأى أن يَكْتُمَ هذا الأمرَ عن الناسِ حتى يعودَ إلى مصرَ خوفًا من الفتنةِ وخشيةً من انتقاض(٢١) الأمراءِ المماليكِ واختلافِهم إذا سمعُوا بذَلِك، ولا سيَّما المُعِزِّيةُ منهم؛ إذْ كانُوا يَرَوْن أنفُسَهم أولَى مِنْ غيرِهم بالحُظْوةِ والتقدمِ عندَ (المظفرِ)؛ لما بينَه وبينهم من صلةِ الخشداشيَّةِ، والانتساب إلى أُستاذٍ واحدٍ هو (الملك المعزُّ عزُّ الدينِ أيبك)، وكانُوا قد نَقمُوا على السُّلطانِ أنه ساواهم بالأمراءِ الصالحيةِ فى الإقطاعَاتِ التى أقطعَهم إيَّاها ببلادِ الشامِ، واعتقَدُوا أنَّه ظَلمهم بذلك، وتحدَّثَ بعضُهم إلى بعضٍ فى مطالبةِ السلطانِ بحقِّهم المهضوم، والالتجاء إلى القوةِ فى إكرَاهِه على ذلك إذا اضطرُّوا إلَيْها، ولكنَّهم خَشُوا أنْ يتشيعَ(٢٢) الصالحيةُ للسلطانِ، ويكُونُوا معَه إلْبًا(٢٣) واحِدًا عليهم، فأرجَئُوا التفكيرَ فى ذلك إلى فُرصةٍ ملائِمَةٍ.

٦ (بيبرس) يظنُّ (بقُطز) الظنونَ لأنه لم ينفِّذْ وَعْدَه:

وكان الأميرُ (بيبرس) قد سأَلَ السُّلطانَ أنْ يعطيَه (نيابَة حَلَب) فوعَدَه بذلك، ولكنَّه لما عزمَ على النزولِ له عن الحكمِ كلِّه وتوليَتِه سُلطانًا على مصرَ مكانَه لم يبقَ عندَه موضعٌ للوفاءِ (للأميرِ بيبرس) بما وعَدَ، فأعْطى نيابَة حلبَ لأحدِ مُلوكِ الشَّامِ.

ولما بلغَ ذلك (الأميرَ بيبرس)، غضِبَ غضبًا شديدًا على السُّلطانِ واضطرمَ حقدًا عليه، وأيقَنَ أنَّ السلطانَ، إنما حسدَهُ على ما أظْهَرَهُ هو من آياتِ البطولةِ، فى قتالِ التتارِ، ومطاردتِهم إلى أقاصى البلادِ، فخشِى أنْ ينافِسَه فى الحُكْمِ، ويؤيِّدَه الناسُ فى ذلك، فأرادَ بهذَا اهْتِضَامَه(٢٤) وإذْلاله، وإشعارَه بقُوتِه وسلطانِه، وقدرتِهِ عليه وعلَى رجالِه، بعد أن خضعَتْ له رِقَابُ الملوكِ، وَدَانَتْ له بلادُ الشَّامِ قَاطِبةً.

ومما قَوَّى هذا الظنَّ عندَ (بيبرسَ) أمْران: أحدُهما: أنَّهُ كانَ ينوى مُنَافسةَ السلطانِ حقًّا حينَ طلبَ منه (نيابةَ حلب)؛ ليستقِلَّ بها، ويتخِذَها بعدَ ذلك نَواةً(٢٥) لإشباعِ مطامعِه، بالاستيلاءِ على ما دُونَها من البلادِ، حتى يضُمَّ الشامَ جميعَها تحتَ لوائه، وحينئذٍ يُنازع (الملكَ المظفَّرَ) على عرشِ مِصْرَ، ولم يختَرْ (نيابةَ حلبَ) فى أقصى الشام عبثًا، فقد آثرها؛ لأنَّها بِبُعدِها عن مركزِ السلطانِ أصلحُ من غيرها للقيامِ بحركتِهِ. وثانيهما: أنَّه لم ينسَ ما كان مِنْه فى مصْرَ، من تحريضِ الأمراءِ على السُّلطانِ، حينَ دعَاهم السلطانُ للنزولِ عنْ أملاكِهم لبيتِ المالِ، فظنَّ أن السلطَان إنما اغتفَرَ(٢٦) له ذلك، واستَبْقاهُ لحاجَته إليه يومئذٍ، حتى إذَا استغْنَى عنه، وتمكَّنَ منه، عاقَبَه على ما سلفَ مِنْ ذنبِه؛ لئلا يعودَ فى المستقبل إلى مِثْلِه.

هذا ما وَقَرَ(٢٧) فى قلبِ (بيبرس)، ولم يكُنْ يعلمُ من نيةِ السلطانِ شيئًا إذ لم يَشأ السلطانُ أن يُخبرَه بما طَوَى عليه عزْمَه؛ لاعتقادِه أنَّ (بيبرس) لنْ يقدِرَ على كِتْمانِه، ولا بدَّ أنْ يبوحَ بهذا السرِّ لأصحابِه فينتشرَ الخبرُ، ويقعَ الاختلافُ المحذورُ.

٧ أتباعُ (بيبرس) يزيدونَ من ظُنُونِه، ويثيرُونَ أحقادَهُ القديمةَ:

ولم يَكُنْ ما سبقَ رأىَ (بيبرس) وحدَه، بل شايعَه على ذلك أصحابُه من الأمراءِ الصالحيةِ ومماليكِهم وأتباعِهم، فأوْغَرُوا صَدْرَه على السلطانِ وقالُوا له: «لولاَكَ لما صَنَع شيئًا، ولما قَدَر على هَزيمة التتار، وهو الآن يملكُ بلادَ الشامِ كلَّها، ويفرِّقُ ولاياتِها على مَنْ يشاءُ مِنَ الملوكِ والأمراءِ الذين لم يُبْلوا بلاءَك، ولم يَقُومُوا ببعْضِ ما قُمْتَ به، من غيرِ سابقِ وعْدٍ، ولا سالفِ عهدٍ، ويبخلُ عليكَ بنيابَةِ مدينةٍ واحدةٍ، فى أقصَى الشامِ، كنتَ طلبتَها منه فوعَدَك بها، فهلْ تُريدُ أشدَّ من هذا إذلالًا لكَ، واسْتِخْفَافًا بأمْرِك؟ وما يمسُّك يمسُّنا جميعًا، ولا يَغُرنَّك ما أقطَعنا من الإقطاعاتِ فى الشامِ، فإنما أرادَ بذَلِكَ إسْكَاتَنا إلى حينٍ، رَيْثَمَا يتمكَّنُ من رأسِك، وحينئذٍ يستردُّها منَّا، ويردُّها على أصحابِه بعد التخلُّصِ منكَ».

(٢١) انتقاض: عصيان. المضاد: طاعة.
(٢٢) يتشيع: يتبع.
(٢٣) إلْبًا: جمعًا.
(٢٤) اهتضامه: انتقاصه وظلمه.
(٢٥) نواة: قاعدة ومنطلقًا.
(٢٦) اغتفر: صفح وسامح.
(٢٧) وقر: ثبت.

KTABYEG.COM

٨ مناقشةٌ حامِيةٌ بين (قُطزوبيبرس):

وجاءَ (بيبرس)– وهو يكتمُ غضَبه – إلى (الملكِ المظفرِ)، فَعَتَبَ عليهِ أنه أَخْلَفَ وعْدَه، وأعطَى نيابَة حلبَ لملكٍ لمْ يقمْ بمعشَارِ ما قَام هو بِه من جهادِ التتارِ وطردِهم عن البلادِ.

فقال له السلطانُ: «إنِّى لا أنكرُ يا (بيبرس) بلاءَك العَظِيمَ فى قتالِ العدوِّ، ولا أضِنُّ[٢٨] بعدَه بشَىْءٍ عليكَ، ولكنِّى أخشَى إذَا أنَا ولَّيتُك على (حلبَ) أن تغرَّك نفسُك فى ذلك الطَّرَفِ القصىِّ، فتستقلَّ بحكمِها، وتسعَى لضمِّ سائرِ البلادِ إليكَ، وتشقَّ[٢٩] بذَلك كلمةَ المسلمينَ، وقد بلوتُ طبعَكَ يا (بيبرس)، فلستُ أجهلُ مطامعَك ونيَّاتِك». فامتعض (بيبرس) واضْطربَ؛ لأنَّ السلطانَ كشفَ الحجابَ عن ذاتِ صدره، وصرَّحَ له بأنَّه على عِلْمٍ بخبيئةِ نفْسِه، ولكنَّه أخفى امتعاضَه واضطرابَه، وقال له: «سأحلفُ لكَ بأغلظِ الأيمانِ أنِّى لا أستقلُّ عنْكَ ولا أنتقِضُ عليْكَ».

قال السلطانُ: «إنَّ نفسَك الأمَّارةَ بالسوءِ لن تعدمَ سببًا تتعلَّلُ به لِنَقْضِ أيمانِك المغَلَّظَةِ».

قال (بيبرس) مُحْتدًّا: «إذا كنتَ لا تَنْوِى إعطائِى (نيابَة حلبَ) فلماذا وعدْتَنِى بها؟».

فأجَابَه السلطانُ: «وعدتُك بها حينَ رأيتُ فى ذَلِكَ مصلحةَ المسلمين، ومنعتُك إيَّاها حين خشيتُ من ذَلك على كلمةِ المسلمينَ».

– إذنْ فأعْطِنِى (نيابةَ دمشقَ) فهى أقربُ إليكَ من (حلبَ).

– هِيهِ[٣٠] يا (بيبرس)، كيفَ تريد مِمَّن لا يأمنُك على طَرفٍ من أطرافِ بلادِ الشَّام أن يأمنَك على عاصمتِها؟

فقال (بيبرسُ) وقد بان الغضَبُ فى وجهه: «إذنْ فما قصدُك إلَّا مُرَاغَمتِى[٣١] واهْتِضَامَ حقِّى، فابقَ على ما أنتَ عليه، فسأعرفُ ماذَا أصنَعُ!».

فضحِك السلطانُ ضِحكةً خفيفةً وقال له: «ها أنت ذا يا صديقى، قد أظهرتَ عِصْيانى وأنا بعد عندكَ، فكيف لو بعُدَتْ بِى الدارُ عنك؟ إنك يا (بيبرس) – ما علمتُ – لَشَرِسُ الطِّباعِ[٣٢]، سريعُ البادرة[٣٣]، ولعلَّ الله جعلَ فى ذلِكَ خيرًا للمسلمين، فاجتهدْ ألا تستعملَه فى غيرِ موضِعه. واعلمْ أنى ما أردْت بمُحاجَّتِك[٣٤] إلَّا أنْ تثُوبَ[٣٥] إلى رُشْدِك، فلا تؤثر مصلحتَك على مصلحة أُمَّتك ودينك، ومن يدرى لعلَّك تكونُ يومًا ما سُلطانًا على المسلمين؛ فليت شِعْرى بأىِّ خُلُقٍ تَسوسُهم، وأىَّ طريقٍ تسلكُ بهم إذا كانَ هواك غالبًا على تَقْواك؟».

٩ (بيبرس) يُحِسُّ بأن السلطانَ يسخرُ منه والسلطانُ يُقِرُّ بأنَّه يحتاجُ إلى مشورَتِه:

فقالَ (بيبرس): «أسألُك باللهِ يا خُوند ألَّا تجمع علىَّ بين المنعِ والسخريةِ؛ فإنِّى أحتملُ الأمرَ الأولَ، ولكنِّى لا أحتملُ الثانىَ».

قال السلطانُ: «إنِّى والله ما أسخرُ منْك يا (بيبرس)، فأنت حقًّا جديرٌ بأنْ تكونَ سلطانَ المسلمين لو استطعْتَ أنْ تَدوسَ هَواكَ[٣٦] بقَدمِكَ، ولكنْ دَعْنَا الآنَ من حديثِ السلطنةِ فاللهُ أعْلمُ حيثُ يجعلُ ولايةَ المسلمينَ، أصغِ إلى ما أريدُ أنْ أُحَدثك به: الحقَّ أقولُ: إنِّى ما منعتُك حلبَ أو دمشْقَ إلا لحرصِى على ألا تكونَ بعيدًا عنِّى، فإنى بحاجةٍ إلى مِثْلك فى مصر، فقد رأيتَ ما نزلَ بى من المصيبةِ بفقدِ السُّلطَانة – رحمَها اللهُ – ولا آمنُ أن يغلبَنِى الحزنُ فيشغلَنى عن القيامِ بواجبى نحوَ رعيَّتى، فأريدُ أن تسترَ نَقْصِى، وتجبرَ تقصيرى».

فسكتَ (بيبرس) مليًّا يفكرُ فيما يجيبُ به السلطانَ وجعلَ ينظرُ إلى وجهه كأنَّه يريدُ أن يتبيَّنَ قصدَه، فما رَأى على السلطانِ إلَّا آياتِ الانكسارِ والحزنِ ودلائلَ الإخلاصِ والصدقِ، فحار فى أمْرِهِ وخَشِىَ أن يكونَ ذلك خديعةً منه، ثم قالَ له: «أليسَ فى وزيرِ السلطانِ وأتابكِه وكبارِ صحابهِ ما يُغْنِيه عنِّى؟».

فقال له السلطانُ: «إنى لا أستغْنى عمَّنْ ذكرتَ، فهؤلاءِ شئونُهم، ولكنَّهم لايقُومون لى بما تقومُ به أنت».

(٢٨) أضن: أبخل. | (٣١) مراغمتى: إذلالى. المضاد: إعزازى وتكريمى. | (٣٤) محاجتك: مناقشتك ومجادلتك.
(٢٩) تشق: تقسِّم. المراد: تضعف. | (٣٢) شرس الطباع: سيئ الخصال. | (٣٥) تثوب: ترجع.
(٣٠) هيه: زدنى من حديثك. | (٣٣) البادرة: الغضبة. | (٣٦) هواك: ميلك. الجمع: أهواء.

KTABYEG.COM

١٠ السلطانُ يكادُ يُصَرِّح (لبيبرسَ) عمَّا فى نَفْسِهِ:

قالَ (بيبرس): «ماذا عسى أن ترجُوَ من شرسٍ مِثلى، لا يُؤمَنُ على ولايةٍ صغيرةٍ قاصيةٍ؟».

فقالَ السلطانُ: «ما تزالُ يا (بيبرسُ) طامعًا فى هذِهِ الولايةِ الصغيرةِ، وما تَدرى بأنِّى محتفظٌ لك بخيرٍ منها ومِنْ دمشقَ».

فقالَ (بيبرسُ): «لعلَّها (قصبةُ قلْيوبَ) التى أقطعتَنى إيَّاها!».

فضحكَ السلطانُ مرةً أخرى، وقال له: «يا صَديقِى (بيبرسَ) بل خيرٌ منها كثيرًا، إنها قلعةُ الجبلِ... قلعةُ الـ....».

وهنا وقفَ السلطانُ ولم يتمَّ كلمتَه، وبَقِىَ بُرهَةً واجِمًا كأنَّه نَدِم على تصريحِهِ بذَلِكَ لبيبرسَ، ثم استأنفَ حديثَه قائلًا: انصرفْ يا صديقِى مطمئنًّا فليسَ لك عِندى إلا الخيرُ».

١١ أصحابُ (بيبرس) يستمرُّونَ فى إثارةِ أحقادِه على (قُطُز):

وما خرجَ (الأميرُ بيبرس) من عندِ السلطانِ حتى تلقَّاه جماعتُه الذين كانُوا فى انتظارِه، فرأوْه أشدَّ غمًّا وأكثرَ حَيْرةً مما كانَ قبلَ مقابلتِه السلطانَ فى قلعةِ دمشقَ، فبدءُوه السؤَالَ عمَّا جرَى بينَه وبينَ (الملكِ المظفرِ)، فحدَّثَهم بكلِّ ما دارَ بينَهُما من الحوارِ. وهم يُصْغُونَ إليهِ، حتَّى إذا ما انتهى إلى قولِ السلطانِ: «إنها قلعَةُ الجبَلِ» قالُوا لهُ: «حسْبُكَ، قد صَرَّحَ لك السلطانُ بما يُضْمِرُ لك، إنه يعنِى أنَّك سَتَلقَى مصرعَكَ هُناكَ كما لَقِىَ صاحبُك (أقطاى)، للهِ ما أشدَّ جُرأتَه عليك، واستخفافَه بِكَ؛ إذْ يقولُ هذِه الكلمةَ فى وجهكَ وهو ضاحِكٌ يتلهَّى بِكَ». فبدرهُم (بيبرسُ) قائلًا: «ولكنَّه قطعَ ضحكَه بعدَ أن لَفَظَ هذه الكلمةَ وبقِىَ برهةً واجِمًا».

قالُوا: «إنَّه لا ريبَ نَدمَ على تهوُّرِه هذا بالتصريحِ لك بما ينْوِى من قتلِكَ».

١٢ تدبيرُ الخطةِ لقتلِ (قُطز):

قالَ (بيبرس)، وقد اشتدَّ حَنَقهُ واحمرَّت عيناهُ: «قلعةُ الجبلِ! لَا والله لأُلحِقَنَّه بزوجتِه التى يبكيها قبلَ أن تَرى عينُه قلعةَ الجَبلِ! ما بالُكُم تنظرون إلىَّ؟ ما رأيُكم؟ أشيروا علىَّ!».

قالوا له: «إنَّك سريعُ التقلُّبِ يا (بيبرس). وإنا نَخْشى أنْ نشترِكَ معكَ فى هَذا الأمرِ الخطيرِ، ثم تنْكُلُ[٣٧] عنْه وتتركنَا للسلطانِ يتحكَّمُ فى رقابِنا!».

قالَ (بيبرس) غاضبًا: ويْلَكُم[٣٨] أأتْركُكُم له وقد حَلفْتُ لكم لأقتلنَّه؟!».

قالوا له: «ولكنَّك قد حلفْتَ بِمثْلِ هذا عندَ قتلِ (أقطاى)، ثم رجعتَ عن يمينِكَ وعُدتَ إليه تطلبُ منه الأمانَ فأقطعَك (قصبَة قليوبَ)، فما يُدرِينا أنَّك لا تعودُ لمثلِهَا فيقطعَك قلعَةَ الجبلِ؟!».

فصاحَ بهم (بيبرس): «كفَى!». فسكتُوا جميعًا وبقُوا كذَلِك برهَةً حتَّى قال لهم (بيبرس): «ولكنْ ما رأيُكم فى (المعزِّيةِ) ماذا نَصنَعُ بِهم؟».

قالوا له: «لقدْ كفاكَ اللهُ مئونَتَهم، إنهم غاضبُون جميعًا على صاحبِهم؛ إذْ سوَّى بينَنا وبينَهم فى الإقطاعات، وما عَلمُوا أنَّه فعلَ ذلك خديعةً لنا ليُسكِتَنا إلى حين، وهَبْ[٣٩] أنَّهم قاموا له أتَظنُّنَا نعجزُ عنهم وقد قطعْنَا رأسَهم؟ أقد نَسِيتَ يا (بيبرس) أنَّنا هربْنا من البلادِ لمَّا رُمِىَ إلينا برأسِ (أقطاى) ونحنُ يومئذٍ سبعمائةُ فارسٍ؟».

فقالَ لهم (بيبرس): «ما رأيُكم فى استمالَةِ (أقطاى المستعربِ) إلينا ليكونَ معنا فى هذَا الأمْرِ؟».

فاختلَفُوا فى الرأْيِ، فمنْ قائلٍ: «نَسْتَمِيلُهُ فهو صالحٌ مثلُنا، وسَيُذلِّلُ لنا السُّبُلَ لقتلِ السلطانِ». ومن قائلٍ: «بل نكتُمُ هذا الأمرَ عنه فهو وإنْ كان صالحيًّا إلا أنه مُخلصٌ للسلطانِ وهواهُ مع المعزِّيةِ، ولكنَّه إذا رآنا قَدْ قطعْنَا الرأسَ فإنه عائدٌ إلينَا لا رَيْبَ».

(٣٧) تنكل: ترجع. المضاد: تهجم. (٣٨) ويلكم: عذاب وهلاك لكم. (٣٩) هب: افرض.

KTABYEG.COM

١٣ تحديدُ زمانِ ومكانِ ورجالِ تنفيذِ الجريمةِ:

وأخذَ القومُ بعدَ ذلك يتشاورُونَ كيفَ وأينَ يقتلُون السلطان؟ واتفقَ رأيُهم آخرَ الأمر على أنْ يَتَرصَّدوه[٤٠] فى طريقِه راجعًا إلى مصرَ حتَّى إذا أمكنتْهم منه غِرةٌ تعاورُوه بسيوفِهم، وعلى أن يشركُوا معَهم فى ذلك اثنينِ من المعزِّية هما (الأميرُ سيفُ الدين بهادر والأميرُ بدرالدين بكتوت الجوكندار)؛ ليكون ذلك أسهلَ فى إرضاء المعزيةِ إذا ثارُوا لصاحِبهم حين يرَوْنَ أنَّ الصالحيةَ لم ينفردُوا بهذَا الأمرِ، وقد اختارُوا هذَين الرجُلين لشدَّة حقدِهما على السُّلطانِ وحسدِهما له.

١٤ الملكُ المظفرُ قطز يردُّ المظالمَ ويودِّعُ ابنَ الزعيمِ متوجهًا إلى مصرَ:

وما هِىَ إلا أيامٌ حتى عزمَ (الملكُ المظفر) على الرجُوعِ إلى مصرَ بعد أن رتبَ أحوالَ النُّوابِ والولاةِ ببلادِ الشَّامِ، وردَّ المظالم إلى أصحابِها، فأعادَ إلى مولاه (ابنِ الزعيمِ) ما صادَرَ التتارُ من أملاكِه، وما صَادَره منها الملكُ (الصَّالحُ إسماعيلُ) قبلَ ذلك، وأحسنَ إلى صديقِهِ القديمِ (الحاجِّ على الفراشِ)، وأكرمَه وخَلعَ عليه وسأَلَ عن مُوسى بنِ غانمٍ المقدسىِّ فقيل له إنه قد بدَّدَ ميراثَ أبيهِ فأصبحَ فقيرًا، فأمرَ نائبَه بدمشقَ فأجْرَى[٤١] راتبًا له، وعنْ مولاتِه العجوزِ (أُمِّ موسى) فقيلَ له إنها ماتَتْ، فذَهبَ إلى قبرها يزورُها ويترحَّمُ عليها.

وخرجَ من (دمشقَ) بعد أن ودَّعَ مولاه (ابنَ الزعيم) وداعًا حارًّا، وسار بعساكِره وأمرائه من المعزِّيةِ والصَّالحيةِ. وكان (الأميرُ بيبرس) لا يُفارقُه طَوالَ الطريقِ يتحدثُ معَه ويُسليه عن مصابِه، وقد أظهرله الرِّضا التامَّ عنه، ولم يَعدْ يذكُرُله حلبَ ولا دِمشْقَ؛ فإذا جرَى ذكرهُما عَرضًا[٤٢] فى الحديثِ قال له بيبرس: «لقد اخترتَ لى الخيرَيا خُوند فإنِّى لا أعدلُ بالإقامَةِ فى مصرَ بديلًا».

١٥ تنفيذُ الخطةِ الآثمةِ أثناءَ رجوعِ السلطانِ إلى مِصْرَ:

فلم يزل السلطانُ سائرًا إلى أن خَرجَ من (الغَرَابِى) وقاربَ (الصالحيةَ) وكان أتابكُه (أقطاى المستعربُ) قد سبَقه إليها بالعساكرِ ومُعْظَمِ الأمراءِ؛ ليُعِدَّ بها الدهليزَ السلطانىَّ لنزولِه، فرأى السلطانُ أرنَبًا بريًّا منطلقًا فى جانبِ الطريقِ، فلم يملكْ نَفْسه إذْ رآه أن انحرفَ عن الدربِ ودفَع جوادَه يسوقُ وراء الأرنبِ، وقد خُيِّلَ إليه إذْ ذاك أنَّ (جلنارَ) تسوقُ معَه على جوادِها الصغيرِ لصيدِ الأرنبِ كَمَا كانا يفعلانِ فى ربُوعِ الهندِ، فاستمرَّ فى عَدْوِه[٤٣] حتى أبعدَ فى البرِّيَّة، فما راعَه إلا الأميرُ (بيبرس) وستةٌ معه من الأمراءِ، فالتفَت إليهم السلطانُ قائلًا: «أنتم أيضًا تُحِبُّون صيدَ الأرانب مِثلى؟»..

فأجابه (بيبرس) قائلًا: «إنك تعلمُ يا خُوند أنِّى لا أُحبُّ صيد الأرانبِ، وإنما رأيناكَ أبعدتَ فى البريَّة فخشينا عليكَ ولحقْنا بك».

فقال السلطانُ: «شُكرًا لكم، لا خوفَ علىَّ من عدوٍّ هُنا» والتفتَ إلى الدَّربِ وراءَه فقال: «أرانِى أبعدتُ حقًّا كما ذكرْتُم، فَهَلُمَّ بنا نَعُدْ!».

فترجَّلَ بيبرس عن فرسِه، ودَنَا منه ليقبِّلَ يدَه، فمدَّ إليه السلطانُ يدَه، فقبضَ عليه بشدةٍ - وكانتْ تِلْك إشارةً بينَه وبينَ جماعتِهِ الأمراءِ - فحملَ أحدُهم على السلطانِ فضربَ عاتِقَهُ[٤٤] بالسيفِ، وتعلَّقَ به آخرُ فألقاه عن فرسِه، ورماه ثَالثٌ بسهمٍ فى صدرِه.

١٦ مَصْرَعُ السلطانِ (قُطُزَ) غَدْرًا ومسامحتُهُ لقاتِلِهِ:

وكانَ السلطانُ فى خِلالِ ذلكَ لا يُبْدِى أيَّةَ حركَةٍ للمُقَاومةِ وإنما كانَ يقولُ: «حسبِى الله ونِعْمَ الوكيلُ.. أتقتلُنى يا صديقِى (بيبرسُ) وأنا أُريدُ أنْ أُوليك سلطانًا مكانِى؟».

فلما سَمِعَ ذلك (بيبرس) منعَهُم من الإجهازِ عليه[٤٥]، فصاحُوا به: «أراد أنْ يخْدَعك، دعْنا نُتِمَّ قتْلَه» فأبى (بيبرس) عليهم فَصَاحَ الأمراءُ مرةً ثانيةً: «دعْنا يا (بيبرس) قبل أنْ يأتِيَنا هؤلاء». فقال لهم بيبرس: «دعُوهم يأتُوا إلينا، إنه لَنْ ينجُوَ مما به».

(٤٠) يترصدوه: يترقبوه.
(٤١) أجرى: حدد.
(٤٢) عرضًا: من غير قصد.
(٤٣) عدوه: جريه.
(٤٤) عاتقه: كتفه.
(٤٥) الإجهاز عليه: القضاء عليه وقتله.

KTABYEG.COM

وكانَ (بيبرس) يريدُ أن يتوضح السلطانَ كلمتَه الأخيرةَ، وكان السلطانُ قد أُغْمِىَ عليه إذْ ذاكَ، فأحَاطتْ بهم الفرسَانُ شاهِرين[٤٦] سيوفَهم، وكانوا جماعةً من خواصِّ السلطانِ ومماليكهِ قد ارتَابُوا فِى سَيْرِ الأمراءِ وراءهُ، فلحِقُوا بهم، فقَالوا للأمراء: «ألقُوا سِلَاحكم فى الأرضِ وإلا قَتلنَاكُم!».

فانتَبه السُّلطانُ لصوتِهم ورفَع طَرْفَه إليْهم، وهو مُلْقًى على الأرضِ، وقام (بيبرس) شاهرًا سيفَه يريدُ مُقاومتَهم. واستعدَّ الأمراءُ الآخَرون للدفاعِ عن أنفُسِهم، فحملَ الفُرسَانُ على (بيبرس) يريدُون قَتْله، فما راعَهم إلا صوتُ السلطانِ: «دعُوا (بيبرس) لا تقتلُوه إنَّه سُلطانكم، قد وليتُه عليْكم، فأطِيعُوه!».

قال الفرسانُ: «إنهم قتلُوكَ يا خوند، فلن نترُكهم». قال السُّلطانُ: «ما قتَلنى غيرُ سُلطانِكُم (بيبرسَ) وقد سامحْتُهُ، فاسمعُوا له وأطيعُوه، وقولوا للأتابِك أن يسمعَ له ويطيعَ».

١٧ نَدمُ (بيبرسَ) على تسرُّعِه فى قَتْلِ السُّلْطَانِ:

فدُهِشَ الفرسانُ لما سمِعُوا من السلطانِ، فوقَفُوا جامِدينَ فى أماكنِهم، وألقى (بيبرسُ) سيفَه على الأرضِ ودَنا من السُّلطانِ، وأهْوى عليه يُقبِّلُ رأسَهُ ويدَيه، ويقُول: «يا خوند! اذْبَحْنِى يا خوند! ويلٌ لى قتلتُ سلطَانَ المسلمِينَ! قتلتُ هازِمَ التتارِ! قتلتُ صديقِى الكريمَ!».

وكانَ السلطانُ إذْ ذاك قَدْ تَولَّاه مماليكُه، وأسندُوه على ظَهْرِه وجَعَلوا يمسحُون عنه الدَّم بمنادِيلهم وثِيابِهم، وهو يُرَدِّدُ الشهادَتين فتركهُ (بيبرس) لَهُم، والتقطَ سيفَه وسارَ إلى الأمراءِ الواقِفينَ وهو يصيحُ: «ويلٌ لكُمْ يا خونةُ يا مجرمُون!» فتحاماه[٤٧] الأمراءُ وجعلُوا يتقهقَرُون عنه.

وعندَئِذٍ صاحَ السلطانُ بجُهدٍ ومشقَّةٍ: «بيبرس! بيبرس! دعْهم يا بيبرس، قد عفوتُ عنْكَ وعنْهُم، وأنتُمْ فى حِلٍّ جميعًا، شكرًا لَكُمْ، قربتُمُونى من زوجَتِى.. (جلنارَ).. تعالَ يا بيبرس».

فعادَ (بيبرس) واقترب منه، فقالَ السلطانُ: «أتستحلُّ دمِى يا بيبرس؟».

فأجابه (بيبرس) والدموعُ فى عيْنَيه: «كلَّا يا خوند وإنما خشِيتُ أنْ تقتُلَنِى فاتقيتُ ذَلك».

فقالَ السلطانُ: «الحمدُ لله إذْ لم تستحلَّ دمِى، وإنَّما شَطَّ[٤٨] بك الظنُّ، قاتلْ أعداءَ الإسلامِ يا بيبرس.. هذه وصيَّتى لك، ويغفرُ الله لك خطيئتَك!».

وصرف السلطانُ نظرَه عن (بيبرس) إلى السماءِ، وتنهَّد منْ أعماقِ قلبه، كأنما انتزعَها من روحِه انتزاعًا: «وا حبيبتَاه! وا إسلاماه!» وخفقَ رأسُهُ خفقةً، لفظَ[٤٩] على إثرها رُوحَه، فحملَه مماليكه إلى حيثُ دَفَنُوه مبكيًّا عليهِ!!

١٨ (أقطاىُ المستعربُ) فى عَجَبٍ مِنَ الغَدْرِ بالسُّلطانِ وَمِنْ وصيَّتِه (لبيبرس) بِحُكْمِ مِصْرَ:

وانطلقَ (بيبرس) يتقدمه رجالُ السلطانِ الشهيدِ وخلفَه سائرُ الأمراءِ حتى بلغُوا الدهليزَ السلطانىَّ بالصالحيَّةِ فوجدُوا على بابِه الأتابِكَ (أقطاى المستعربَ)، فأخبرَه رجالُ السلطانِ بما كانَ مِنْ مصرعِ مولاهُم بأيْدِى الأمراءِ السبعةِ ومن وصيَّتِه (لبيبرس) بالسلطنةِ، فعظُم على أقطاى أن يغْدِرَ هؤلاءِ الأمراءُ بهذا السلطانِ العظيم، فى أوْجِ انتصارهِ وساعةِ قُفُولِه[٥٠] ظافرًا إلى بلاده، ولكنَّه عجِبَ من وصيَّةِ السلطانِ (لبيبرس) وكيفَ لم يذكُرْ له السلطانُ عنْها شيئًا، ولم يعرِضْ لهُ فيها بشىءٍ، ولولا أنَّ خواصَّ رجالِ السلطانِ أنفسَهم حَكَوْا له ذلك لما صدقَ هذا الخبرَ، وقد زادَ من غضبِه ونقمتِه على (بيبرس) أن يشْتَرِكَ مع الستَّةِ فى قتلِ مَنْ أرادَ أنْ ينزلَ له عن السلطنةِ.

(٤٦) شاهرين: رافعين سيوفهم فى وجوههم.
(٤٧) فتحاماه: المراد: ابتعدوا عنه.
(٤٨) شطَّ: بَعُدَ.
(٤٩) لفظ: المراد: خرجت روحه.
(٥٠) قفوله: رجوعه.

KTABYEG.COM

١٩ وَصِيَّةُ السُّلطانِ مُلْزِمةٌ للجَميعِ:

وكانَ فى وُسْعِ[٥١] (الأتابك) أن يَصْنَعَ شيئًا، فقد ثارَ (المعزيةُ) جميعًا لصاحبِهم، فلو أمَرهم بالقبضِ على (بيبرس) وجماعتِه لأطاعُوه، ولكانُوا ولَّوْهُ سلطانًا إذا نَجَحَ فى ذَلِك ولكنَّه رأى وصيَّةَ السلطان (لبيبرس) حَائِلةً دونَ ما يريدُ، فعزَم على تنفيذِها والطاعةِ (لبيبرس)، إلا أنَّه أرادَ أن يُبكِّتَه على فَعْلَتِه الشَّنِيعةِ[٥٢]، ويُذَكِّرَه أنه سيجلسُ على أريكةِ صديقٍ له أراد به الخيرَ فكانَ جزاؤه منه القتلَ.

٢٠ شجَاعةٌ أدبيَّةٌ نادِرَةٌ من (بيبرس):

ولما حضَرَ (بيبرس) والأمراء السِّتَّةُ أدخلَهُم الأتابك إلى الدِّهليز، وكان الأمراءُ المعزيةُ ومماليكُ السلطانِ وأشياعُه قد ركبُوا إلى الدهليز فأحاطُوا به متهيِّئين لما يُسفرُ عنه الحادثُ، كذلك وقف الأمراء الصالحيةُ ينتظِرُون ما يكونُ من (بيبرس).

قال الأتابك أقطاى للأمراءِ السبعةِ: «رحِمَ الله مولانا السلطَانَ.. مَنْ قَتله منكم؟». فَسَكَتُوا مليًّا، وخشُوا أن يكونَ (أقطاى) قد أعدَّ العدَّة لقتلِهم، وكان الستةُ قبلَ ذلك يخافُون بطْشَ (بيبرس) لأنه نَقِم[٥٣] عليهم تحريضَهم إياهُ على قتلِ السلطانِ، فعادوا الآن يخافُون (أقطاى الأتابك).

ولكنَّ (بيبرس) ما لبث أنْ أجاب الأتابك بِصَوْتٍ جهيرٍ تُخالطه نغمةُ الحزن: «أنا قتَلتُه!».

فنظر إليه الأتابك نظرةً دامعةً عاتبةً وقال له: «فاجلسْ على الأريكة مكانَهُ يا خوند!».

٢١ (بِيبَرْس) يجلسُ على عرشِ مصرَ:

وأدرَكَ (بيبرس) غرضَ الأتابك من تبكيته[٥٤] فلمْ يقُلْ شيئًا، بل مشَى مُتَثاقلًا إلى الأريكةِ حتى جلسَ عليها، وبَقِيَ برهةً واجمًا يغالبُ عَبْرةً تَترقرَقُ فى عينَيه ثم قال: «يرحَمُ الله صديقِى (المظفَّر)! هلمُّوا نفِّذُوا وصيتَه، واحلفُوا لسلطانِكم الجديدِ الملك القَاهِر»، ومد يدَه فصافَحَه الأتابك وحلفَ له وتبعه الأمراء الستة فحلفوا له ثم تتابع الأمراء الذين كانوا خارج الدهليز فدخلوا إليه وحلفوا له. ثم حلفَت العساكرُ جميعًا.

ودخلَ (الملكُ القاهرُ بيبرس) إلى القاهرةِ - وكانتْ قد زُيِّنتْ لمقدم (الملكِ المظفرِ) فأبقيَتْ كما هى، وسارَ فى موكبِهِ، ولم يشأْ أن ينزِل قلعةَ الجبل إلا بعد أيامٍ لحزنِه على (الملكِ المظفرِ)، حتى قيلَ له: إن سلطنتَك لا تتمُّ إلا إذَا أقمْتَ بقلعةِ الجَبلِ، فانتقلَ إليها حينئذٍ، وخَوَّفُوه مِنْ شُؤمِ لقبِهِ، فعدلَ عنه وتلقَّبَ (بالملك الظَّاهِر).

٢٢ حُزْنٌ شديدٌ على مصرعِ قاهرِ التتارِ، ومجدِّدِ شبابِ الإسلام:

وما سمِعَ الناسُ بمصرعِ (الملكِ المظفرِ) وقدومِ (بيبرس) سُلطانًا مكانَهُ حتَّى عرَاهُمْ[٥٥] همٌّ عظيمٌ، وحزنوا على (الملكِ المظفرِ) حزنًا شديدًا، وبكوْه بعيونِهم وقلوبهم برهةً.

أما الشيخُ (ابنُ عبدِ السلام) فلما بلغَه موتُ تلميذِه العظيمِ بكَى وانتحبَ وكان مما قَال فيه: «رَحِمَ الله شَبَابَه،

(٥١) وسع: مقدوره، مقدرته.
(٥٢) الشنيعة: القبيحة.
(٥٣) نقم: أنكر.
(٥٤) تبكيته: توبيخه.
(٥٥) عراهم: أصابهم.

KTABYEG.COM

لو عاشَ طويلًا لجَدَّدَ شَبابَ الإسلامِ، لله أبوه! ما مَنَعهُ من اختيارِ (بيبرس) بغضُ (بيبرس) له، وما وَلِي أمرَ المسلمِينَ بعد (عُمرَ بنِ عَبْدِ العزيز) أحدٌ يُعادِلُه صلاحًا وعَدْلًا» وجَهِدَ (الملكُ الظاهرُ بيبرس) لينالَ رضَا الناس عنه، فألغى الضرائبَ التى فرضَها عليهم (الملكُ المظفرُ) لبيتِ المالِ، فهل رضُوا عنه بعدَ ذلك؟ وماذَا قَالُوا فيه؟ قَالوا: «إنَّه أبطلَ ما علينَا لبيتِ المالِ، ولم يُبطلْ ما علينا لنفسه وأمرائِه ومماليكِه!».

٢٣ (بيبرسُ) يعملُ بوصيةِ (قُطُز) وينهضُ بمصرَ والإسْلامَ:

على أن الملكَ الظاهرَ لم يألُ جُهدًا فى العملِ بوصيةِ صديقهِ وسلفِه (الملكِ المظفرِ قُطز)، فقد ظَلَّ يذكُرها ويقومُ بها إلى آخرِ أيامِه، فوفَّى[٥٦] للإسلامِ، وقاتَل أعداءَه من التتار والصليبيِّينَ حتى أذَلَّهُم، ونهضَ بمصرَ وأعْلَى كلمَتَها حتى جعلهَا فى عهدِه إمبراطوريةً عظيمةً باذخةً[٥٧].

٢٤ (بيبَرْسُ) يكشفُ حقيقةَ (قُطُزَ) التاريخيَّة:

ورُئِيَ (الملكُ الظاهرُ بيبرس) ذات يومٍ يُقلِّبُ يَده فى أوراقِ (الملكِ المظفَّر قطز)، فعثَر[٥٨] عَلَى كتابٍ هذا نصُّه:

«إلى ولدى الأعزِّ الأجلِّ: (الملكِ المظفرِ قطز):

تلقيتُ كتابَك جوابَ التهنئةِ باعتلائك عرشَ مصرَ، تذكُرُ فيه عزمَك على الرُّجوعِ إلى اسْمِك الأولِ الذى سمَّاكَ به أبُوك (الأميرُ ممدود) وإشهارِه، ثم عُدولِكَ عَنْ ذلك خشيَةَ أن ينتَقِضَ عليكَ الأمراء المماليكُ إذا علِمُوا بأصلِكَ، وتستَشِيرُنى فى ذَلك، فالرأْىُ عندِى ما رأيتَ، وليس العِبْرة بالأسماءِ، ولكنْ بالخِلالِ والأعمالِ، والله يعلمُ أنَّكَ (محمودُ بنُ ممدود ابنُ أختِ السُّلطانِ جلالِ الدينِ بن خُوارزم شاه)، وأنَّ التى تحتَ عِصْمتِك[٥٩] هى ابنةُ خالِك (جلالِ الدِّين)، فحسبُك هذا من ربِّك، والناسُ يعلَمُون أنَّكَ مملوكٌ علَتْ به همَّتُه وكفايتُه وصلاحُه، حتى صارَ من أعظمِ ملوكِ المسلمين وأعدلهم، وحسْبُك هذا من النَّاسِ.

والسَّلامُ مِنِّى، ومن خادمِك الأمين الحاجِّ (علىٍّ الفراشِ)، عليكَ وعلى شيْخِنا الإمامِ (عزِّالدينِ بن عبدِ السلام) السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه. [من خادمك المطيع ابن الزعيم]».

٢٥ (بيبَرْس) يترحَّمُ على صديقِه العظيمِ (قُطُز):

فلما قرأ (الملك الظاهرُ بيبرس) هذَا الكتابَ تدَحرجتْ دمعتَان كبيرتانِ على خدَّيْه، حتى توارتَا فى لحيتِه، وجعلَ يقولُ بصوتٍ لا يسمعُه غيرهُ: «رحمةُ الله عليك يا صديقى (قُطز) لشدَّ ما أتْعَبنى اقتفاءُ أثَرِك، وما أرانِى بعدَ الجهدِ الطويلِ أبْلُغُ بعضَ ما بلغْتَ».

(٥٦) وفَّى: أتم.
(٥٧) باذخة: عالية.
(٥٨) عثر: وجد – حصل.
(٥٩) عصمتك: رباط الزوجية. الجمع: عِصَم.

KTABYEG.COM